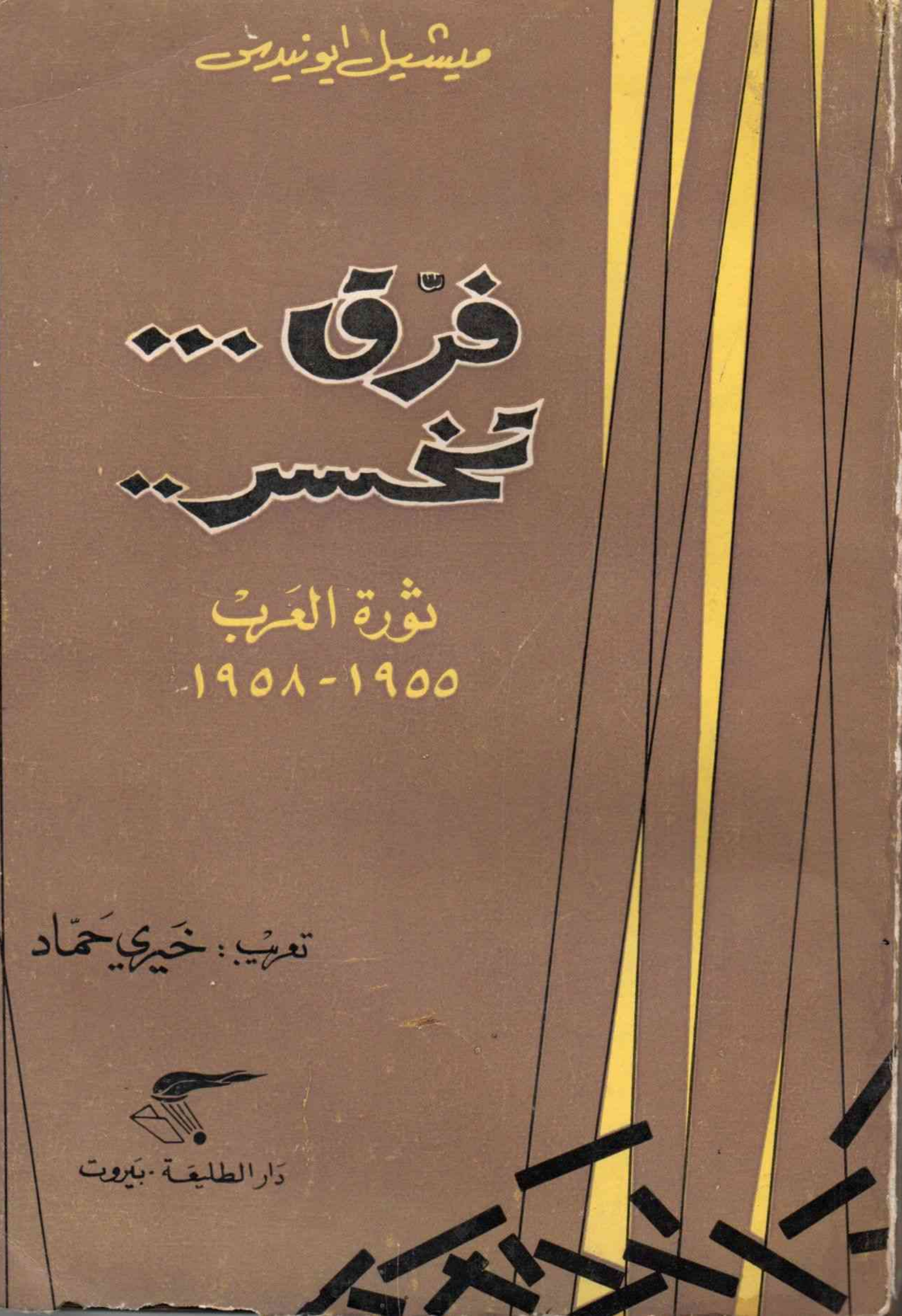


ميشيل ايونيدي
فرّق... تحسد...
ثورة العرب
١٩٥٥-١٩٥٨
تعريب: خيري حمّاد
دار الطليعة · بيروت



فوّق ... تحسر

MICHEAL IONIDES

DIVIDE And LOSE

THE ARAB REVOLT OF 1955-1958

LONDON, 1960

الطبعة الاولى

آب (أغسطس) ١٩٦١

ميشيل ايونيدس

فرِّق... تخسر

ثورة العرب
١٩٥٥ - ١٩٥٨

تعريب : خيري حمّاد

منشورات : دار الطليعة . بيروت

تقدمة المعرّب

قليلون هم المنصفون بين الكتاب الأجانب الذين يعالجون مواضيع تتعلق بهذا الوطن العربي ، وبسياسة حكوماتهم تجاهها . اذ انهم لا يستطيعون التجرد كل التجرد في كتاباتهم عن عواطفهم واحاسيسهم الشخصية والقومية ، ليكونوا موضوعيين كل الموضوعية في معالجتهم هذه المواضيع . ولكن هذه القلة ، ان تجردت كل التجرد عن الميل والهوى ، اقبلت على الكتابة بجرأة لا يضاهيها جرأة ، فجاء ما تكتبه ، صادقاً ، ومصوراً للحقيقة كما يراها انسان منصف .

ولعل ميشيل ايونيدس ، مؤلف هذا الكتاب الذي تضعه دار الطليعة الزاهرة بين يدي القراء ، واحد من هذه القلة التي أشرت اليها ، اذ حاول الى حد كبير ، في كتابه هذا ، التجرد عن هواه ، وشرح سياسة بلاده انكلترا ، تجاه الوطن العربي في الآونة الاخيرة ، مع مقدمات عاد بها الى نهاية الحرب الكونية الأولى ، شرحاً موضوعياً صحيحاً ، يظهر الهوة السحيقة بين ما يفكر به انسان منصف ، وبين ما سارت عليه السياسة من خطط وطرق ومناورات .

وقد نختلف مع ايونيدس ، في بعض اتجاهات تفكيره ، وقد لا نتفق معه في الدوافع التي حملته على وضع هذا الكتاب ، ولكن اختلافنا هذا معه ، لا يحملنا على ان نضن بنقل افكاره الى القراء العرب ، كما اوردها هو ، بأمانة وصدق ،

ودون أي تغيير أو تبديل ، لأن هذه الأمانة في النقل والتعريب هي الأساس الصادق في إطلاع كل عربي على ما يفكر به الآخرون في أمور تتصل به وبوطنه وشؤونه .

فعسى ان اكون قد وفقت في هذه المهمة ، وان يكون هذا الكتاب صورة صادقة لما قاله ايونيدس وفكر به ....

خيري حماد .

توطئة

يهتم الجزء الاكبر من هذا الكتاب بسنوات الأزمة الثلاث في الشرق الأوسط مستهلة بعام ١٩٥٥ ومنتهية بعام ١٩٥٨ . وقـــد شهدت بنفسي ، بوصفي احد العضوين غير العراقيين من اعضاء مجلس الاعمار في العراق ، المراحل الأخيرة في المأساة التي انتهت بثورة تموز عام ١٩٥٨ ، والتي وضعت نهـــاية للعهد الهاشمي الملكي ، وزعيمه الوفي نوري السعيد ، وختمت نوعاً من العلاقات الخاصة بـــين العراق وبريطانيا بعد ان عاشت اربع حقب . وقد انتهت مدة تعاقدي قبـــل حلول النهاية بثلاثة اشهر .

وكنت قد رأيت اجزاء مبكرة من القصة في مختلف انحاء الشرق الأوسط . فقد قضيت عشر سنوات اعمـــل مهندساً للري في العراق ، وذلك بـــين عامي ١٩٢٦ و ١٩٣٧ ؛ ثم عملت سنتين في شرق الاردن كمدير للاعمار ؛ وانتهى عملي فيها في ربيع عام ١٩٣٩ ! . وعدت الى الشرق الاوسط ايام الحرب الـــكونيـــة الثانية عاملاً مع القوات المسلحة بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٨ وقاضياً معظم وقتي بين بيروت والقاهرة . وظللت بعد ذلك على اتصال بشؤون الشرق الأوسط على الرغم من انني كنت اعيش في انكلترا ، وقمت بزيارته عدة مرات .

فهذا الكتاب والحالة هذه يرتكز الى اكثر من ثلاثين عامـــاً من الارتبـــاط الوثيق بشؤون الشرق الأوسط ولا سيا بالعراق . ولكنـــه ليس على أي حال عرضاً شخصياً للأحداث التي مرت بي ، وإنما تحليل لاسباب الوقائع ودوافعها . والقسم الأول من الكتاب تحليل للتصـــارع الرئيسي في الهدف والعمل ، الذي

جعل المسرح معداً للمعركة الضخمة التي نشأت بصدد حلف بغداد في ربيع عام ١٩٥٥ . اما القسم الثاني فتعليق مستمر على ذيول المعركة نفسها كما بدت لمواطن بريطاني يحتل مركزاً له مكانته يستطيع منه مراقبة الاحداث . ويمتد خط الرؤية السياسي الجغرافي من بغداد غرباً عبر السويس الى لندن والغرب ، بدلاً من ان يكون من لندن شرقاً باتجاه الشرق الأوسط ، وهو الاتجاه الاكثر شيوعاً بالنسبة للناس في بريطانيا .

وقد ضمنت كتابي عدداً من المقتطفات النصيّة من رسائل ومذكرات كتبت في نفس وقت تدوينها . وليست لأي منها أي قيمة رسمية ، وانما هي شخصية بعثت بها في حينها الى اصدقاء ، أو دونتها في ملاحظاتي . ولم اذكر بالطبع اسماء الذين وجهت اليهم هذه الرسائل ، اذ لا قيمة لها بالنسبة لمحتويات هذا الكتاب ، ذلك لأني لا اتناول وصفاً لما قمت به من اعمال ، وانما كان قصدي منها ان ادون الوقائع كما حدثت وان اعلق عليها . ولهذا فان هذه المقتطفات لا تعدو ان تكون نصوصاً معاصرة تتضمن تقديراتي للأوضاع في حينها ، وشيئاً عن الاجواء التي وقعت فيها .

ولا ريب في ان الكثيرين من القراء البريطانيين والغربيين سيستغربون معظم ما كتبته في هذا الكتاب عن الصهيونية واسرائيل ، وسيستقبلونه بشيء من عدم الارتياح . ولكن اسرائيل غدت دولة مستقلة ذات سيادة ، وتشترك كغيرها من الدول في الشؤون العالمية ، ولذا فان عليها ، وعلى الصهيونية معها ، ان تنتظرا كغيرهما من الدول والحركات ، ان يراقب الناس حركاتها ، وان يناقشوها بصراحة . وليس لهما حق مطلقاً في ان ينتظرا من غير اليهود ، ومن اليهود ايضاً الاستمرار الى ما لا نهاية في الاحجام عن نقد نشاط الصهيونية السياسي مخافة ان يتهموا باللاسامية . واعتقد ان في الامكان الوصول الى تسوية ، اذا اقتلع الاسرائيليون من داخل صفوفهم تلك القوى التوسعية التي يعرف كل انسان بوجودها ، والتي يندر ان تشير اليها الصحافة البريطانية ولا يذكرها قط أي من وزراء بريطانيا . فانا ضد التوسعية الصهيونية كما انني ضد الابادية العربية

للاسرائيليين ، ذلك لأنني اريد ان ارى تسوية ، ولأنني اخشى وقوع المزيد من سفك الدماء والقتال ، اذا لم تتحقق هذه التسوية .

وقد اسفت انا وزوجتي لتركنا العراق وسط تلك النذر في ربيع عام ١٩٥٨ . وقد قضينا سنوات سعيدة في تلك البلاد قبل الحرب الكونية عندما كانت البلاد لا تزال فقيرة في اموالها ، وكان امامها الكثير لتعمله . وعندما عدنا في عام ١٩٥٥ بدت جميع مشاريع الاعمار والتنمية ، التي كانت في الماضي احلاماً ، في متناول العراقيين ، ومن المؤسف ان الكثير منها قد ضاع . وقد عاشت زوجتي معي في كل مرحلة من مراحل كتابة هذ الكتاب ، واني مدين لها بالكثير . واني لآمل ان يؤدي هذا الكتاب الى خلق شيء من الفهم لما وقع ، وان يمهد الطريق للمستقبل .

وقد مضى هذا الكتاب الى المطبعة قبل ان يصدر المجلد الأول من مذكرات السيد انتوني ايدن ؛ ولذا اضفت اليه ذيلاً يتناول بعض الاحداث التي وردت في مذكراته . وكلي أمل ان يؤدي هذا الفصل الذي أضيف ، الى ايضاح ما تركته سياساته من اثر في الوطن العربي .

لندن – كانون الثاني ١٩٦٠ **م . ايونيدس .**

مقدمة

أدت الثورة التي وقعت في العراق في الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ الى قيام موجة طاغية من القلق في عالم الغرب. وقال قائلون ان عبد الناصر سيجتاح الشرق الأوسط ، بينما قال آخرون ان الروس سيسارعون الى تعبئة الفراغ . وهناك من قال ايضاً ان العرب بتأييد من الروس سينقضون على اسرائيل .

وكان ثمة طوفان من التساؤل . فماذا حدث ؟ لقد كان هناك في العراق نظام قوي معاد للشيوعية ومؤيد لأحلاف الغرب ، تدعمه اموال طائلة من عائدات الزيت ، ينفقها بحكمة وروية في مشاريع الاعمار . ووراء حلف بغداد تقوم دعامة قوية من قوة امريكا وبريطانيا العسكرية . وفي العراق ، الحارس لهذا الحلف ، نوري السعيد ، العجوز القوي ، الذي كان يعتبر من ابرز ساسة العالم ، والمخلص لأصول هذا الحلف ولبابه . وكان العراق قلعة حصينة من قلاع العالم الحر ، يعرض كانموذج ، مراكز القوة التي اقامت فيها دول الغرب تطويقها الاستراتيجي ، وهي مراكز يجب الحفاظ عليها حتى ولو ادى هذا الحفاظ الى الحرب . ولكن مركز العراق في هذا الجهاز قد سقط ، وليس في وسع جميع ما لدى الدول الغربية من قوى عسكرية ان تفعل شيئاً لاستعادته . ولم تكن القضية مجرد ضياع مركز فحسب ، بل كانت ردة الى الوراء ، وانتكاسة . وقد قذف انهيار مركز العراق ، بجميع استراتيجية الغرب في الحرب الباردة في قدر غالية أذابتها ، متناولاً نواحيها العسكرية والسياسية والاقتصادية على حد سواء .

فماذا حدث يا ترى ؟

كانت بريطانيا تملك مدة اربعين عاماً قوة اتخاذ القرارات العسكرية بشكل حاسم في جميع المنطقة العربية في الشرق الأوسط ، بكل ما فيها من طرق مواصلات وزيت وتسهيلات استراتيجية . وكانت السيطرة البريطانية تمتد من البحر الابيض المتوسط شرقاً الى خليج البصرة وجنوباً الى البحر الاحمر ، وليس هناك من ينافسها . وكانت هذه الحقيقة المحور الذي تدور حوله السياسة البريطانية منذ الايام التي تلت الحرب الكونية الأولى ، عندما اصبحت منطقة نفوذنا في الشرق الأوسط ، تعتبر بصورة واضحة وصريحة ذيلاً او ملحقاً لامبراطوريتنا البريطانية . وكانت والحالة هذه ، وشاح السلطة المنتشر على جميع المنطقة العربية .

لكن هذا النظام الذي اقمناه ، اصبح مع مضي السنين ، عرضة للتحدي بصورة مستمرة . فقد اعترض عليه العرب منذ البداية ، وحاولوا تجنبه ثم الخلاص منه . وقد تحولت مقاومتهم الى عداء عنيف بسبب سياسة الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، التي لقيت تأييداً أولياً من الحكومة البريطانية . وغدت طبيعة هذا النظام الاستعمارية ، في العالم الغربي ، وفي بريطانيا بالذات مصدراً للقلق المتزايد والنقد . ففي عالم يتعلق بميثاق الأمم المتحدة ، تبدو علاقة من هذا النوع ، كمفارقة في احسن حالاتها ، أما في اسوأ هذه الحالات فقد تكون مصدراً للاحتكاك ، وللخطر احياناً .

وبدأ انقسام عميق يظهر في الرأي العام البريطاني . فهناك اولئك الذين يرون الشرق الأوسط كمنطقة استراتيجية ، تضم شعباً واحداً . وهناك من يرى ان الشرق الأوسط ، مجموعة من الشعوب تحتل اراضي ذات قيمة استراتيجية . فإذا اتجه التفكير الى الارض اولاً ، فان الاهتمام ينحصر بالطبع في المراكز العسكرية القوية . اما اذا اتجه التفكير الى الشعب ، فان الاهتمام ينحصر بالطبع في العلاقات السياسية القوية . وإذا فكرت الدولة في المراكز العسكرية القوية اتجه تفكيرها الى الاحلاف والى الامتيازات العسكرية والقواعد . اما اذا فكرت في العلاقات السياسية القوية ، فان اهتمامها يتجه الى المؤسسات

السياسية والاقتصادية ، وينتقل الفكر الى المحور المركزي الجديـــد للسياسات الدولية وهي منظمة الأمم المتحدة .

ويبدو هذان الاتجاهان الفكريان متناقضين اذا ما تعريا ، وتضاربا ، فلكل دولة في العالم اليوم مصلحة من نوع ما في موارد ملتقى طرق الشرق الاوسط وتسهيلاته . ولا ريب في ان المبدأ القائل بحق دولة كبيرة او مجموعة من الدول في ان يكون لها امتيازات عسكرية خاصة بها في بعض الدول المستقله اسمياً ، مما يؤثر على المصالح العامة لجميع الدول والشعوب ، يتناقض تماماً مع المبدأ القائل بان المشاكل ذات الصبغة الدولية يجب ان تحل على صعيد دولي ، والقضية هنـا ليست قضية خير او شر ، او صواب او خطأ ، وانما هي قضية جهاز تنظيمي يقرر موارد السلطان والعمل . وفي وسعنا ان نناقش حسنات هـذا النظام او ذاك . ففي وسع هذين النظامين ان يتعايشا ، اذا لم يتضـــاربا او يصطدما . وبالفعل فقد عاش هذان النظامان جنباً الى جنب سنوات طويلة ، ولكن في الوقت الذي اخذ فيه النظام المتجه الى التفكير الدولي في النمو ، كان النظام الاستعماري يأخذ في التأخر والانحطاط . وكان هذا التبـدل يقع تحت مستوى الظواهر السطحية . وادى العمل الفعلي في عملية السويس الحربية في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ الى اظهار هذا الانقسام في الرأي بصورة مفـــاجئة . ولم يعد في الامكان اخفاء هذا التباين في الآراء .

وكنا حتى ذلك الحين قد تمكنا من تجنب هذه القضية . وكنا قد تركناها معلقة في المؤخرة دون حل . فكلمة « الامبراطورية البريطانية » غدت عتيقـة الطراز ، ومنذ انتهاء الحرب الكونية الثانية كان تحول « الامبراطورية » الى « مجموعة الشعوب البريطانية » قـــد بدأ وأخذ في الازدياد ، وسرعان ما اعطي الاستقلال للممتلكات الامبراطورية والمستعمرات السابقة لتتلوها قائمة طويلة من البلاد . أما في الشرق الأوسط ، فان حقيقة « شبه الاستقلال » كانت مختفيـة وراء النظرية القائلة ان الاستقلال قد تم تحقيقه ، ولذا لم تنشأ مشكلة بالنسبة الى اولئك الذين قبلوا هذه النظرية . فقد نالت العراق في عام ١٩٣٢ ومصر في عام

١٩٣٦ استقلالها الكامل ، واصبحا عضوين في عصبة الأمم ، ونالت سوريا ولبنان استقلالها في عام ١٩٤٦ والاردن في عام ١٩٤٧ . وكانت بريطانيا على علاقات تعاهدية مع مصر والعراق والاردن ، وقد تم التفاوض على هذه المعاهدات وتوقيعها بصورة حرة . وكان الرأي العام البريطاني قد نسي ، كما اهمل المسؤولون تشجيعه على التذكر ، ان دول الشرق الاوسط العربية ، كانت قد اعتبرت مرتبطة بالنظام الاقليمي للامبراطورية البريطانية ، وان بعض المسؤولين عندنا كانوا لا يزالون يعتبرونها كذلك . أما العرب ، فلم يكونوا قد نسوا هذه الحقيقة ، وكانوا يشجعون على ان يتذكروا بان جهاز النفوذ الامبراطوري ما زال قائماً ، وهو يستند على الاحتلال والحماية والانتدابات ، التي تلتها المعاهدات مع مصر والعراق والاردن . وكان الاشراف الاستعماري المباشر قد اختفى ، ولكن المعاهدات احتفظت بالقواعد والامتيازات العسكرية ، كما احتفظت بالبنود السياسية التي كانت المصدر الحقيقي للنفوذ . وطالما ان هذه المعاهدات سارية المفعول فان جهاز الاشراف والسيطرة باق ومستمر . وبقاء هذا الجهاز يؤمن استخدامه بصورة مستمرة . ولما كانت الحكومة البريطانية راغبة في تمديد اجل المعاهدات فقد افترض العرب انها تريد ان تحتفظ باشرافها على بلادهم . وكان مجرد الاحتفاظ بهذا الاشراف في رأيهم ينطوي على الرغبة في استخدامه .

ومن الحق ان يقال ، ان الرأي العام البريطاني ،وبعض ذوي السلطان فيه ، لم يكونوا قد لاحظوا ان الدول العربية بموجب المعاهدات القائمة ، كانت مستقلة فقط الى الحد الذي لا ترغب فيه في ان تمارس هذا الاستقلال بصورة انفرادية . ولم يكن الرأي العام البريطاني قادراً على فهم السبب في هذا الجيشان في البلاد العربية والمطالبة باستقلال من المفروض انها حصلت عليه منذ سنوات طويلة ، ولماذا هذا الهتاف للحرية في الوقت الذي تتمتع هذه البلاد بها منذ عهد طويل . واذا كنا نرغب حقاً في ان نفهم ما وقع في سنوات الازمات من عام ١٩٥٥ الى عام ١٩٥٨ فعلينا ان نحسر النقاب عن حقيقة العلاقات التي خلقتها هذه

المعاهدات . وعلينا ان ندرك لماذا اخذ العرب ينظرون الى هـذه الامتيـازات والقواعد العسكرية التي اقيمت في الشرق العربي للدفاع عن العرب وعن انفسنا ضد الدول المعادية من الخارج ، نظرة الكراهية ، وكأنها موجهة ضدهم انفسهم . وهذا هو موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب .

ولا ريب في ان كون هذه العلاقة ذات طابع استعماري في معنـاها الحرفي والتركيبي ، كافٍ لأن يجعل منهـا مدار اعتراض للكثيرين من العرب الذين لم ينظروا اليها قط بعين الرضا . أما بالنسبة الى الآخرين الذين تعاونوا معنا . فقد كان الموضوع لا يخرج عن مساومة ، اذ كان هذا « الاستقـلال الزائف » الذي نصت عليه المعاهدات ، بديلاً وعوضاً عن الامتيازات الحقيقية التي حصلوا عليها من وجود صديق قوي في هذا العالم من المنافسات الدولية القوية . لكن أي عربي لم يستطع ان يوفق بين هذا الخير الذي يمنحه اياه التأييد البريطاني ، وبـين تلك الحماية التي يؤمنها اشرافنـا العسـكري على استيطان الصهيونيين في فلسطين العربية . وعندما تبيّن الغرض الحقيقي للصهيونية السياسية باقامة دولة اسرائيل وطرد ثلاثة ارباع المليون من العرب في عام ١٩٤٨ من فلسطين ، تحولت تـلك الصداقة التي كسبناها بمكارمنا السابقة ،والتي كان من المحتمل ان نحتفظ بها ـ الى عداء متأصل . وأخذ العرب يرون في جهاز النفوذ البريطاني سلاحاً موجهـاً ضدهم انفسهم لا ضد أي خطر خارجي ، وذلك لأن الصهيونية تفيد منه في استيطانها وتوسعها . وكان العرب في الماضي يقولون ان مثل هذا الشيء سيحدث في المستقبل ، ولـكن الحكومة البريطانية والصهيونية على حد سواء كانتـا تؤكدان لهم ، بأن ليس ثمة ما يخشون منه . ولهذا فـان الفصل الثاني يشرح الاستعمارية الصهيونية واثرها على العرب ، والورطة التي اوصلت علاقاتنا بالعرب اليها من جراء مفعولها .

وقد ظل العرب سنوات طويلة يطالبون بالتحرر من حالة من التبعية كان من المفروض انها غير موجودة ، مع انها كانت موجودة فعلاً ، وكانوا يلحفون بوضع حد نهائي للهجرة الصهيونية ، التي كان من المفروض انها لا تضرهم ، مـع

انها كانت تضرهم فعلاً .

وكان الإصرار على تحقيق الاستقلال الناجز الكامل ، حافزاً على نمو الحركة القومية العربية ، وكان الألم من كارثة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل ، قد وحّد الحركات الوطنية . وانمى جيلاً عربياً جديداً نضج وعيه السياسي في هذا العالم الجديد الذي يقوم على الطائرات والراديو والافلام، الذي ظهر بعد الحرب الكونية الأولى . وأدى ظهور الأمم المتحدة كمنبر للرأي العام العالمي يستطيع العرب ان يستخدموه في اسماع صوتهم وفي الاقتراع كغيرهم من الشعوب ، الى وجود وسيلة جديدة للتعبير السياسي والنفوذ . وغدا القوميون العرب اكثر اصراراً على الوصول الى هدفهم، واكثر اتحاداً في اصرارهم،بعد أن توافرت لهم سبل جديدة يستطيعون بواسطتها التعبير عن تصميمهم . وفي الوقت نفسه فان القوة المدمرة الانتحارية للأسلحة النووية العصرية ، والاعتماد الاقتصادي المتبادل والمتزايد بين الشعوب اصبحا قوة تعمل في ازالة اثر الحرب كاداة للسياسة ، بحيث غدت وسائل حل المنازعات دون اللجوء الى الحروب شرطاً اولياً وضرورياً اكثر منه هدفاً معنوياً وروحياً . وتتناول الفصول الباقية من القسم الأول من الكتاب هذه المواضيع ، فاحصة الحركات الحاسمة ، في المحتوى الثلاثي ، وتهيؤ المسرح للجولات الأخيرة التي بدأت في ربيع عام ١٩٥٥ .

أما القسم الثاني من الكتاب ، فيتناول أزمات الشرق الأوسط بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ . وكانت هذه الأزمات مركباً من الخصومات والجهود المعقدة . فقد حاولت بريطانيا وامريكا ان تضع الدول العربية ضمن نطاق الاحلاف الغربية . وكانت الدول العربية ميداناً للصراع المتبادل بين اولئك الذين يريدون الانضواء الى الاحلاف الغربية وبين اولئك الذين يريدون الحياد . وكانت روسيا تريد موطىء قدم بدورها . وكان الفرنسيون يريدون التخلص من تهديد عبد الناصر لمصالحهم في شمال افريقيا . وكان الانكليز يريدون الخلاص من عبد الناصر ، متهمينه بانه أداة في أيدي الشيوعية ، لأنه يؤلف في الحقيقة خطراً على حلف بغداد وعقبة في طريق تزعم نوري السعيد ، رجلهم في العراق ، على العالم

العربي بأسره . واراد الجيل القـــديم من انصار الملكية من العرب ان يكبحوا جماح الأجيال الصاعدة من المتطرفين والمصلحين ودعاة الجمهورية . وكانت جميع هذه الاهداف المتعارضة معقدة ، اذ انها تنطوي على العلاقات بين الناس والناس، والرجال والرجال . وبالاضافة الى كل هذا التصارع ، فقد كانت هناك اسرائيل التي تطلب النزال باستمرار ، والتي كان هدفها واضحاً محدوداً ، وجغرافياً ، فقد كانت الصهيونية السياسية ، تنشد بصراحة وجلاء التوسع الاقليمي كهدفهـــا الاول والاساسي .

وفي خضم هذا التصارع بين العقائد والمثل والفلسفات السياسية ، ظهر جو مشحون بكل شيء . فهنـاك الليبرالية الامريكية والاستعمارية والحياد والاشتراكية والرأسمالية والشيوعية والصهيونية . وهناك بالاضافة الى هـــذه العقائد ، ديانات متعارضة وان كان تأثيرها أقـــل شأناً وأهمية من الاصطراع السياسي ، واعني بها الاسلام والمسيحية واليهودية والوثنية .

ووجدت هذه الاهداف وطرق التفكير نفسها متشابـــكة في مصطرع من المشاحنات والخصومات . وادخلت جميع الاختراعات الحديثة التي يستطيـع فيها الفرد التأثير على الآخرين ، كالاذاعات والتلفـــزيون والاشرطة السينمائيـة والصحافة والطائرات ، والاسلحة على اختلاف انواعها .

ووراء هذه الصراعات المتوازية او المتضاربة ، كان هناك صراع واحد اكبر منها جميعاً ، ولكنها جميعها تتصل به اوثق صلة . فما هي الطريقة التي سيتبعهـا العالم في التعامل مع الشرق الاوسط في السنوات القادمة ؟ وهل سيكون هـذا المفترق الحيوي للطرق تحت وصاية دولة واحدة أو مجموعـة من الدول ، وهـل سيكون ملتزماً بأحلاف وارتباطات سياسية وعسكرية واقتصادية وما تنطوي عليه من عقوبات زاجرة ؟ واذا وقع هذا ، وقبل به العالم على اعتبار انه السبيل السوي للأوضاع ، فان علينا ان نتوقع استمراراً في الصراع ، فاذا كان من حق دولة او مجموعة ان تقيم مثل هذا الانسجام مع مصالحها وان تجد فيه أمراً مناسباً ومقبولاً ، فليس هناك ما يدعو دولة اخرى أو مجموعة من الدول الى الامتنـاع

عن تحدي هذا المركز الممتاز بنفس الوسائل التي لجأت اليهـــا الدولة او مجموعة الدول الاولى . واذا كان العالم يقبـل قواعد من جانب او كتــلة ، فمن حق الجانب الآخر ان يتبع هذه القواعد ، واذا كانت كتلة واحدة تعتقد ان هـذه القواعد صحيحة من ناحية اخلاقية ، وسليمة بالنسبة اليها ، فمن حق الكتــلة الثانية ان تفكر نفس التفكير .

وعلى ضوء هذه القواعد ، هل يقرر العالم ، عدم القبول بأية وصـــايات أو حمايات على هذه المناطق ، ويؤكد ان حقوق اصحاب هذه البـلاد ومستخدمي هذه المنافع العامة والموارد الموجودة في الشرق الاوسط ، هي ذات قيمة بالنسبة للمجتمع الدولي كله ، وان يعنى بها تحت اشراف دولي عام ؟ واذا صحت هـذه النظرية الاخيرة ، فمن الواجب اتخاذ خطوة عملية في هذا الاتجاه لإجراء عملية طويلة شاقة ، لاستخلاص السيطرة العالمية ووضعها على اسس سليمة تجنباً من قيام سحب ذرية تمحى فيهـا الانسانيـة .

* * *

وقد بدأت الحركات الاصطراعية في ربيع عام ١٩٥٥ بعد فترة من الهدوء استغرقت شهوراً ، فنشب نزاع فكري وعملي اتخذ شكلاً واضحاً . فبريطانيـا وامريكا تريدان اقامة جهـاز من الاحلاف العسكرية يبـــدأ بحلف بغداد والقوميون العرب ، مصممون تصميما قاطعاً على معارضة هـذه الحركة تحت اسم الحياد . وظهرت مخاوف وشكوك كثيرة في بريطانيا وامريكا ، عما اذا كان بالامكان ان تعمل مثل هذه المناطق من النفوذ في ظل الاوضاع الحاليـــة . وظهرت في الوقت نفسه بادرة جديدة من روسيا في اساليبها ، وذلك رغبة منها في ايجاد موطىء قدم في الشـــرق الاوسط عن طريق تأييدها الحركة القوميـة البورجوازية واهدافها . وبدت من فرنسا طلائع ما ظهر جلياً فيا بعد على انـه تحالف عسكري مع اسرائيل ضد عبد الناصر . وبانت من اسرائيل نفسهـــا استهلالات جديدة لما غدا مطامع في الحصول على اراضٍ جديدة لاسرائيل .

وظل هذا التشكيل قائماً في صوره المذكورة ، حتى قيام ثورة العراق في الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ ، وهي الثورة التي حطمت عنصره الاول . فعندما سقط حكم نوري السعيد وعهده في العراق ، حلت قضية استمرار العراق في حلف بغداد واشتراكه فيه بطبيعتها وبصورة حاسمة . وهكذا لم تبق هناك قاعدة للتوسع في عضوية الحلف بين الدول العربية ، واقناع الشرق الاوسط بكامله في الانضمام الى حلف دفاعي مؤيد للغرب . ولهذا فقد توقف مفهوم ايجاد منطقة نفوذ خاصة تضم مفترقات الطرق الاستراتيجية وموارد الزيت في الشرق الاوسط عن ان يكون له معنى عملي . ويضم الفصل الأخير من الكتاب بعض الانطباعات عما وقع بعد ثورة العراق ، واهميته في هذا الميدان الواسع من الشؤون العامة .

القسم الأول

« يوضح هذا القسم حقيقة اهداف العناصر الثلاثة المتصارعة في الشرق الأوسط ، وهي العرب ، والبريطانيون والصهيونيون . فقد اراد البريطانيون السيطرة التي لا ينازعهم عليها احد ، على الاهداف والمصالح الاستراتيجية الحيوية . بينما اراد الصهيونيون ما اسموه باسرائيل . واراد العرب التخلص من السيطرة البريطانية ووقف الصهيونية ومنعها من تحقيق مطامعها . ويوضح هذا القسم كيف حاول كل فريق من الفـرقـاء الثلاثة المضي في تنفيذ ما يريد ، شارحاً الاوضاع السياسية التي سادت المنطقة حتى قيام فترة خادعة من من الهدوء في شتاء عام ١٩٥٤ ، سرعان ما تبددت لتخلفها سنوات حاسمة من الأزمات المتلاحقة » .



سيطرة بريطانية لا منافس لها

عندما انتهت الحرب الكونية الاولى ، وأنهت معها المنـــافسة الاستعمارية الالمانية على الشرق الاوسط ، قامت القوات البريطانية باحتلال طرق المواصلات الحيوية عبر قناة السويس ، واراضي الشرق الاوسط ، الممتدة من البحر الابيض المتوسط الى خليج البصرة . وغدونا لاول مرة في التاريخ القوة البرية الوحيدة المسيطرة في الشرق الاوسط . وبالطبع كان هناك الفرنسيون ايضاً في سوريا ولبنان ، يلاحقون عزتهم الاستعمارية ، ويتابعون رسالتهم الثقافية التقليدية ، ويتحملون كمسؤولية خاصة ، رفاهية الطوائف المسيحية في لبنان . ولم يكن ثمة شك مطلقاً في حقيقة اهداف بريطانيا ولا في أساس الحق الذي تستند اليه في متابعة هــذه الاهداف . فالشرق الاوسط ، يقع على الطريق بين انكلترا وامبراطوريتهـا في الهند ، وعليها ان تحافظ على سلامة هذه الطريق سلامة ابدية . وكان الفرنسيون قد هددوا هذه السلامة في الماضي ، كما هددها الروس والالمان . أما الآن فها هي قواتنا هناك . ولن نسمح من جديد لأية دولة اخرى بان تنافسنا على حماية طرق امبراطوريتنا وشرياناتها . وكنا هناك بحق الفتح ، ولم يكن في وسع احد ان ينكر علينا هذا الحق ، حتى تلك المخلوقة الجديـــدة المتصنعة ، المسماة بعصبة الامم ، والتي وجدت قبل قليل ... انه من الخطأ ان يفترض ان منحة الانتداب تقوم في ايدي عصبة الامم بحكم ميثاقها او بحكم اي شيء آخر . انهـــا تقوم في ايدي الدول التي احتلت تلك البلاد ، والتي عليهم ان يتقاسموها [1] . بمثل هذه

١ – جورج كيرك – مختصر تاريخ الشرق الاوسط ، ١٩٤٨ .

الكلمات اصر اللورد كرزون وزير الخارجية في عام ١٩٢٠ ، على انـه مهما حدث ، فان مسؤولية الحفاظ على هذه الطرق المهمة للمواصلات ، يجب ان تقع على عاتق بريطانيا . ودعت لجنة تولى رئاستها الى تقديم اقتراحات معينة ، « لتأليف دولة عربيـة او مجموعة دول عربية على اساس رغبات السكان ، ولاقرار السيطرة البريطانية التي لا منافس لها » [1] . وعلى هذا الأساس ، كان من حق شعب المنطقة ان يفعل ما يشاء داخلها ، اذا توافرت له السبل ، تحت الاشراف البريطاني ، لحماية طرق المواصلات الامبراطورية .

وجاء انتداب عصبة الأمم مصحوباً بالمعاهدة بين بريطانيـا والعراق ، ليضفي شكلاً رسمياً واقراراً لواقع سبل الاشراف . وظـل المندوب السامي البريطاني ، وتحت تصرفه قواعد السلاح الجوي الملكي ، المصـدر النهائي للسلطة الحاسمة في جميع القضايا التي تتأثر بها مصالح بريطانيا الحيوية . وهكذا فان الملكية الدستورية التي يرئسها الملك فيصل الأول ، كانت مرتبطة من هذه الناحية بالمعاهدة . وقد استمر الانتداب حتى عام ١٩٣٢ ، عندما اصبح العراق عضواً في عصبة الأمم .

أما في فلسطين ، فعلى وجه المفارقة ، كان هناك نظـام ادارة من الطراز الاستعماري المباشر ظـل قائماً حتى عـام ١٩٤٨ ، ظلت تتمتع فيه الحكومات البريطانية عن طريق مندوبيها السامين بسلطـات ادارية كاملة ومطلقة . أمـا شرق الاردن فكان منطوياً تحت جناح الادارة الفلسطينية ، وان ظل مستثنى من نصوص وعد بلفور ، ومغلقاً في وجه الهجرة اليهودية . وكان الأمير عبـد الله (اصبح ملكاً فيما بعد) ، يحكم بموجب اتفاق يخول الحكومات البريطانية مدى من الاشراف اكثر من الذي كان لها في العراق .

وكانت هـذه البلاد الثلاثة ، العراق وشرق الاردن وفلسطين تؤلف صلة الوصل البرية الحيوية (وفيما بعد صلة الوصـل البترولية) بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي . وكانت هناك صلة وصـل حيوية اخرى في طرق

---

١ – لونغريغ – العراق من ١٩٠٠ الى ١٩٥٠ ، ١٩٥٣ .

المواصلات الامبراطورية ، وهي قنـــاة السويس ، وهي في الأراضي المصرية ، وكان من الواجب بقاؤها « تحت سيطرة بريطانية لا منافس لها » ايضاً .

ولكن المصريين ، كانوا يؤلفون مشكلة اكثر تعقيداً . فهم شعب اكبر عدداً واكثر تماسكاً ، وقد توطدت اقدامهم في دولتهم منذ امد طويل ، وكان بينهم عدد لا يستهان به من الرجال الذين خبروا الشؤون العالمية . ولم يكن في الامكان اغراؤهم او ارهابهم ، بعقد زواج سياسي عن طريق المعاهدة . وكان هناك شيء واحد لا مناص منه . فبعد ان فشل اللورد كرزون وزير الخارجية في عام ١٩٢٢ في الوصول معهم الى اتفاق ، اصدر التعميم التالي الى جميع الدول الاجنبية :

« عندما اصبحت سلامة مصر ورخاؤها مهددين في كانون الأول عام ١٩١٤ ، عن طريق تدخل تركيا في الحرب العظمى متحالفة مع دول الاتفاق المركزي ، قامت حكومة جلالته بانهاء سيادة تركيا على مصر ، ووضعت البلاد تحت حمايتهـا ، واعلنتها محمية بريطانية . وقد تبـدل الوضع الآن . وخرجت مصر من الحرب مزدهرة وسليمة ، وقررت حكومة جلالته ، بعد دراسة الموضوع دراسة وافية ودقيقة ، وطبقـاً لسياستها التقليدية ، ان تنهي عهد الحماية ، باعلان يصدر عنهـا يعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، محتفظة لنفسها الى ان يتم عقد اتفاقات مقبلة بين مصر وبينها ، ببعض القضايا التي تتعلق بهـــا بصورة خاصة مصالح الامبراطورية البريطانية والتزاماتها . والى ان يتم وضع هـــذه الاتفاقات فان الوضع الراهن بالنسبة الى هذه القضايا سيظل قائمـــاً دون تبدل »[1] .

وجاء هذا البيان موضحاً للمصريين الموقف الذي يجدون انفسهم فيه . وقد لا يكونون على استعداد لتقبل الزواج السياسي بعد ، ولكنهم لا يستطيعون منع حكومة جلالته من اعلان ترتيب الخطوبة وان الزواج سيتم في الوقت المناسب . لكن المهم في الوقت الحاضر ، ابعاد جميع الذين يحتمل تقدمهم لخطوبة اليـــد

---

١ - وثائق الدولة - المجلد ١١٦ .

المصرية الجميلة . ولم يترك تعميم اللورد كرزون أي مجال للشك في ذلك إذ قال :

« وكيان مصر ورخاؤها ضروريان لسلام الامبراطورية البريطانية وسلامتها؛ ولذا فان حكومة جلالته ستعتبر من مصلحتها الرئيسية الدائمة الحفاظ على علاقاتها الخاصة بمصر ، وهي العلاقات التي اعترفت بها الحكومات الاخرى منذ امد طويل . وقد حددت هذه العلاقات في الاعلان الذي يعترف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة . وقد حددتها حكومة جلالته كقضايا تتعلق بها حقوق الامبراطورية البريطانية ومصالحها بشكل جوهري ، ولذا فهي لن تقبل بان تكون موضع بحث او تساؤل من جانب اية دولة اخرى . وتنفيذاً لهذا المبدأ ، فان حكومة جلالته ، ستعتبر كل محاولة للتدخل في شؤون مصر من جانب أية دولة اخرى ، عملاً غير ودي ، وتعتبر كل عدوان على اراضي مصر ، عملاً يجب ان يصد بكل الوسائل المتوافرة لديها وتحت تصرفها » .

وهكذا اتضحت نوايا بريطانيا تجاه مصر . فاهتمامنا بالشؤون المصرية هو في مصلحة مصر بقدر ما هو في مصلحتنا ، وكان من المحزن ان لا يستطيع المصريون رؤية ذلك . وعندما فشلت المفاوضات للوصول الى معاهدة في عام ١٩٢١ ، اوضحت مذكرة بريطانية الى مصر ، اسباب تردد حكومة جلالته ، في تسليم التزاماتها الى مصر ، وهي التزامات ترتبط بها بريطانيا تجاه مصر وتجاه امبراطوريتها سواء ارادت مصر أو لم ترد وقد جاء في المذكرة ما يلي :

« تأسف حكومة جلالته اسفاً عميقاً لما تراه من سوء فهم خطير لرغبتها في ابقاء قواتها في مصر ، والحفاظ على ارتباط موظفيها البريطان بوزارتي العدل والمال . واذا سمح للشعب المصري بالانسياق وراء اهدافه الوطنية ، مهما كانت صحيحة ومشروعة دون اضفاء اعتبار كاف للحقائق التي تسيطر على الحياة الدولية فان تقدم مصر المضطرد نحو اهدافها سيتأخر ان لم يشل شللاً تاماً »[1] .

---

١ – وثائق الدولة – مجلد ١١٤ .

وتضمنت المذكرة اشارات واضحة الى الدعايات الهدامة التي تناشد جهل الجماهير وتستفز حماسهم فقالت :

« ولن تكون حكومة جلالته البريطانية عاملة لسعادة مصر ورخائها ، اذا تساهلت مع مثل هذا التحريض والاستفزاز ، ولن يكون في استطاعة مصر ان تحقق شيئاً من التقدم الا اذا اظهر قادتها المسؤولون الارادة والقوة اللازمتين لوضع حد لها . ويعاني العالم الآن في اماكن عدة ، من عقيدة جديدة هي طراز متعصب وشديد الانفصالية من القومية . وستحاول حكومة جلالته مواجهة هذه العقيدة بحزم وقوة في مصر كما في غيرها من البلاد. أما الذين يستكينون لها ، فيضفون عليها قوة ، ويطيلون بذلك اجل الحفاظ على العقوبات الاجنبية التي يستنكرونها . لكن حكومة جلالته ستحافظ على موقفها دون ان تتأثر او تهين » .

وتمكنت بريطانيا بفضل هذه العلاقات الخاصة مع العراق وفلسطين وشرق الاردن ومصر ، من الحفاظ على « السيطرة البريطانية التي لا منافس لها » ، على حلقة الاتصال البري بين البحر المتوسط والخليج العربي وعلى حلقة القناة البحرية بين المتوسط والبحر الاحمر ، وما يقع وراء هذا البحر . واصبح الممثل البريطاني في هذه البلاد ، يعتبر عند العرب « الرئيس ذا النفوذ » . فله سلطاته وواجباته ، ووسائله الخاصة لتنفيذ هذه الواجبات التي يتولى الاشراف عليها من مكتبه . وكانت للملوك والامراء قصورهم وبلاطاتهم ، كما كانت لرؤساء الوزارات مكاتبهم ودوائرهم . لكن الرأس ، هو الممثل البريطاني ، الذي يضع لوحة نحاسية في باب دائرته . وكان يمثل السلطة « الخيِّرة » التي تأتي بالمنافع ، وتضمن الادارة السليمة والفعّالة . وهو الذي يأتي بالتأييد والعون لهذه البلاد في علاقاتها مع دول العالم الاخرى ، ويقدم لها النصيحة والمشورة ، والتدريب على فن الحكم ، والمساعدة في الرجال والخبراء في مختلف الميادين . وكان الناس في حاجة الى هذه اليد المساعدة ، ولم يكونوا يشعرون بالاسف لوجودها . وقد

الفوا مع استمرار بقائها شيئاً من الاتكالية المؤقتة ، وتعودوا على ان يعيشوا عليها وان يحبوها . فإذا احبوها ، فان قدمهم ستشعر بالراحة في الحذاء الذي يضمها ، ولذا فلن يحاولوا القاء هذا الحذاء . أما اذا ظلوا ثائرين يطالبون بالاستقلال فهذا يعني انهم لم يضحوا بعد أهلاً لهذا الاستقلال. فالمصالح البريطانية الحيوية تتطلب عهوداً صديقة مستقرة وحكومات موالية .

ولكن هذا الوضع كان مخالفاً لما وُعد العرب به . فقد كان البلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك الصادر في تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، قد اعلن ان الهدف هو « تحرير الشعوب التي عانت طويلاً من اضطهاد الاتراك وعسفهم تحريراً كاملاً ونهائياً ، واقامة حكومات وادارات تستمد سلطتها من اهل البلاد الذين يجب ان يكون لهم الحق المطلق في اختيارها وممارستها » [1] . ولا ريب في ان هذا الوعد كان سابقاً لأوانه . ولا ريب في ان الشعب العربي الذي قسمت بلاده الى مجموعة من الدول المنفصلة التي خطط حدودها ساسة الدول المنتصرة ، لم يكن بعد قادراً على الوقوف على قدميه . وحتى لو استطاع الوقوف على هاتين القدمين، فانه قد يضل عن طريق الصداقة والتعاون ، ما لم تكن هناك يد موجهة . وكانت هناك اسباب عدة لمصلحة بريطانيا والعرب في تجاهل تلك الوعود التي اعطيت في الماضي ، ولكن اياً من هذه الاسباب لا يستطيع ان يطمس الحقيقة بان هذه الوعود قد اعطيت فعلاً ، وانه لم يحافظ عليها .

وشعر العرب بانهم قد خدعوا ، وأحسوا بثورة عارمة من الحنق والغضب . فقد تخلصوا من سيطرة الاتراك ، ليجدوا بدلاً منها سيطرة بريطانية وفرنسية مشتركة . وكانت الاوراق التعاهدية التي حددت الصلاحيات البريطانية بموجب الانتداب قد اشارت الى القواعد العسكرية البريطانية بوصفها « حاميات امبراطورية » . وبدا للعرب ، انهم قد جروا من انفهم ليصبحوا جزءاً من هذه الامبراطورية .

ولم يقتصر هذا الشعور النامي بالسخط على السيادة الامبراطورية ، على

١ – لونغريغ – العراق من ١٩٠٠ الى ١٩٥٠ – ١٩٥٣ .

العرب وحدهم . فقد نمت مشاعر باعطـــاء حق تقرير المصير لجميع الشعوب الصغيرة ، كما تبنت الحركة الاشتراكية النامية في انكلترا وفي غيرهـا من البلاد العداء لأي شكل من اشكال الاستعمارية (باستثنـاء الاستعمارية الصهيونية) ، واخذت الليبرالية الامريكية تحتل مكانتها كقوة عالمية مؤثرة ، وشرعت عصبة الأمم في محاولة فرض سيطرتها ، وكل هذه قوى جديدة اخذت تحتل مكانها في العالم . وكان موضوع الحكم الاستعماري المباشر ، خارج نطـاق البحث ، الا بالنسبة الى قضية فلسطين الخاصة . وكان الواجب يحتم تحديد هدف الحكم الذاتي كهدف نهائي ، مهما كان شكل النفوذ البريطاني ومجاله .

وطلع مزيج جديد من هذا الاصطراع من الافكار . فستكون هناك فترة من « القوامة » أو الوصاية ، يساعد فيها المستشارون والموظفون البريطان على اقامة دول الشرق الأوسط الى ان تستطيع الوقوف على اقدامهـــا ، رابطة استقلالها بعلاقات تعاهدية تضمن لها الحماية ، وتؤمن لبريطانيا مصالحهـــا الاستراتيجية . وتقرر ان نعمـــل مع الباشوات والشيوخ وعن طريقهم لحكم البلاد ، بدلاً من ان نزيحهم من طريقنا ، وان نحكم البلاد مباشرة كما كان يود منا اصحاب نظرية « الحكم الابوي » ان نفعل ، وكما فعـــل الفرنسيون في سوريا ولبنان . ولكن كان علينا في الوقت نفسه ان ندرب الاداريين واصحاب المهن وان نعلمهم الافكار التقدمية ، وان نساعدهم على تطوير بلادهم . وعندمـــا يصبحون ناضجين ، واهلاً للاستقلال ، فسنعقـــد معهم المعاهدات والصفقات القائمة على التبادل الاصيل للمصالح الذي يضمن حاجات بريطانيا الاستراتيجية .

ولم يكن هناك سر في الموضوع ، بـــل كانت سلطة تنفيذية معلنة وصريحة ونافعة تمارسها بريطانيا العظمى باسمها ، تدعمها في ذلك السلطة العسكرية القائمة وراءها ، وقوة الامبراطورية البريطانية كلها .. وكانت فترة « القوامة » مؤقتة في جوهرها ، وقابلة للذوبان من نفسها . وقد الحف العرب على وجوب انهائها في اسرع وقت ممكن ، مستخدمين لذلك كافة الوسائـــل المتيسرة لهم كالتظاهر والاضطرابات والثورات . وكانت الحركة العالمية لتأييد حق تقرير المصير تتعاون

معهم وتساعدهم . وهكذا اختصرت فترة الانتداب على العراق ، لتحل محلها المعاهدة العراقية – البريطانية لعام ١٩٣٢ . وسرعان ما لحقت بها المعاهدة المصرية – الانكليزية لعام ١٩٣٦ . وسلم البريطانيون سلطاتهم الى العراقيين والمصريين وانتهت فترة القوامة .

وكان من المقرر ان تصبح المعاهدة التي تم التفاوض حولها مع العراق ، في موضع التنفيذ حال قبول العراق عضواً في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ ، فسينتهي في ذلك الوقت نظام الانتداب بصورة رسمية . وسيصبح العراق آنذاك « دولة مستقلة ذات سيادة » ، بالفعل . ولكن لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الامم طلبت اولاً ، ان تقتنع في حقيقتين ، اولاهما ان العراق قد اصبح وطيد الاركان ، بصورة مستقرة ، بعد حقبة ونصف الحقبة من الاحتلال والانتداب ، وقادراً على الحصول على سيادته الكاملة ؛ وثانيتهما ، ان المعاهدة العراقية – الانكليزية المقترحة ، معقولة ومقبولة ، وتتفق في نصوصها ، مع مستلزمات استقلال العراق وسيادته . فقد كان الهدف الجوهري من الانتداب ، هو الوصول بالعراق الى مرتبة الاستقلال الناجز الكامل . ولم يكن الانتداب الا مجرد امانة عهدت بها اعظم سلطة سياسية دولية الى الحكومة البريطانية لتعمل بالنيابة ، عن المجتمع الدولي ، لا ليكون وسيلة لتوطيد اقدام السلطة البريطانية الاستعمارية وتقويتها .

وقد اقتنعت لجنة الانتدابات الدائمة بالنقطة الاولى ، واقتنعت الى حد ما بالنقطة الثانية ، ولكن مع بعض الشكوك . وكتبت اللجنة تقول [1] : « ان الالتزامات التي حملها العراق تجاه بريطانيا لا تتعارض بوضوح مع استقلال الدولة الحديثة » . ولكن الم يكن مفهوم هذه الالتزامات متعارضاً مع الاستقلال ؟ هذه هي النقطة الجوهرية . وكان هناك عدد من الناس في فرنسا بصورة خاصة (حيث الشك دائم في نوايا البريطانيين في الشرق الاوسط) ، يرون مساساً ضمنياً بهذا الاستقلال ، وهذا ما ارادته الحكومة البريطانية بالفعل . وقد اعتقد

١ – مجيد خدوري – العراق المستقل – ١٩٣٧ .

هؤلاء ، ان ما توصل اليه البريطانيون لا يعدو ان يكون حيلة مبتكرة للاستعاضة عن سلطات الاشراف الدولي المكشوف عن طريق عصبة الامم ، باشراف خفي وان كان لا يقل فعالية تمارسه بريطانيا الاستعمارية وحدها . وقد رأى العرب ايضاً نفس هذا الرأي وهذا ما ادى الى قيام معارضة قوية في العراق .

لكن الامور سارت وفقاً للمخطط الموضوع، وقبلت العراق عضواً في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ ، وغدت دولة مستقلة تمام الاستقلال. وكان هذا الاستقلال شكلياً اكثر منه عملاً وواقعاً . وعلى الرغم من ان سلطة الاشراف البريطاني بموجب المعاهدة الجديدة كانت ضعيفة الا انها كانت موجودة . وكانت شبيهة « بالصلاحيات المصانة » التي يعرفها طلاب الشؤون الاستعمارية . ومثل هذه السلطة لا تظهر بصورة عملية الا في الظروف الطارئة ، ولكنها عندما تظهر ، تكون مطلقة لا منازع لها. وما دام ان ملوك العراق وحكوماته لا يخرجون على حدود السياسة الخارجية التي تضعها لهم الحكومة البريطانية ، فلا اشراف هناك ولا تدخل ولا مشاكل ولا اثر لأي نفوذ بريطاني من أي نوع . وستظل العراق محتفظة بكامل استقلالها ما دام انها لا تريد ان تعمل عملاً مستقلاً . فقد تعاهدت الدولتان على الود والصداقة الدائمتين. وفي غابات المشاكل العالمية ، هناك اصدقاء واعداء لكل منهما على السواء . ولا ريب في ان من مصلحة الفريقين ، ان يكون رجال وايتهول ، الذين يعرفون اكثر من رجال بغداد ، هم الذين يقررون امر هذه الصداقات والعداوات ، وان يسير العراق طبقاً للخطة التي تضعها لندن .

وكانت الحقيقة المجردة ، هي ان الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد للتخلي عن حقوقها وصلاحياتها المطلقة في الاشراف العسكري على طرق المواصلات الحيوية وعلى النفط . وقد يقال ايضاً ان المصلحة في هذا الموضوع كانت مشتركة ايضاً . اذ ان أي تهديد من دولة عدوة لمصالح بريطانيا عن طريق الغزو المسلح ، يعني غزو اراضي العراق نفسها . ولهذا كان من مصلحة العراق بقدر ما هو من مصلحتنا ان تسمح العراق الضعيفة لبريطانيا القوية بالحفاظ على قواتها في العراق وبحرية الحركة والعمل في حالة نشوب الحرب . على أي حال ،

كان من المؤكد ان بريطانيا لن توقع على معاهدة لا تمنحها هذه السلطات والصلاحيات . واذا كنا نحتاج الى دليل لإثبات ذلك ، فهذا الدليل قائم في الحقيقة الواقعة وهي ان القوات البريطانية ظلت تحتل مصر احتلالاً « واقعياً » مدة ثمانية عشر عاماً بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى ، دون ان تكون ثمة معاهدة تبرر هذا الاحتلال من ناحية قانونية .

وقد تصح هذه الافتراضات والأقوال بالنسبة الى مصالح العراق ، اذا كان العراق يعتبر فعلاً ، دولة تعتبرها بريطانيا معادية لها ، عدوة له ايضاً . اما اذا لم يكن هذا الاعتبار قائماً ، فان الوضع قد يصبح مربكا وباعثاً على الحيرة والارتباك . فلو فرضنا ان بريطانيا مثلاً ، اشتبكت في حرب مع دولة ، لا يعتبرها العراق بحكم واقعه « كدولة مستقلة تمام الاستقلال » عدوة له ، او كان يعتبرها صديقة له – وهنا الاحتمال الاسوأ – فان القوة العسكرية البريطانية ستقف متعارضة مع رغبات العراق ، ولا يمكن استخدامها فوق ارضه دون الاعتداء على العراق نفسه .

ومن هذا يتضح ان الواقع الشرعي للاشراف العسكري الكلي ، لا يمكن تحقيقه ، الا اذا اعتبر العراق جميع اعداء بريطانيا اعداء له ، وجميع اصدقائها من اصدقائه . ولهذا فقد كان مثل هذا « النص السياسي » امراً لازما لا مناص منه . ولعله اهم شأناً من « النص العسكري » ، اذ ان التزام العراق بالنص السياسي كان كافياً لان يفرض عليه الوقوف في صف موحد مع بريطانيا ، فاذا ما وقف في صف اعدائها ، توافرت الاسباب المشروعة لارسال قوات عسكرية بريطانية الى العراق تقوم بتصحيح الخطأ . فشرعية الاشراف العسكري تعتمد على شرعية الالتزام السياسي .

وقد تضمنت المعاهدة الانكليزية العراقية لعام ١٩٣٢ جميع الحقوق الضرورية . وقد اشتملت على اربعة مظاهر رئيسية في هذا المحتوى الحيوي . فهي اولاً معاهدة تحالف تقضي على الدولتين بأن تكونا صديقتين بصورة رسمية . وتضمنت المعاهدة ثانياً بنداً اعلن موافقة الفريقين على ان حماية خطوط المواصلات

البريطانية امر ضروري وفي مصلحة الفريقين المتعاقدين ، وهذا يلزم ملك العراق تنفيذاً للمعاهدة بتبني مصالح بريطانيا الحيوية وكأنها مصالحه . اما المظهر الثالث فهو أن أياً من الفريقين لن يتخذ موقفاً من الدول الاجنبية يتعارض مع المعاهدة ، او يسبب ارتباكات للفريق الآخر . اما المظهر الرابع فهو السماح باقامة القواعد العسكرية البريطانية في العراق مع اعطاء بريطانيا الحق في استخدام كافة التسهيلات الموجودة في البلاد في حالة نشوب الحرب .

وعلى الرغم من ان المعاهدة الانكليزية المصرية لعام ١٩٣٦ كانت اخف في تعابيرها من المعاهدة العراقية ، الا انها تضمنت نفس المظاهر الرئيسية الاربعة . وكانت المعاهدة التي عقدت مع شرق الاردن ، احسن اتجاهاً بالنسبة لبريطانيا ومصالحها وضمانها. وهكذا فان الارتباطات التعاهدية التي عقدت مع هذه البلاد الثلاثة ، كانت تضمن لبريطانيا حق الحماية العسكرية لمصالحها الاستراتيجية الحيوية ، ولكيان هذه الدول السياسي . وكانت التغييرات التي ادخلتها الارتباطات التعاهدية شكلية لا موضوعية او جوهرية . فقد كانت السلطة البريطانية في الماضي مباشرة،أما الآن فقد غدت غير مباشرة،واصبحت تمارسها عن طريق دول مستقلة ذات سيادة ، ملتزمة بمعاهدات وقعتها مع بريطانيا .

ومع ان هذه المعاهدات ، كانت صالحة لآجال معينة محدودة ، الا ان كل واحدة منها ، كانت تتضمن بنوداً ، تشترط ان تتضمن كل معاهدة لاحقة نفس الصلاحيات المحدودة والجوهرية للاشراف البريطاني . وقد اكد الكبتن انطوني ايدن وزير خارجية بريطانيا في عام١٩٣٦ عندما قدم الى مجلس العموم المعاهدة المصرية – البريطانية هذا الاشتراط بقوله :

« يجب ان يتضمن أي تعديل لهذه المعاهدة يتفق عليه الفريقان بعد انقضاء مدتها المحددة بعشرين عاماً ، نفس المبادىء الاربعة التي حددتها لكم في هذا الخطاب . ولا ريب في ان مجلس العموم الموقر سيقدر اهمية ذلك تمام التقدير » [1]

---

١ – هانسارد – المجلد ٣١٨ عمود ٢٥٦ .

ومن هذا يتضح حقيقة ما في هذه المعاهدات بالنسبة الى العرب . انها معاهدات لفترة معينة كعشرين عاماً بالنسبة الى المعاهدة المصرية مثلاً ، ولكنها تتضمن بنداً يقضي بتمديدها واطالة اجلها بصورة آلية . ويتضح من هذا ايضاً، أن أي مطالبة بتعديل المعاهدة بحيث لا تتضمن المعاهدة المعدلة نصاً على صلاحيات بريطانيا في الاشراف العسكري الكلي ، كان يعتبر من وجهة النظر البريطانية نقضاً للمعاهدة نفسها . ومن هنا نشأ المطلب الاساسي للوطنيين العرب ، في التحرر من « النفوذ البريطاني » ، بالغاء البند الذي يعتبر اكثر البنود حيوية بالنسبة للمصالح البريطانية ، وهو الاداة التعاهدية التي تمارس بريطانيا عن طريقها حقها المشروع بالتدخل عن طريق القوة العسكرية ، ولهذا غدت الحركات الوطنية المطالبة بالاستقلال الكامل بحكم الواقع معادية لمصالح بريطانيا ، كما انها غدت من ناحية اخرى حركات غير دستورية ، اذ ان المعاهدات قد فرضت على الملوك التزامات بان يعتبروا مصالح بريطانيا الحيوية ، وكأنها مصالح حيوية لبلادهم ولانفسهم ، وكانت المعاهدات جزءاً لا يتجزأ من دساتير هذه البلاد .

ولنفترض الآن افتراضات خيالية ، كيف يمكن لهذه السلطات والصلاحيات التي تملكها بريطانيا ، ان تمارس تأثيرها في الحالات الطارئة . ولنفترض ان حكومة العراق ، قد تبنّت سياسة خارجية تعتبرها الحكومة البريطانية ، متعارضة مع مصالح بريطانيا الجوهرية . وهنا تطلب بريطانيا الى الملك تبديل هذه السياسة او تبديل الحكومة التي تبنتها. فإذا رفض الملك تلبية هذا الطلب ، كان في وسع بريطانيا ان تدعي سلوكه مسلكاً يناقض المعاهدة ، وكان في مكنتها ان تفرض عليه ما تريد بواسطة القوات البريطانية المسلحة الموجودة في العراق نفسه . ولنفترض ان الملك قد اذعن لما تريده بريطانيا ، لكن حكومته رفضت ذلك ووقف الجيش العراقي الى جانبها . وهنا يعلن الملك بموجب الدستور نشوء حالة طارئة ، فيحكم البلاد بموجب قوانين الطوارىء والمراسيم الملكية ، وهي مراسيم لا يشترط فيها بموجب الدستور ان تحظى بتصديق البرلمان ، لا سيما اذا كانت صادرة لتأييد الالتزامات التعاهدية ، ذلك لأن

المعاهدة نفسها ، هي من صلاحيات الملك ، وخارجة على صلاحيات البرلمان . ويستطيع الملك في مثل هذه الحالة ، وطبقاً لبنود المعاهدة ان يدعو القـــوات البريطانية إلى تأييده،تحت قيادتها البريطانية،وبموافقة الحكومة البريطانية ،وفي مثل هذه الحالة ، تقوم حالة تشبه الحرب بين القوات البريطانية والعراقية . واذا افترضنا ان الجيش العراقي قد هزم ، فان الملك سيعود الى موقف يستطيع فيـه تعيين حكومة جديدة تتولى تنفيذ ما يريده البريطانيون منها .

وتوضع المعاهدات عادة طبقاً لأدق الحسابات والتعابـير ، وليس من السهل والحالة هذه ان نتصور الساسة البريطانيين يكتبون المعاهدات بمثل هذا التحديد في القصد ، الذي يعالج ظروفاً تستخدم فيها الصلاحيات التعاهدية على هـــذا النحو . وليس من الممكن ايضاً ان نتصور ان العرب الذين فاوضوا في عقد هذه المعاهدات ، وان الملوك الذين وقعوها ، كانوا يحلمون بامكان نشوء مثل هذه الحالات وتنفيذها . ولو كانت مثل هذه الاحتمالات قائمة ، فان فكرة استقلال مصر والعراق ، ما كانت لتناقش مطلقاً . وكان من الواضح ان البنود السياسية والعسكرية كانت تستهدف ويقصد منها ان تستهدف التهديدات المعادية ، التي تعترف بها بريطانيا والعراق على انها خطر يهدد المصالح المشتركة . ومع ذلك فمهما كان الهدف وراء هذه البنود ، فان التعابير كانت قائمة فعلاً ، ووراء هذه التعابير الصلاحيات المطلقة لمعالجة الأحوال الطارئة التي قد تنشأ والتي تشـبه الى حد ما افتراضاتنا السابقة التي حللناها. فعندما امر السفير البريطاني في الرابع من شباط عام ١٩٤٢ [١] بتطويق قصر الملك فاروق ووجه اليه انذاراً لإرغامه على تعيين حكومة تقبل بها بريطانيا كان السفير يمارس صلاحيات كان الملك قـد وافق على التسليم بها لبريطانيا فيمعاهدة عام ١٩٣٦ . وعندما اشتبكت القوات البريطانية في عمل حربي ضد الجيش العراقي عام ١٩٤١ [٢] ، لاخراج الحكومة العراقيـة القائمة واعادة سلطات الملكية الى وضع يمكنهـا من تسليم الحكم في البلاد الى

---

١ - جورج كيرك - مختصر تاريخ الشرق الاوسط - ١٩٤٨ .

٢ - جورج كيرك - مختصر تاريخ الشرق الاوسط - ١٩٤٨ .

حكومة موالية لبريطانيا ، كان هذا الاشتباك متفقاً مع نصوص المعاهدة والدستور العراقي ايضاً .

وكان من حسن حظ الحلفاء والعالم ايضاً ان مثل هذه الخطوات قد تم تنفيذها . وعلينا ان لا نخطىء في ذلك . ولا ريب في ان الكثيرين من العرب يرون هذا الرأي فباستثناء اقلية قليلة من العرب كانت واقعة تحت تأثير دعاية المحور ، كان العرب يعرفون ان احتلال الفاشيين الايطاليين والنازيين الألمان لبلادهم ، سيعرضهم الى مطامع استعمارية تفوق في خشونتها وحدتها مطامع البريطانيين . ولكننا لسنا الآن في موضع الحديث عن الحسنات والمساوىء الخلقية لتنفيذ السلطة البريطانية . وكل ما يهمنا ان نفهمه ، هو انها كانت موجودة كاداة وجهاز ، لا سيما وان الاحكام الخلقية تتأثر باختلاف الآراء الاخلاقية التي تكون قائمة وراء الاعمال نفسها . فسكين الخبز يمكن ان تستخدم في قطع الرقاب ايضاً ، ولكن هذه الحقيقة لا تجعل من السكين شيئاً سيئاً في حد ذاته . ويمكن استخدام الخنجر لقطع الخبز ايضاً ، ولكن هذا الاستعمال، لا يجعل منه اداة خيرة طيبة . ويرى الانكليز في الملوك العرب ووزرائهم الذين تعاونوا مع البريطان في استخدام جهاز السيطرة البريطانية رجالاً يعملون بمحض اختيارهم لتحقيق اهداف خيرة طيبة لكلتا الحكومتين والشعبين وحلفاء اوفياء، أما الوطنيون العرب فيرون فيهم امّعات،وعكازات، وعملاء للاستعمار.

ولو كانت الصلاحيات التعاهدية المخولة لبريطانيا تستخدم في طرد عدو خارجي يعترف به الشعبان العربي والبريطاني على انه عدو ، فان العرب يعتبرون هذه الصلاحيات أمراً طيباً . أما ان تستخدم لإخماد كل معارضة داخلية ، نشأت عن وجود هذه الصلاحيات نفسها فان القصور الملكية والحكومات تعتبرها شيئاً طيباً ، بينما تعتبرها المعارضة أمراً إداً في منتهى الشر . واذا ما اردنا التحديد في المعنى قلنا ان البريطانيين في مثل هذه الحالة كانوا يقفون الى جانب واحد ضد الجانب الآخر في نزاع داخلي صميم . أما في الحالة التي تتطلب فيها مصلحة بريطانيا المطلقة التطبيق العملي لصلاحيات السلطة العسكرية

البريطانية التي خولتها اياها المعاهدة ، فان البريطانيين يكونون في حالة حرب الى جانب فريق من العرب ضد الفريق الآخر ،في حالة هي الحرب الأهلية بعينها. وكان مجرد وجود هذه الصلاحية هو محور السخط الوطني والنقمة القومية . ومهما ندر استعمال هذه الصلاحية ، ومهما حاولت التخفي والتنكر ، فقد كانت موجودة وقائمة . واذا كانت المعارضة لها تتخذ شكلا تعبيرياً يهدد استمرار المعاهدة وبقاءها ، فان بريطانيا كانت تستند على المعاهدة نفسها في كبت هذه المعارضة ، وكان مجرد هذا الاستعمال للمعاهدة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبشكل صريح أو خفي يعزز المعارضة ويقوي شأنها . وتؤدي النتائج على صعيد العلاقات بين القصر والشعب الى اشكال واضحة دقيقة .

وعندما كانت السلطة البريطانية المكشوفة في مرحلة الانتداب السابقة قائمة ومستندة على حقها ، كان في وسع المعارضة ان تمضي الى باب بريطانيا الامامي الذي يحمل اسم بريطانيا على لوحته النحاسية، ويضع جنود بريطانيا في مداخله. وكان في وسع ملوك العرب وحكوماتهم ان يقفوا بمنأى عن الصراع . اذ ماذا يسعهم أن يفعلوا ، وبريطانيا هي التي تملك السلطة والقوة لحمايتها بينما هم لا يملكون شيئاً ، وكان على بريطانيا ان تواجه المعارضة الشعبية مباشرة .

أما بعد المعاهدات ، فقد تبدل الوضع تمام التبدل . اذ انتقلت اللوحة النحاسية الى ابواب القصور الملكية ، ووقفت القوات العسكرية في مداخلها . أما البريطانيون فيقبعون بعيداً في المؤخرة . وقد اخذ ملوك العرب على عواتقهم مسؤولية القيام بكل عمل للوفاء بالالتزامات التعاهدية . واذا ما اردنا التحديد العملي في التعبير ، قلنا ان على الحكومات العربية ان تحافظ على السياسة الخارجية التي تضع وستمنستر لها حدودها ، والا تحتم عليها ان تواجه النتائج التي تستطيع الحكومة البريطانية ان تفرضها وكثيراً ما فرضتها .

ولم تكن هناك الا قلة نادرة من العرب لا تود الخلاص من هذه الالتزامات الادبية ، مهما كان فيها من نفع مادي . ولم يكن هناك خلاف على الغايات وانما وجد الخلاف على السبل والوسائل . فاولئك الذين ربطوا مصيرهم باتجاه التعاون

سواء اكانوا من الملوك أو من الوزراء ، كانوا يأملون بل ويعتقدون انهم واصلون حتما في النهاية الى الاستقلال الكامل عن طريق المفاوضات الودية مع البريطانيين بدلاً من تحديهم . وقد كان هذا هو أمل نوري السعيد الدائم، كما كان أمل سيده الأول ، الملك فيصل الأول . أما الذين لا يرضون عن هذا الرأي فكانوا يقولون « ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » . وكانوا يؤكدون ان السلطات التي اصر البريطانيون في الماضي على أخذها ، مهما كانت صغيرة ، الا انها مطلقة في القضايا المهمة ، ستظل موضع اصرارهم في المستقبل ايضاً ، ولن يتخلوا عنها ابداً عن طريق المفاوضات . وكان النص الذي يضمن تجديد المعاهدة تلقائياً ، والذي اكده وزير الخارجية البريطانية نفسه في مجلس العموم في عام ١٩٣٦ دليلاً كافياً على هذه الحقيقة . واذا لم تلجأ الحكومات العربية الى استخدام وسائل ترغم البريطانيين على التسليم ، فانهم لن يجدوا سبباً يحملهم على التسليم بأي شيء . وليس في وسع أية حكومة بريطانية ان تقف أمام البرلمان والناخبين وان تعلن تخليها بمحض اختيارها عن سلطاتها في الحفاظ على طرق المواصلات الامبراطورية التي وجدت المعاهدات لحمايتها . وإذا لجأت الحكومات العربية الى اساليب عنيفة لارغام بريطانيا ، مما يشكل تهديداً لمصالحها الحيوية ، وهي المصالح التي وجدت المعاهدات للحفاظ عليها ، فان البرلمان والشعب البريطانيين يقفان صفاً واحداً وراء الحكومة البريطانية ضد العرب . واذا لم يطالب العرب بالاستقلال، فليست ثمة من حاجة ماسة الى اعطائهم اياه . أما اذا طالبوا به ، فان مجرد هذه المطالبة تكون سبباً كافياً لحرمانهم منه . وهذه هي الحلقة التي لم يكن فيها منفذ او مخرج .

ولما كان جميع العرب من ذوي الفكر السياسي الصائب ، يريدون الحرية ، فان اية انتخابات حرة نزيهة ستأتي الى الحكم ، بحكومات تطالب بالحرية . فماذا سيكون موقف الملوك في هذه الحالة ، وهم المرتبطون بموجب المعاهدات ، بالمحافظة على هذه الالتزامات التي تفرض القيود على الحرية ؟ وما لم يكن هؤلاء الملوك على استعداد للسير في الاتجاه الوطني سيراً كاملاً وتمزيق هذه المعاهدات —

كما فعل ملك واحد وهو الحسين في عام ١٩٥٦ — فإن عليهم ان يتبعوا سبيلا واحداً لا مفر منه ، وهو حل البرلمانات والحكم عن طريق المراسيم . فقد كانت المعاهدات تفرض على الملوك من ناحية عملية تعيين رؤساء وزارات موالين لبريطانيا وحكومات صديقة ، وكان هذا يحتم عليهم ايضاً ان يضمنوا لهذه الحكومات بطريق او بآخر ، برلمانات تمنحها التأييد أو تذعن وتسكت على الأقل .

وهكذا فقد كانت للسلطات البريطانية بموجب المعاهدات تأثيرات ماكرة . لم يكن الكثيرون من ارباب المناصب العالية في انكلترا يفهمونها او حتى يعرفون بها . فهذه البرلمانات « المعينة » في البلاد العربية ، كانت تتألف طبعاً من العناصر المحافظة من ارباب المال والاملاك ومن حملة الآراء المعتدلة جداً الذين يمكن ان يوكل اليهم أمر تأييد سياسات العهد القائم . ولا ينتظر من مثل هؤلاء الناس ان يكونوا ميالين الى القيام بأية اصلاحات او تبنيها . وهكذا فان الالتزامات التعاهدية بالميل الى بريطانيا ، كانت تفرض كثمرة فرعية غير مقصودة ، وجود برلمانات تعارض الاصلاح .

وقد لا يكون من صحيح القول ، الافتراض بأنه لو لم توجد هذه السلطات التعاهدية ، ولو كانت البلاد العربية مستقلة تمام الاستقلال ، فان الديموقراطية كما نعرفها نحن ، كانت ستنمو وتترعرع في هذه البلاد . ولعل في انهيار النظام الديموقراطي في كثير من البلاد التي كانت تعيش تحت حكم البريطان في الماضي ، خير دليل على ما أقول . وكل ما يجب علينا ان نقوله هو هذا : لقد اقيمت الملكيات العربية الدستورية ببرلماناتها المنتخبة في ظل التوجيه البريطاني . وكانت القوة البريطانية هي التي تحافظ على وجودها وبقائها في السلطة ، وكثيراً ما اعادت اليها القوة التي فقدتها . وكان هذا الجهاز ، الذي تمارس عن طريقه هذه الصلاحيات يحول دون حرية التعبير عن الرأي الانتخابي ، التي كان من المفروض ان يصونها ويحافظ عليها ، ومع ذلك فقد خطط لهذه العلاقات من ناحية نظرية على الاقل ان تضمن لهذه البلاد التحرر الكامل من النفوذ البريطاني

او التدخل في الشؤون الداخلية . وكان القصد من المعاهدات في البـداية ان تضمن التدخل في الشؤون الخارجيـة ليس الا ، وفي الحالات التي يظهر فيهـا خطر من جهات معادية للفريقين المتعاقدين . ولكن على الرغم من هذا القصد فان النفوذ البريطاني كان ينتقل من الملك الى الوزارة ومن الوزارة الى البرلمان ومن البرلمان الى الشعب بشكل يحقق لنفسه التغلغل في جميع كيان الحيـاة العامة وبنيانها . فمن الناحية البريطانية لم تكن المعاهدة الا مجرد اداة في ايدي الساسة ورجال الادارة والجيش ، ولا مساس لها مطلقاً بحياة افراد الشعب البريطاني . أما من الناحية العراقية فقد كانت مشتبكة اشتباكاً عضوياً مع جميع مظاهر الحياة السياسية والادارية والاجتماعيـة لكيان المجتمـع العراقي كله ، متخذة جذورها داخل القصر الملكي نفسه . وسنصل حتماً الى التـأثيرات المحسوسة لهذا الارتباط الغريب عندما نعالج المراحل الأخيرة في حياة العهد الهاشمي في العراق .

وكان هذا الجهـاز يعتمد على وجود رجال من ابنـاء البلاد يتولون زمـام القيادة في الدولة ، ويكونون على استعداد للعمل ، اسماً وفعلاً ، في الحفاظ على التزامات بلادهم بموجب هذه المعاهدات . ولما كانت المعارضة على جانب كبير من القوة ، فـان استمرار مثل هذه الاوضاع كان يتطلب وجود وسائل تضمن استبدال أية حكومة ترفض تنفيذ ما يطلب اليها ، بصورة دستورية ، والاتيان بحكومة جديدة تحقق الغايات المطلوبة منها . ولم يكن تحقيق مثل هذه الامور ممكناً الا في ظل نظام ملكي ولهذا فقد غدا وجود نظام ملكي مرتبط ارتباطاً وثيقاً وتاماً ، امراً ضرورياً لوجود السلطات التعاهدية نفسها . واذا عجز الملك عن اقناع الحكومة البريطانية بالتساهل ، ولم يكن هو مستعداً لالغاء المعاهدة او ابطال مفعولها ، فان الطريقة الوحيدة امام المعارضة للنجاح في تحقيق مطالبها ، هي في القضاء على النظام الملكي نفسـه .

ولهذا فقد وجد ملوك العرب ورؤساء وزاراتهـم انفسهم دائماً في موقـف مربك محير هو موقف الوسيط ، الذي ينقل الى البريطانيين ما يتعرض اليه من ضغط شعبي ممثل في المعارضة ، وينقل الى هذه المعارضة اصرار بريطانيـا على

التمسك بسيطرتها واشرافها . وقد يمضي اشخاص الملوك عن المسرح ، كما مضى فيصل الأول وولده غازي وعبد الاله وفيصل الثاني ، وقد يرغم بعضهم على التنازل عن العرش كما ارغم فاروق . ولكن ما دام النظام الملكي قائماً ، فإن المعاهدة التي وقعها الملك ، تظل قائمة وسارية المفعول ، وتظل معها حقوق بريطانيا التعاهدية موجودة وقائمة .

وقد يترك رؤساء الوزارات الذين يجدون انفسهم في موقف محيّر بين اصرار النفوذ البريطاني وصلابة القوى الوطنية ، المسرح بطرق شتى ومختلفة ، فبعضهم يؤثر الخروج والانزواء في حياة التقاعد ، وبعضهم يطرده القصر تلبية لنصيحة بريطانية من منصبه ، وبعضهم يمضي الى المنفى كما ذهب سعد زغلول الى مالطه وسيشل في عامي ١٩١٩ و١٩٢١ ، ويفقد بعضهم اعصابه فينتحر كما فعل عبد المحسن السعدون ، او يطرده البريطانيون كما وقع لرشيد عالي او يقتله الشعب كما حدث لنوري السعيد .

وليس في وسع الشعب في بريطانيا ان يفهم حقائق هذه العلاقات الغريبة فهماً واسعاً شاملاً ، لاسباب واضحة ، لم يكن بالامكان الجهر بها دائماً . ولكن عندما وقعت معاهدات الاستقلال ، كان الواجب يحتم عرض ما في هذا الاستقلال من كال على عصبة الأمم الكثيرة الشكوك ، وعلى الرأي العام العربي الذي لا يقل عنها شكاً وريبة . ولم يكن في وسع أية حكومة بريطانية ان تعترف جهاراً ، بأن هذه المعاهدات تمس استقلال الدول العربية مساً رفيقاً حتى ولو بصورة غير مباشرة ، كما ذكرت لجنة الانتدابات الدائمة في تقريرها الذي ينطوي على الرقة والكياسة . ولم يكن في وسع اي ملك عربي أو أي رئيس وزراء ، ان يعترف جهاراً ، انه واقع تحت تأثير نفوذ اجنبي يجد نفسه مرغماً على الاستكانة له في ادارة دفة سياسته الخارجية ، وقد يحدث العرب بعضهم بعضاً عن « المعلّم » البريطاني . وقد يعرفون في قرارة قلوبهم حقيقة العلاقات القائمة بين بلادهم وبين بريطانيا . لكن الرأي العام في بريطانيا كان يجهل حقيقة هذه العلاقات تمام الجهل . وهكذا نشأت مع مرور السنين حالة من سوء التفاهم شكلت حاجزاً

منيعاً بين الشعبين ، لم يكن في الامكان رفعه دون الكشف عن خفـايا دقيقة ، ذات طبيعة متفجرة ، بحيث يستحيل كتمانها بين صفوفنا اذا مـا كشفت ، واذا ما جاءت على السنة الآخرين ، وجدنا انفسنا مرغمين على نفيها نفياً يشوبه السخط والحنق .

ولا يمكن للمعاهدات ان تعمل بنعومة ويسر ، إلا اذا كان الانسجام في سياستنا الخارجية اصيلاً ، وكانت جماهير الناخبين في الشعبين العربي والبريطاني تحس بمثل هـذا الاحساس . ولم يكن في الامكان قط تحقيق هذا الشرط لسبب بسيط واحد وهو ان المعاهدات كانت ناحية حيوية من نواحي السياسة الخارجية، وكانت تبعاً لذلك مكروهة دائماً لدي جماهير كبيرة ثم اصبحت طاغيـة في السنوات الأخيرة من الرأي العام العربي . وهكذا لم يكن في الامكان ان يحقق بصورة عملية المفهوم النظري للعلاقة القائمة على المصلحة المشتركة بين حكومتين ، تقف كل منهما موقف السؤال امام جماهير الناخبين الاحرار في التعبير عن آرائهم في بلادها . ولم يكن في مكنة الا فريق واحد من الفريقين المتعاقدين ، ان يعمل طبقاً للأصول الديموقراطية ، وهو الفريق القوي ، بالطبع . اما الفريق الضعيف ، فسيظل محصوراً ضمن الحدود التي خططها له الفريق الأقوى، كما رأينا في التحليل السابق ، وهو فريق لا يعتبر نفسه ممثلاً فيه ابداً .

وكان هذا الظرف الخاص هو الذي اعطى للصهيونيين احسن السبل المواتية لاستخدام حكومة جلالته البريطانية كأداة فرضوا عن طريقهـا ارادتهم على العرب ، فاخرجوا من فلسطين اهلها العرب ، ليقيموا على ارضها ما يسمى الآن بدولة اسرائيل . وبينما كان الصهيونيون يسيرون خطوة فخطوة نحو هدفهـم ، كان أساس الصداقة المفروض بين بريطانيا والعرب ، وهـو اساس ضروري اذا اريد للمعاهدات ان تعمل كما كان يقصد منها ، يتحول الى العداء . وأخذ العرب ينظرون الى القواعد البريطانية العسكرية في بلادهم ، لا كقواعد لقوات حليفـة يقصد منها ان تكون موجهة ضد أعداء خارجيين مشتركين ، بـل كقواعد بوليسية موجهة ضـدهم هم ، تؤمن الحماية للمصالح الاستراتيجيـة ، وللاستعمار

والاستيطان الصهيونيين على حساب اراضي العرب واستقلالهم . وغدا ملوك العرب ورؤساء وزاراتهم ، أمام العرب حراساً تعينهم بريطانيا للمحافظة على سلطاتها التعاهدية التي تضمن لها ابقاء هذه القوات البوليسية الاجنبية في بلادهم . واضحى الجهاز التعاهدي للنفوذ البريطاني في نظر العرب وسيلة تستخدمها بريطانيا لغايات تحرم على العرب كل ما يؤمنون بأنه حق من حقوقهم .

الصهيونيون والأرض

حدد تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية قبل نحو من نصف قرن اهدافها السياسية على النحو التالي :

(١) تنظيم حركة استيطان واسعة النطاق في اراضي فلسطين .

(٢) الحصول على حق معترف به دولياً في استيطان فلسطين واستعمارها .

(٣) تشكيل منظمة دائمة تتولى توحيد جهود كافة اليهود لحمل رسالة الصهيونية [١] .

وليس ثمة من دليل على ان هذه الاهداف قد تبدلت منذ ذلك الحين ، على الرغم من ان استعداد الصهيونيين للاعتراف بها أو اعلانها كان يتأرجح مداً وجزراً طبقاً للظروف والفرص . وعندما اتاحت الحاجة الى كسب تأييد اليهود في الحرب الكونية الأولى الفرصة للدكتور حاييم وايزمن للحصول على تأييد رسمي من بريطانيا تبلور التعريف الصهيوني لفلسطين ، على انه المنطقة التي تحمل هذا الاسم ، والتي ستوضع كنتيجة للحرب تحت انتداب بريطانيا واشرافها . وهذه المنطقة هي التي تشمل الآن ما تحتله اسرائيل والمملكة الاردنية الهاشمية وقطاع غزة . واصبح تعبير « الصهيونية السياسية » يمثل العقيدة الموجهة للمنظمة الدائمة التي تم انشاؤها لتحقيق هذه الاهداف . وسأكتفي في هذا الكتاب باستعمال

١ – ألان تيلور – مقدمة الى اسرائيل – تحليل الدبلوماسية الصهيونية – نيويورك ١٩٥٩ .

عبارة « الصهيوني » المختصرة لاشير الى كل من يعمل لتحقيق هذه الاهداف .

واذا ما أخذنا التعابير المقبولة ، تبين لنا ان ليس كل يهودي صهيونياً ، وان ليس كل صهيوني ، يطبق من ناحية دينية الشعائر اليهودية . فقد اعتنق كثير من المسيحيين أهداف الصهيونية السياسية . فالقوة الرئيسية الدافعة وراء الصهيونية السياسية هي في الحقيقة تنفيذ هدفها السياسي الرامي الى الاستيلاء على الأرض المسماة بفلسطين وتحويلها الى دولة . وقد رفضت الصهيونية دائماً الفكرة القائلة بأن في وسع اليهود أو ان عليهم ان يندمجوا في حياة البلاد التي يعيشون فيها . وتقضي النظرية الصهيونية بأن يكون ولاء اليهود الأول اينما وجدوا لتحقيق الهدف الصهيوني . وعلى اليهود ان يشعروا بانهم ينتمون الى اسرائيل لا الى اي بلد آخر . وعلى الرغم من ان اليهود قد يكونون مواطنين في بلاد اخرى — وهم بالفعل مواطنون فيها — ، فان ولاءهم الأول يجب ان يتجه دائماً الى الصهيونية ، والى اسرائيل .

والصراع بين الصهيونيين وبين اليهود في المهجر المطالبين بالاندماج ، بدأ منذ عهد بعيد وما زال قائماً . فهؤلاء اليهود يصرون على ان اليهودية تعني اعتناق الديانة اليهودية مهما كانت الجنسية التي ينتمي اليهود اليها ، وان ولاءهم المدني يجب ان يكون للدولة التي يعيشون فيها وان يكون مطلقاً غير مجزأ . ومن هذا الصراع نبتت عبارات وعد بلفور عام ١٩١٧ التي تعتبر وسطاً والتي نصت كما يلي :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي ، وسوف تبذل افضل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية على ان يفهم جلياً انه لا يجوز عمل شيء قد يغير الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ، ولا الحقوق أو المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلاد غيرها » .

ويتضح من هذا ان الوعد تضمن تحفظين اولهما بالنسبة لعرب فلسطين وثانيهما لليهود الاندماجيين في أرض المهجر ، الذين قد تتأثر اوضاعهم اذا اعتبر ان

ولاءهم للبلاد التي يقيمون فيهـــا يجيء ثانياً في المرتبة والاهمية بالنسبة لولائهم لأهداف الصهيونية السياسية .

وكانت غاية الصهيونية السياسية منذ البداية الالتفاف حول هـذين التحفظين بطريقة من الطرق . فاذا كان من المقرر لهذه البلاد المسماة بفلسطين والتي يقيم فيها أهلها العرب ، ان تتحول الى ارض اسرائيل وان يحتلها اليهود ، فعلى العرب ان يخرجوا منها ، اذ يتعذر على هذين الشعبين ولكل منهما قوميته الخاصة ، ان يعيشا في بلد واحد . وعلى العرب عند خروجهم ان ينزلوا عن « حقوقهم المدنية والدينية » مهما كان تعريفها . وفي نفس الوقت ، اذا اريد للهدف الصهيوني في توحيد جميع اليهود تحت راية الصهيونية ، ان ينجح ، فان الولاء لاسرائيل يجب ان يسبق حتما ولاء اليهود للبلاد التي يقيمون فيها . وعلى هذا فقد كانت أهـداف الصهيونية منذ البداية وما زالت حتى هذه اللحظة متعارضة كل التعـــارض مع مصالح العرب ، وماسة مساساً مباشراً بالمصالح السياسية الخاصة لليهود الراغبين في الاندماج في حياة البلاد الاخرى .

وتمكن الصهيونيون عن طريق وعد بلفور وصك انتداب عصبة الأمم الذي اضفى على الوعد صـفة دولية مقبولة ، من تحقيق موطىء قـدم اساسي لهم في فلسطين وان كان هذا الموطىء محدوداً في البداية . فقد تقرر ان يـكون لليهود وطن قومي في فلسطين ، واصبح من حقهم ان يطالبوا بالذهاب اليهـــا . لكن الاشياء التي لم تكن واضحة ، هي : هل يعني « الوطن القومي » اقـامة دولة أو مجرد اقامة مجتمع ديني وثقـــافي ؟ وكم هو عدد اليهود الذين يمكن السماح لهم بالهجرة دون المساس بحقوق العرب الدينية والمدنية ؟ وكم مساحة الاراضي التي يجب السماح بانتقالها الى ملكية اليهود ؟ وما مدى السرعة التي يجب ان يتحقق فيها هذا الانتقال .

واضطربت الحكومة البريطانية من عنف مقـاومة العرب ، فاضطرت الى محاولة اتقاء الفريقين . وفي الكتاب الأبيض الذي اصدره تشرشل في عام ١٩٢٠ بوصفه وزيراً للمستعمرات ، حاول ان يبيّن للعرب ، ان ليس ثمة ما يجب ان

بخشوه ، في الوقت الذي اراد أن يعبر للصهيونيين عن تأكيده لهم بأن هدفهم النهائي في اقامة الدولة اليهودية ما زال قائماً [١] .

ومهما قالت الحكومة البريطانية ، ومهما انطوى عليه وعد بلفور من تحفظات فان الصهيونيين قد حققوا لأنفسهم الحق الاساسي في الهجرة الى فلسطين . وستكون هذه العملية غير قابلة للنسخ او الابطال . فكلما ازداد عدد السكان اليهود ، كلما خطت الصهيونية نحو تحقيق هدفها خطوة الى الأمام ،وكل شبر من الأرض يحصل عليه المهاجرون ، يصبح لبنة جديدة في البناء الصهيوني . ولم يكن هناك شك عند الصهيونيين منذ البداية ، في ان المقاومة العربية ، ستتكرر وتتجدد ، بين فترة واخرى ، كلما اصطدمت مشاريع الاستيطان الصهيوني بالمعارضة العربية . وكتب بن غوريون في عام ١٩٥٩ يقول .. « كنت اومن وما زلت ، بان التعاون اليهودي – العربي ينطوي على فوائد عظيمة للشعبين ، ولكنني ادركت في الوقت نفسه ان معركة تل هاي لعام ١٩٢٠ ومذبحة عام ١٩٢١ ، لن تكونا شيئاً يقاس بما ينتظرنا من احداث دامية [١] » . ولم يكن بن غوريون مبالغاً في قوله هذا . فالاستعمارية الصهيونية كلفت الوف الارواح ، من اليهود الذين حاربوا لاحتلال الارض واحتلوها ، والعرب الذين حاربوا للحفاظ على الارض وخسروها ، والبريطانيين الذين حاربوا في البداية لادخال المهاجرين اليهود تحقيقاً لالتزاماتهم بموجب وعد بلفور ، ثم لوقف طوفان الهجرة تحقيقاً لالتزاماتهم تجاه العرب .

وكانت الحكومة البريطانية في السنوات الأولى ، هي التي تتولى تحديد الهجرة رغبة منها في عدم التنكر لالتزاماتها تجاه العرب . وكان على الحكومة البريطانية ان تعنى عناية فائقة بالرأي العام في بريطانيا نفسها . فمقاومة العرب العنيفة تزعج الرأي العام البريطاني ، وتستفز اسئلة عدة توجه في مجلس العموم ، تتطلب من الوزراء الرد عليها ، واعطاء بيانات واضحة عن الطريقة التي يفون فيها بالتزاماتهم . وكانت الاسئلة تثار أيضاً في كل عام ، عندما تعرض لجنة

---

١ – وثائق وزارة المستعمرات – ١٧٠٠ .

١ – الجويش اوبزرفر – عدد ٨ ايار عام ١٩٥٩ .

الانتدابات الدائمة لتقرير الحكومة المنتدبة السنوي ، وتناقشه بالنيابة عن عصبة الأمم .

وكان من واجب الصهيونيين دائماً عندما تشتعل المقاومة العربية ان يقنعوا الرأي العام في بريطانيا وخارجها بأن مصالح العرب لم يلحق بها ضرر مطلقاً ، وان ليس للعرب أي مبرر مشروع في هذا القلق . ولهذا فقد كانت كل خطوة الى الأمام عملية محدودة ، لاقناع الحكومة البريطانية والشعب البريطاني ، بان لهذه الخطوة ما يبررها . وكثيراً ما كان الصهيونيون يخطون ثلاث خطوات الى الامام وخطوتين الى الوراء ، لتتاح لهم الفرصة للادعاء جهاراً بان بريطانيا ترغمهم دائماً على التراجع تأييداً منها للعرب ، بينما هم في الحقيقة يشعرون بالراحة والطمأنينة لان الفرق بين المكاسب والخسائر ، كان دائماً الى جانب مكاسبهم . والصهيونية حركة قومية ، وكانت حركة وطنية لا بلاد لها في السنوات التي سبقت قيام اسرائيل. فالأمم المعروفة التي تقيم في بلادها ، تكوّن لها جيوشاً ، تخوض بها الحروب ، وتحتل البلاد التي ترغب في احتلالها . وفي هذه الحروب يقتل الكثيرون من الناس . ويزج القادة بقواتهم في المعارك وهم يدركون ان العديدين سيفقدون ارواحهم ، وستعتز البلاد بذكرى هؤلاء الذين يموتون في سبيل بلادهم . ولم تكن للصهيونيين بلاد او جيش ،ولكنهم كانوا جميعاً جنوداً يحاربون لقضية قومية ، وكان عليهم ان يقدموا الكثير من الارواح للحصول على البلاد التى يعتبرونها ملكاً لهم ، ولذا فقد كانوا يموتون في سبيل تحقيق هدفهم .

وكانت الخطط الاستراتيجية التي تحتم عليهم اتباعها فريدة في نوعها،كوضعهم الفريد . ولم يكن النصر ممكناً لهم الا اذا اقتنع الرأي العام في انكلترا وامريكا بأن من حقهم ان يربحوا قضيتهم ، واظهر هذا الرأى العام استعداده لنصرتهم ، والا اذا اقتنع ايضاً ، وفي كل لحظة من اللحظات الدقيقة الحرجة بأن العرب مخطئون كل الخطأ في مقاومتهم . وقد تضطر بعض الأمم الى خوض حروب جماعية ، تتقزز النفوس احياناً من الوسائل التي قد يلجأون اليها لتحقيق نصرهم . وكان على الصهيونيين ان يعملوا ما يعمله الآخرون بطريقتهم ولتحقيق

غاياتهم

ولم يكن العرب يشكون في حقيقة النوايا الصهيونية ولا في تصميمهم . وكان الموظفون البريطانيون في المنطقة في ذلك الوقت يرون هذه النوايا بوضوح أيضاً . وحتى قبيل اعلان الانتداب البريطاني على فلسطين ، بعث كبير الموظفين الاداريين فيها بتقرير يقول فيه ان الصهيونيين « يبدون مصممين على ارغام الادارة العسكرية المؤقتة على اتخاذ سياسة متحيزة الى جانبهم حتى قبل اعلان الانتداب . ومن المستحيل تماماً ارضاء جماعة من المتعصبين يدعون رسمياً انهم لا يطالبون بأكثر من الوطن القومي بينما هم في الحقيقة لا يقنعون بأقل من الدولة اليهودية »[1] . وكانت النظرية الغالبة عند الانكليز في هذه السنوات التأسيسية الأولى ان الوطن القومي لا يعني بحكم الضرورة الدولة اليهودية . وكانت النظرية البريطانية الرسمية ان في وسع العرب واليهود ان يعيشوا في انسجام ووئام معاً ، وان في وسع العرب ان يفيدوا من هذا التسرب من الافكار والمعرفة والمشاريع ورؤوس الاموال التي حملها اليهود اليهم ، وان عليهم ان يشكروا اليهود عليها . وكانت هذه النظرية تقول ايضاً بان العرب سيألفون اليهود وسيقبلون بهم .

وتحتم على العرب ان يواجهوا الكثير من المصاعب الفائقة . فمن الناحية الرسمية ، ليس ثمة أي تفكير في اقامة دولة يهودية . هذا ما تعلنه الحكومة البريطانية وما لا يعمل الصهيونيون على نفيه او انكاره . ولكن العرب كانوا يرون حقيقة نوايا الصهيونيين ، بينما لا يراها الرأي العام البريطاني ، الذي لاينفك يسأل عن الاسباب التي تحمل العرب على الاستمرار في الصراخ والتظاهر . فهل يتهم العرب الحكومة البريطانية بانها تحاول تضليلهم وخداعهم ؟ وكان رد الدعاية الصهيونية واضحاً وسهلاً ونفاذاً . وهكذا فان العرب في اعلانهم بان الصهيونيين يرمون بكل تأكيد الى اقامة دولة لهم ، كانوا يضعون انفسهم في شكل متعارض مع السياسة البريطانية الرسمية ، وكانوا يدفعون بتأييد الرأي العام البريطاني الى صفوف الصهيونيين . وهكذا فقد كان العرب في الحقيقة

١ - جورج كيرك - ملخص تاريخ الشرق الاوسط .

يحتجون على سياسة استعمارية استيطانية كان من المفروض انهـا غير موجودة رسمياً ، وان كانت موجودة فـعلا ، تماماً ، كما اخذ العرب في السنوات التاليـة بالنسبة الى المعاهدات المعقودة مع بريطانيا ، يحتجون على استقلال ضائع ، كان من المفروض رسمياً انه غير موجود ، مع انه موجود حقاً وفعلاً . وفي كلتـا الحالتين ، لم يكن في وسع العرب ان يحققوا أي تقدم او نجاح ، الا اذا تمكنوا من اقناع البرلمان البريطاني ومن ورائه الرأي العام ، ان ما يقولونه هو الحق والصدق ، وان ما تقوله الحكومة البريطانية او ما تحاول ان تحمل شعبها على تصديقه هو الباطل والخطأ . وكان هذا الوضع شاقاً بالنسبة اليهم ، ويتعذر عليهم علاجه ، لا سيا وان اشتداد معارضتهم كان يسهل على الصهيونيين مهمتهم في كسب عواطف الشعب البريطاني الى جانبهم .

وكان مركز السلطة النهائي ، قائماً في الحكومة البريطانية في لندن . فهناك لا في القدس ، كانت القرارات التنفيذية توضع وتتخذ ، وكانت الصهيونية تمارس اشد ما لديها من ضغط في العاصمة البريطانية نفسها . وكان في وسع هذا الضغط ان ينفذ الى الحكومة البريطانية في وايتهول عن ثلاثة طرق . اولها ان تضغط الوكالة اليهودية في القدس على المندوب السامي ، فينقل هذا ضغطهـا بدوره الى وزارة المستعمرات في لندن حيث يقوم وزيرهـا بايصاله الى مجلس الوزراء . وثاني هذه الطرق ، مـا نطلق عليه الآن اسم « العلاقات العامة » ، اذ تضغط الصهيونية على الرأي العام في انكلترا بواسطة اعضـاء البرلمان والوزراء وبينهم بالطبع وزير المستعمرات . أما الطريق الثالث ، فبواسطة التأثير على الرأي العام في البلاد الاخرى كالولايات المتحدة مثلا ، حيث ينتقـل الضغط عن طريق السفـارة الى وزارة الخـارجية البريطـانية ومنهـا الى وزارة المستعمرات ومجلس الوزراء .

وكان في وسع العرب والصهيونيين ان يستخدموا هذه الطرق الثلاث طبقاً لإمكاناتهم ووسائلهم ، ولكن هذه الامكانات كانت متفاوتة . وقد ذكر المستر

كروسلي في مجلس العموم البريطاني في عام ١٩٣٨ [١] ما نصه :

« ليس ثمة من اعضاء من العرب في المجلس ، وليس ثمة من ناخبين من العرب ليؤثروا على نوابهم . وليس ثمة من سيطرة عربية على الصحف في هذه البلاد . ومن المستحيل تقريباً ان تنشر التايمس رسالة تحمل وجهة نظر مؤيدة للعرب. وليس هناك في حي المال (السيتي) ، أية مؤسسات مالية عربية تسيطر على موارد مالية ضخمة . ولا يملك العرب في هذه البلاد اية سيطرة على اعلانات الصحف. وليس ثمة بين وزراء المستعمرات السابقين أي من العرب » .

ولخص المستر كروسلي بيانه قائلاً : « وبالعنف وحده يستطيع العرب ان يضمنوا اسماع صوتهم » .

وليس ثمة من ريب في ان الصهيونيين كانوا يملكون الوسائل اللازمة للوصول الى الرأي العام والرأي البرلماني في انكلترا ، وهو ما لم يتمكن العرب قط من الوصول اليه كما لم يتعلموا طرق تحقيقه . وكان السبيل الوحيد المفتوح أمام العرب ، هو الضغط في فلسطين نفسها ، فتقوم الادارة في فلسطين بنقله الى وزارة المستعمرات ، التي تنقله بدورها الى وزيرها . وعندما تقع الازمات ، ويتطلب بحث القضية الفلسطينية اهتمام مجلس الوزراء كاملاً ، لم يكن هناك بين اعضاء المجلس الا شخص واحد على اتصال مباشر بالضغط العربي وبقوة الحجة العربية ، وهو وزير المستعمرات نفسه . أما بقية الوزراء ، فلم تكن لهم أية معرفة مباشرة بما يدور في داخل فلسطين نفسها ، وكانوا عرضة لوسائل النفوذ والضغط التي تلجأ اليها المنظمة الصهيونية عن طريق الصحافة واعضاء البرلمان ، وعن طريق الضغط المباشر على الوزراء انفسهم . ولا ريب في ان الصهيونيين كانوا في منتهى الدهاء عندما قرروا بأن بريطانيا يجب ان تكون الدولة التي يعهد اليها بمهمة الوصول بدولة اسرائيل الى حيز الوجود . فدولة ديموقراطية يمكن لحكومتها ان تتأثر بضغط الرأي العام والبرلمان اللذين يتأثران بدورهما

---

١ – هانسارد – المجلد ٣٤٧ ، العمود ١٩٦٧ .

بالدعاية الماكرة ، هي خير اختيار ممكن لتحقيق هذا الغرض .

واذا اردنا التحديد في التعبير قلنا ان الصهيونيين كانوا ينقلون الاراضي التي يملكها العرب بصورة تدريجية الى ملكيتهم ، وكانوا يزيدون في عدد السكان اليهود في فلسطين . واتخذ العرب موقف الدفاع ازاء هذه الحركة المستمرة . وليست هناك من قضية يصح عليها تعبير « الدفاع » اكثر من هذه القضية . لكن طبيعة الحوادث ، كانت تقضي بان لا يشعر البرلمان والرأي العام في انكلترا بما يحدث الا عندما يثير نمو اليهود ، المتزايد بالتأييد الرسمي والطرق السلمية ، معارضة العرب العنيفة . وتصدر الطلقة الأولى عن العرب ، لأن الصهيونيين يريدون صدورها عنهم ، فيلصقون بهم فوراً تهمة العمل «الهجومي» ، العدواني. وهذه الطلقة لا تستهدف الصهيونيين وحدهم بل الادارة البريطانية ايضاً . وهكذا يصبح على الحكومة البريطانية واجب مقاومة العرب والدفاع عن اليهود . وهكذا يرى الشعب البريطاني في العمل الدفاعي العربي المجرد ، عملاً عدوانياً ، ويرى في عمل الصهيونيين الهجومي بالنسبة الى مصالح العرب ، عملاً دفاعياً .

وفي استطاعة مثل هذه الاوضاع ان تستمر الى مصلحة الصهيونية طالما ان في مكنتهم اقناع البريطانيين بأن ثمة الكثير من الاراضي التي يستطيعون تملكها، وان « قدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب » تبرر استمرار الهجرة اليهودية . وكانت هذه هي القضية الرئيسية الحاسمة . وظهرت النذر في عام ١٩٢٩ ، فقد طلع العرب باحتجاجاتهم وتظاهراتهم واضطراباتهم .

ودب الفزع في افئدة رجال الادارة الفلسطينية من هذه الانفجارات العربية ، فعهدوا الى بعض الخبراء بدراسة مشكلة الاراضي . وقدم خمسة من الرجال البارزين تقاريرهم . وقامت اللجنة الملكية في عام ١٩٣٦ بدراسة جميع هذه التقارير ، واستخلصت منها النتيجة العامة التالية التي تصلح كمرجع رسمي بالنسبة الى بحثنا الحالي ، وهي « انه ما لم يطرأ تبدل ملحوظ على اساليب الزراعة،فان أراضي فلسطين لا تستطيع اطعام عدد اكبر من السكان في البلاد».

وواجه الصهيونيون في هذه الحقيقة خطراً كبيراً . فاذا قبلت الحكومة البريطانية هذه النتيجة وصدقها الرأي العام البريطاني فعلى الصهيونية واهدافها السلام . فالرأي العام البريطاني لا يستطيع تأييد استمرار الهجرة ، اذا كان يعتقد انها ستؤدي الى اخراج العرب من بلادهم . وكان هذا الغموض في وعد بلفور ، هو الذي ينزل العلل بالصهيونيين ، كما ذكر الدكتور وايزمن [١] ، عندما قال : ان تلك الفقرة المتحفظة التي اصرت عليها الحكومة البريطانية والتي تقضي بان لا يلحق بحقوق العرب الدينية أو المدنية أي اذى بسبب الهجرة اليهودية هي التي تثير شكاوي اليهود . ولو لم تكن هذه الفقرة موجودة لسارت الأمور على ما يرام . ولو تمكن العرب من اقناع الحكومة البريطانية وشعبها بأن العرب سيعانون ضائقة في الأراضي بسبب الهجرة اليهودية مما يؤلف « مساساً بحقوقهم المدنية والدينية » ، فان الفشل سيكون نصيب القضية الصهيونية .

وكان السند الرئيسي في الادعاء الصهيوني حتى الآن ، هو ان ثمة الكثير من الأراضي التي تتسع لهم ، وها هي خمسة تقارير رسمية اعدهـا خبراء معترف بكفايتهم ، تقول انه لم تعد هناك أراض كافية على الاطلاق . وهنـا حدث اسوأ ما كان يتوقعه الصهيونيون فقد اصدرت الحكومة البريطانية كتاباً ابيض [٢] ، اعلن قبوله بتقارير الخبراء وتوصل الى النتيجة القائلة بوجوب تحديد الهجرة اليهودية .

وسارع وايزمن الى لندن عائداً من القارة الاوروبية حيث شرع يعمل وراء الكواليس . وكان الكتاب الابيض قد صدر في الواحـد والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٣٠ ، ولم يحل الثالث عشر من شباط عام ١٩٣١ حتى كان وايزمن قد اقنع رامزي مكدونالد ، رئيس الوزارة البريطانية آنذاك ، بان يبعث اليه برسالة ، تتخذ شكل وثيقة رسمية تتلى في مجلس العموم . وقد تضمنت هـذه الرسالة العبارة التالية : « ان الاعتبارات المتعلقة بتحديد القدرة الاستيعابية ،

١ – وايزمن – التجربة والخطأ .
٢ – وثائق وزارة المستعمرات ، ٣٦٩٢ .

هي مجرد اعتبارات اقتصادية » . وهذا كل شيء .

واذا ما تطلع الانسان الى هذه الكلمات ، بعد هذا التاريخ الطويل ، لم ير فيها شيئاً مؤذياً . ولكن ما دام ان الدكتور وايزمن قد وجد فيها ما يرضيه ويقنعه ، فان هذا يعني انها تنطوي على اكثر مما يبدو في ظاهرها . وبالفعل ، فقد كانت هذه الرسالة اهم من ظاهرها ، وهذا ما اوضحه الدكتور وايزمن الى الصهيونيين الساخطين الذين ارادوا ان يعرفوا كيف يمكن لرسالة شخصية مقتضبة من رئيس الوزراء ، ان تبطل مفعول الكتاب الابيض المدمر لهم .

وكان مفتاح الأمر ، محصوراً في كلمة « مجرد » . واذا ما ترجمت هذه الكلمة المزعجة الى اللغة الانكليزية العادية، فانها كانت تعني ان على الادارة الفلسطينية، عندما تقرر نسبة الهجرة اليهودية ، ان تأخذ بعين الاعتبار ، مجرد الاعتبارات الاقتصادية دون غيرها . واذا ما اغرقنا في ترجمة هذه الكلمة وتفسيرها ، تبين لنا انها تعني ان من حق العرب ان يعترضوا على الهجرة اليهودية اذا استطاعوا ان يقيموا الدليل للادارة الفلسطينية على انها ،أي الهجرة، تؤثر على جيوبهم. وهذا يعني ان مسئلة « الجيوب » غدت المظهر الوحيد « للحقوق الدينية والمدنية » التي يجب ان تراعى .

وهكذا حقق الصهيونيون ما يريدونه حتى الآن . فالتحفظ قد هبط الى مستوى المال والمحادثات المالية . فقد قرر رئيس الوزراء ، ان على الادارة الفلسطينية ان لا تكترث باية اعتراضات سياسية او دينية او اجتماعية او اي شيء آخر ، قد يثيره العرب ضد الهجرة اليهودية . والشيء الوحيد المهم هو الجيب أو المال. وكان على الصهيونيين في نفس الوقت ان يقيموا الدليل على الناحية السلبية في كل مرة يضغطون فيها مطالبين بمزيد من شهادات الهجرة ، يعني ان عليهم ان يبرهنوا على ان طلبهم لا يؤثر على جيوب العرب . او لم يكن من الأفضل لو اقتنع البريطانيون بالناحية الايجابية ، واعتقدوا بان الهجرة اليهودية مجدية للعرب ولجيوبهم . فاذا استطاعوا الوصول الى ذلك ، كان في وسعهم ان

يقولوا ، ما دام ان الهجرة اليهودية المحدودة نافعة للعرب ، فكلما ازدادت هذه الهجرة كلما اتسع نفعها . واذا مضينا في هـذا الادعاء الى نهايته وصلنا الى النتيجة الوحيدة ، وهي الزعم بان مصالح العرب تخدم اكثر واكثر اذا استمرت الهجرة واذا اصبحوا اقلية في دولة يهودية ! !

ومضى الصهيونيون في حوارهم . وكان من السهل عليهم ان يقولوا كل شيء لتبرير الغاية الصهيونية ، واكتشفوا الآن ان نظرية العودة الى الأرض ليست قوية من الناحية الاقتصادية كما بدت في البداية ، لا سيما وانها قد استنفدت اغراضهـا السياسية . وعلى النقيض من ذلك ، فان الاقتصاد السليم في هذه البـلاد ، لا يستطيع ان يرتكز ، ويجب ان لا يرتكز على الزراعة . ومن الأفضل قيـام نسبة بين السكان الصناعيين والزراعيين على غرار تلك القائمة في البلاد الصناعية ، وبين المليون من السكان الذين كانوا يعيشون في البلاد في ذلك الوقت كان نحو من ثمانين في المائة يعملون في الزراعة وعشرون في المائة يعملون في الصناعة او كعمال في المدن. أما الاقتصاد السليم فيتطلب ان يكون الأمر على العكس، أي ان يكون عدد العمال الصناعيين اربعة اضعاف العـمال الزراعيين . واذا اردنا الحساب بالارقام قلنا ان ثمانمائة الف من السكان البالغ عددهم مليونـاً كانوا يعملون في الزراعة . واذا كان هذا الرقم يمثل العشرين في المائة الذي يوجد في المجتمعات الاقتصادية السليمة ، تبين ان عدد السكان يجب ان يكون والحالة هذه اربعة ملايين . ولا تضم البلاد الآن الا مليوناً ، اذن فالمجال متسع فيها لثلاثة ملايين آخرين . وهكذا فالمكان فسيح للعرب !! هذه هي اقوال الصهيونيين وحججهم. وكانوا يقولون أيضاً ان تدفق الرساميل مع المهاجرين ، وقيام المصانع بسرعة ، سيجـعلان المجال فسيحاً للعمل أمام العرب الذين سيتقاضون أجوراً اعلى ، وتتحسن أحوالهم المعاشية ، ويرتفع مستوى تعليمهم واسكانهم . ويمضون في أقوالهم فيزعمون ان نسبة الخمس ضئيلة للغاية ، وانه اذا اتسع نطاق التعاون بين الانكليز والصهيونيين والعرب في مشاريع التصنيع فان هذه النسبة قد تبلغ التسعة اعشار ، وهذا يعني ان عدد السكان قد يرتفع الى خمسة ملايين واربعمائة

الف . هذا اذا افترضنا ان فلسطين قد وصلت حد الاشباع من الناحية الزراعية كما يقول هؤلاء الخبراء الخمسة . ولكن اذا دخلت وسائل الزراعة الآلية الحديثة امكن زيادة الناتج ، ورفع عدد الذين يعيشون على المحاصيل الزراعية . وبمثل هذه الارقام الحسابية البسيطة ، كانوا يظهرون ان ليس ثمة ما يدعو العرب الى التذمر والشكوى . وكانت الدعاية الصهيونية تواصل الضغط بمثل هذه الآراء بمنتهى النشاط والحيوية على الرأي العام البريطاني ، حتى اصبح الاتجاه العام ميالاً الى قبولها ، الا اذا قام الدليل على عكسها .

وكان الاشتراكيون (حزب العمال الحاكم آنذاك) ، يرون في العرب الذين يتحدثون عن الحقوق الدينية والمدنية طبقة تمثل الساسة والباشوات واصحاب الاملاك . وهذه الطبقة لا تهتم بجماهير الشعب العربي من الفلاحين المضطهدين والعمال ، وكل ما تهتم به هو ان تملأ جيوبها . واذا صح انها تبحث عن الحماية ، فكل ما تريد حمايته هو جيوبها ، امام الجماهير العربية ، فجيوبها وبطونها خالية على حد سواء . ولن يقوم الاقطاعيون بملئها حتماً . أما الصهيونيون – في رأي الاشتراكيين – فسيملأونها بالرساميل التي يحملونها ، وبالمهارة في العمل والتطور الاقتصادي . والبلاد في حاجة الى لفيف من الاداريين الصلبين والمثقفين وذلك لمصلحة الجماهير العربية كما هو لمصلحة الآخرين . ولا تهتم طبقة الاقطاعيين والباشوات بذلك ولكن الصهيونيين يهتمون . ولهذا فان الاكتفاء « بمجرد الاعتبارات الاقتصادية » ليس من مصلحة العرب فحسب ، بل انه واجب انساني أيضاً . واذا كان هذا القول في مصلحتهم فمن واجبهم ان يحبوه . واذا كان من واجبهم ان يحبوه فان على الحكومة البريطانية التزاماً بمكافحة اولئك العرب الذين يمنعونهم من ذلك . واخذت هذه الاقوال والحجج تلقى آذاناً صاغية .

وتفرض العبقرية الصهيونية احترامها على الآخرين . ففي وعد بلفور تحفظ مقصود ، الغاية منه الحيلولة دون الوصول الى الحد الذي تغدو فيه الهجرة اليهودية « ماسة بالحقوق المدنية والدينية للعرب » . وقد تمكن الصهيونيون من

ايجاد صيغة برهنوا عن طريقها بان ليس ثمة حد من هذا النوع ، وان على السلطة المنتدبة على العكس ان تؤدي واجبها كاملاً نحو العرب ، بفتح ابواب الهجرة على مصراعيها لليهود ، فان اغلقتها او حددتها ، فإنها تخل بواجبها نحو العرب انفسهم . وهذه الصيغة قد حررتهم من الاعتراض الوحيد الذي ظل في أيدي العرب وهو الاعتراض الاقتصادي ، بعد ان كانت الاعتراضات الاخرى من سياسية واجتماعية ونفسية وعاطفية ، قد غدت محرمة عليهم طبقاً لرسالة رئيس الوزارة البريطانية .

وظل هذا المبدأ الاقتصادي الموجه ، مسيطراً على شؤون الهجرة اليهودية الى فلسطين بصورة مطلقة ، حتى ادى ارتفاع شهادات الهجرة بشكل عظيم بسبب اضطهاد هتلر لليهود ، الى قيام رد فعل حتمي من جانب العرب ، ظهر على صورة احتجاجات وتظاهرات واضطرابات وثورة وحرب . واوفدت لجنة ملكية في عام ١٩٣٦ فقدمت تقريرها في ربيع عام ١٩٣٧ [١] ، وذكرت في هذا التقرير بالنسبة الى هذا العامل الذي يتحكم بالهجرة اليهودية ما يلي :

« لم تنظر الادارة الفلسطينية بعين الاهتمام بالنسبة الى موضوع الهجرة الى الاعتبارات السياسية والاجتماعية والنفسية ، ولا ريب في ان أية تقديرات على ضوء مثل هذه الاعتبارات ستكون مناقضة تمام التناقض لتعليمات رئيس الوزراء في رسالته التي نصت على ان الاعتبارات المتعلقة بتحديد القدرة الاستيعابية هي مجرد اعتبارات اقتصادية » .

ولم توافق اللجنة الملكية على هذا الرأي بالطبع ، ورأت ان من الواجب أن « يعاد النظر في الهجرة وان تقرر على ضوء جميع الاعتبارات ، لا الاقتصادية منها فحسب » . ثم وجهت اللجنة الاسئلة الصريحة التالية :

« هل من واجب السلطة المنتدبة أو هل من مصلحة الوطن القومي نفسه السماح للمهاجرين بالمجيء الى البلاد باعداد كبيرة دون اعتبار هذا الشعور المتزايد من العداء الذي يجد تعبيراً له من وقت لآخر في اضطرابات

---

١ - وثائق وزارة المستعمرات ، ٥٤٧٩ .

خطيرة ؟ وهل يريد الشعب اليهودي حقاً ان تكون فلسطين مـأوى لأكبر عدد من اليهود تستطيع البلاد ان تستوعبه اقتصادياً ، اذا كانت النتيجة ثورات دائمة واعمال كبت وقمع متتالية ؟ واذا كان الشعب البريطاني حقاً راغباً في اداء التزاماته التي تعهد بها في صك الانتـداب ، فهل يريد ان تستمر التضحيات بـأرواح البريطانيين لتحقيق هـذه الغـاية ؟ »

واوصت اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين ، وفصل جيب يهودي عنها وضم ما يتبقى منها الى شرق الاردن العربية لاقامة دولة عربية . وعلى العرب ان يجلوا عن القسم اليهودي ، وان ينتقلوا الى القسم العربي . فهل هناك متسع لهم ؟ وهل في وسع البلاد الجديدة استيعابهم ؟ ولا ريب في ان اللجنة الملكية قد اعتقدت بامكان ذلك ، والا لمـا اقترحت التقسيم . وارادت اللجنة التثبت من صحة اقتراحها فاشارت بتأليف « لجنة تخطيط فنية » تتولى وضع الخطوط النهائية . ولا ريب في ان الاسم المقترح لا يبرز اهمية ما في هـذا العمل الذي ستقوم به ، اذ ان النقطة الاساسية كانت في اعادة اسكان العرب المطرودين من اراضيهم في اراضٍ جديدة . ولم يكن في وسع احد ان يتصور جدياً امكان اقامة اقتصاد « مصنّع » بـين عشية وضحاها ، وان كان عدد كبير من الناس في انكلترا ، قد ضللتهم الدعاية الصهيونية القائمة على هذا الافتراض الخاطىء ، فتقارير الخبراء الخمسة التي وضعت في عام ١٩٢٩ ، والمعلومات التي تلتها ، اوضحت بجلاء ، انه على الرغم من امكان توسيع الانتاج الزراعي في الاراضي التي تعتمد على الامطار ، الا ان هذا التوسيع يكون محدوداً بحيث لا يستطيع ان يضمن العيش الا لزيادة محدودة من السكان ، يضاف الى هذا ، ما في العملية نفسها من بطء وعدم حسم . ومن الناحية الأخرى لا يمكن زيادة الانتاج في وقت قصير الا عن طريق الري اذا توافر الماء . فهل الماء متوافر ؟ ليس هناك من يستطيع الرد على هذا السؤال بين اعضاء االلجنة الملكية . وعلى الرغم من أن ازدياد الضغط على الاراضي كان مستمراً منذ سنوات طويلة ، وكان الاساس في المشكلة كلها ، فان أيـاً من

المسؤولين في الادارة لم يقم بقياس كميات المياه التي هي المفتاح الحقيقي للمشكلة. وعلى هذا فقد اوصت اللجنة الملكية بأن تقوم لجنة فنية مختصة بعلم وصف الماء وقياسه، بدراسة الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع.

ورصدت وزارة المالية البريطانية مبلغ سبعين الف جنيه استرليني لهذه الغاية خصص منها اربعون الفاً للحكومة الفلسطينية لدراسة الجانب الذي يخصها من نهر الاردن وثلاثون الفاً لحكومة شرق الاردن للغاية نفسها. وقد وصلت الأموال الى دائرة صغيرة تم انشاؤها في عمان أطلق عليها اسم دائرة الانشاء، وعهد إليّ بادارتها، مع التعليمات اللازمة بالانتهاء من العمل في اسرع وقت ممكن.

وسرعان ما عرفنا ان الدعاية التي كانت الصهيونية تملأ بها عقول ابناء الشعب البريطاني عن «القدرة الاستيعابية الاقتصادية» لفلسطين، دعاية مضللة كل التضليل. فقد انقضت ست سنوات منذ قدم عدة خبراء تقاريرهم في عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ القائلة بان البلاد لم تعد تتسع لعدد آخر من السكان. واظهرت البحوث التي قمنا بها بشكل لا يتطرق اليه الشك، بأن الري من وادي الاردن ومن مياه اليرموك، هو الأمل الوحيد. وبدون مشاريع للري من هذا النوع فستقوم أزمة خطيرة في الأراضي في شرق الاردن نفسها بسبب الزيادة الطبيعية في عدد السكان، هذا اذا لم نحسب حساباً لأية زيادة غير طبيعية قد تنجم عن تدفق العرب من جراء خلق دولة اسرائيل.

وقدمت نتائج دراساتنا المائية الى لجنة تقسيم فلسطين في عام ١٩٣٨. [١] وكانت هذه النتائج توصي في الحقيقة بعدم التقسيم. وكان من الاسباب التي اعتمدنا عليها ان الطاقة الاستيعابية للقسم العربي المتبقي لم يكن كافياً لإيواء العرب الذين يتحتم عليهم ان يغادروا القسم اليهودي. وكانت هذه النتائج الرسمية المرتكزة الى دراسات فنية عميقة في كل من فلسطين وشرق الاردن مربكة للصهيونيين، فما زالت أمامهم مهمة استمرار الهجرة حتى يضمنوا الزيادة العددية في السكان. وهكذا ظلت أمامهم المشكلة القديمة في اقناع

---

١ وثائق وزارة المستعمرات، ٥٨٥٤.

الحكومة البريطانية والرأي العام ، بان المجال في البلاد ما زال فسيحاً ، وكانت التقارير الرسمية الموثوقة تظهر مرة ثانية كما في عام ١٩٣٠ ان البلاد لم تعد تتسع لمخلوق .

ولم يكن هذا سهلاً على الصهيونيين هذه المرة . فقد اعربت اللجنة الملكية عن بعض الحقائق التي اصابت الصميم . فقد تولت بالشرح الدقيق كل ما يتعلق بموضوع « الوطن القومي » من ادلة . وعلى الرغم من ان اللجنة لم تصل الى أي قرار واضح تمام الوضوح بصدد ما يعنيه هذا التعبير ، الا انها كانت واضحة بصدد ما لم يعنه هذا التعبير عندما قالت :

« ان زيادة الهجرة اليهودية املاً في خلق اغلبية يهودية واقامة الدولة اليهودية بموافقة العرب او بارغامهم على هذه الموافقة شيء ، والتخيل ، مهما كان هذا الخيال بعيداً ، بتحويل فلسطين عن طريق القوة الى دولة يهودية على الرغم من ارادة اهلها العرب شيء آخر ، اذ ان هذا يعني التنكر تمام التنكر ، لنظام الانتداب في نصه وروحه . ومثل هذا يعني ان ننكر على العرب حق تقرير المصير طالما انهم يؤلفون الأغلبية ، وان نسمح بهذا الحق عندما يبلغ اليهود هذه الاغلبية . وهو يعني أيضاً ان العرب قد حرموا تماماً من الحق في الوقوف على أقدامهم بانفسهم ؛ واننا قد نقلناهم فعلاً بعد فترة من الصراع ، من سيطرة الأتراك الى السيطرة اليهودية . وقد يكون من الحق القول على ضوء التاريخ ان حكم اليهود لفلسطين لا يعتبر غريباً تماماً كحكم الاتراك لها ، ولكن الاعتراف الدولي بحق اليهود في العودة الى وطنهم القديم لا يعني الاعتراف لهم بالحق في ان يحكموا العرب على الرغم من ارادتهم » .

وطبيعي ان لا يكون الموضوع هذه المرة سهلاً بالنسبة الى الصهيونيين ، ولكنهم حزموا امرهم على ان لا تقف في طريقهم أية عقبة مهما كانت عظيمة . فهناك دائماً منفذ لهم ، شريطة ان يعثروا على الصيغة المناسبة التي يستطيعون عن طريقها التأثير على الرأي العام في بريطانيا وامريكا . وكانت الطريقة العربية

بالنسبة الى الرأي العام البريطاني اشبه ما تكون بذلك الرجل الذي يقفز الى الطريق امام سيارتك بين آونة واخرى ، صارخاً ومشيراً بيديه . وقد تكون له أقوى المبررات في الحصول على عطفك ، وعلى اهتمامك العميق ، ولكن ماذا يسعك ان تفعل لرجل يقطع عليك طريقك ويهدد حياتك ؟ اما السيارة الصهيونية فتنساب الى يسارك وانت تسير على الطريق الرئيسية ، ويشير اليك راكبوها اشارات ودية ، ثم ينطلقون امامك .

وهكذا اتسمت المقاومة العربية قبل الحرب الكونية الثانية امام الرأي العام البريطاني بطابع الاضطراب والعنف بينما اتسم الضغط الصهيوني بطابع الحجج المنطقية ، وكان هذا هو اهم سلاح في ايدي الصهيونيين ، وهو سلاح الكلام . وكانوا قد سبقوا العرب في هذا الميدان بنصف قرن على الأقل ، اذ ان الحركة الصهيونية قامت على الكلام وعلى الاشياء التي تقال وتكتب والتي جمعت الى بعضها لتكون حركة فكرية ، اثرت بكلماتها وآرائها على العقول البريطانية اثراً عميقاً .

وكانت الدعاية الصهيونية بارعة كل البراعة ، في تكيفها وتنوعها ، لتلائم كل جزء من اجزاء الرأي العام في انكلترا . وكانت الجماهير مجزأة في عواطفها بالنسبة الى تأييد الصهيونيين أو العرب ، الى جماعات تختلف الواحدة منها عن الاخرى تمام الاختلاف . فالى جانب الصهيونيين تقوم جماعة من المسيحيين الذين نشأوا على الايمان ايماناً عميقاً بوحي العهد القديم والعهود التي يقطعها الى اليهود بالعودة الى ارض الميعاد . وكان حق اليهود بالعودة ، بالنسبة الى هؤلاء ، مطلقاً كما هو للصهيونيين انفسهم ، أما الاعتبارات الدنيوية كوجود شعب غير يهودي في فلسطين ، فأمر لا يهمهم في قليل او كثير . ومثل هؤلاء المؤمنين كانوا موجودين في مختلف الاحزاب السياسية .

وكان بين مؤيدي القضية الصهيونية ايضاً عدد كبير من اعضاء حزب العمال الذين لم يكونوا يؤمنون بوجود حركة وطنية اصيلة عند العرب معارضة للهجرة اليهودية . وكانت القضية بالنسبة الى هؤلاء مجرد قضية مادية . فهم يفكرون اولاً

بمئات الألوف من العمال العرب الذين يمكن ان ينتفعوا من الرخاء الاقتصادي الذي يمكن ان يعم البلاد بمساعدة اليهود . وقد يؤثر هذا الرخاء على امتيازات طبقة الاقطاعيين والشيوخ والوجوه ، ولكن العمال سينتفعون منه وهـذا كل ما يهمهم . ومشكلة فلسطين تمثل بالنسبة الى هـذه المدرسة الفكرية ، مشكلة اقتصادية قبل كل شيء ، والطريقة الوحيدة لاجتذاب العرب وانقاذهم من تأثير العناصر المتطرفة غـير المسؤولة ، هي اعطاؤهم الوسيلة لتطوير اوضاعهم الاقتصادية . وكانوا يرون ان الهجرة اليهودية تؤدي حتماً الى تحقيق هذه الغاية .

وكان هناك ايضاً شعور انساني طاغ وعميق يسيطر على جميع الاحزاب ولا سيما حزب العمال ، ينظر بعين الرأفة لآلام اليهود في اواسط اوروبا وشرقهـا ، ويعطف على تطلعهم الى الخلاص من حياة الاصفاد للعيش أحـراراً يعبرون عن ارادتهم بطريقتهم الخاصة في وطنهم (كذا) ، مع اعجاب بما يبدونـه من مهارة وجرأة في هذا الوطن الجديد . وكانوا يقـولون ان فلسطين لا تمثل الا جزءاً صغيراً للغاية من الوطن العربي الكبير الذي حرره الانكليز انفسهم ومعهم حلفاؤهم من السيطرة التركية . وعلى العرب ان لا يكونوا انانيين فيحرموا هذا الشعب القريب منهم في « ساميّته » ، من الخلاص من آلامه ، والعيش في هذه الزاوية الصغيرة من وطنهم .

وكانت هناك داخل حزب المحافظين المدرسة الاستعمارية العريقـة . ويرى اصحاب هذه المدرسة ان فلسطين بلاد تحتل مركزاً استراتيجياً مهماً وفريداً في نوعه بالنسبة الى قناة السويس والى ملتقى الطرق الجوية بين قارات العالم القـديم الثلاث . وكان من رأيهم ، ان من مصلحة بريطانيا الحيوية ان تكون فلسطين بلداً متقدماً ناجحاً يرتبط الى بريطانيا بوشائج من حسن النية والاعتراف بالجميل ، ويستطيع عند الحاجة والضرورة ان يؤمن لهـا الموارد من الرجال والمواد ، التي تستطيع فقط بلاد كثيفة السكان متطورة في مجتمعها العصري ان تقدمها . وكل هذه الأمور لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق الهجرة اليهودية .

أما الآراء المؤيدة للعرب ، فلم يكن يحملها الا هؤلاء ، من مختلف الاحزاب

والجماعات السياسية ، الذين عاشوا في الشرق الاوسط وعملوا فيه ، أو اولئك الذين كانت تقتضيهم تبعاتهم الرسمية في انكلترا ان يكونوا على اتصال وثيق بالواقع والحقيقة . وكان بينهم ايضاً اولئك الميالون للعرب عاطفياً ، والذين اقاموا صداقات شخصية وثيقة مع ملوك العرب وامرائهم وباشواتهم وشيوخهم . وبالاضافة الى هؤلاء ، كانت هناك فئة اخرى اعتقد افرادها بان الوعود التي قطعت لليهود قد استنفدت اغراضها ، وانها تجاوزت حدود العدالة والحق ، وان مصالح بريطانيا الاستراتيجية والتجارية مهددة اذا خسرت حسن نوايا العرب وصداقتهم .

وعزفت الدعاية الصهيونية ، على هذه الأوتار المتنوعة من الآراء ، مجموعة مختارة من الأغاني الموسيقية ، التي قصد في كل منها ان تتفق في أنغامها مع عواطف تلك الفئة المعنية التي تعزف لها ، لتنال استحسانها . وفي كل حجة من الحجج الدعائية ، كانت الصهيونية تضمن حقيقة موضوعية على الأقل ، تستطيع ان تقيم عليها بناء ضخماً ، من المنطق . وكان الاستعماريون والاشتراكيون على حد سواء ، على استعداد لقبول الحجة القائلة بأن على الجماهير العربية البسيطة ان ترحب بالهجرة اليهودية ، وانها تخطىء اذا عارضتها وقاومتها . فالاشتراكي كان يرى ان العربي يفيد من المعرفة والمهارة والحيوية التي أتى بها اليهودي الى البلاد . أما الاستعماري فكان يرى ان العربي لا يفكر الا بجيبه وانه يود ان يعيش دائماً تحت حكم ثابت مستقر وفعّال لينتفع منه . وكانت الدعاية الصهيونية تقول لأولئك الذين يؤمنون ان الشعب العربي بمجموعه يعارض معارضة عنيفة في الهجرة اليهودية ، ان من الخطأ السماح ببقاء أقلية يهودية في فلسطين تحت رحمة الاغلبية العربية المعادية لها ، او انها كانت تقول العكس ، وهو ان العرب لا يعارضون حقاً في هجرة اليهود بل يرحبون بها ، وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة واحدة ، وهي ان الهجرة يجب ان يسمح بها . وكانت الصهيونية تقول لاولئك الذين يرون ان المعارضة العربية هي من فعل جماعة صغيرة من المهيّجين من ذوي النوايا السيئة الذين يعملون

لحساب خصوم بريطانيا ، ان الصهيونية تتفق في اهدافها مع الشعب البريطاني في مقاومة هذه الاقلية المتعصبة التي لا تمثـل الشعب . واذا كان العرب هم الذين يبيعون اراضيهم الى اليهود ، فهذا يثبت انهم فاسدون ، وانهم لا يهتمون الا بالربح المادي ، وان المعارضة العربية والحالة هذه ناتجة عن دوافع غير شريفة من الناحية الخلقية بل ومحتقره ، وان من الواجب تبعاً لذلك عدم الاكتراث بها، اما اذا رفض العرب بيع اراضيهم الى اليهود ، فهذا دليل على انهم لا يتعاونون مع السياسة البريطانية ، وان من واجب الحكومة البريطانية ارغامهم على هـذا التعاون . واذا ساد الهدوء السكان العرب ، فهذا يعني ان كل شيء يسير على مـا يرام ، وان ليس ثمة ما يشكون منه من استمرار الهجرة اليهودية . امـا اذا اضطربوا وتظاهروا وثاروا ، فانهم يهددون سلامة البلاد ، ويحاولون تحطيم الغاية المشروعة للانتداب والتزاماته ، ويهددون سلامة المواصلات الامبراطورية . واذا هدأت الاضطرابات او الثورات بسرعة ، فهذا دليل على ان شعور النقمة ليس عميق الجذور والا لاستمرت الاضطرابات . امـا اذا مضت الثورة في طريقها ، فمن الخطأ الاذعان للقوة ، اذ ان هذا الاذعان يفسر على انه ترضية ، اما اذا توقفت الثورة أو اخمدت، ففي الوسع القول بأن الاضطرابات قد اخفقت بتلك الصلابة التي يحترمها العرب ، وان من الخطـأ الآن ، ومن غير الضروري ايضاً ، التقدم بتساهلات ، لأن هذا يشجع على ظهور طلبات جديـدة . واذا كان العرب عنيفين ، فهذا تعبير عن طبيعتهم المتوحشة وهم يستحقون تبعاً لذلك كل معاملة سيئة ، امـا اذا كانوا هادئين ولم يفعلوا شيئاً ، فهذا يظهر انهم لا مطامح لهم ويستحقون كل ما ينزل بهم .

وقد تذمر وايزمن بألم في كتابه « التجربة والخطأ » ، من « شعور العداء أو الحياد المتجمد الذي اظهره ممثلو بريطانيـا في المنطقة » في السنوات الأولى التي تلت الحرب الكونية الأولى . وقال ان اليهود لم يقوموا باخراج احد من العرب من أراضيهم ، ولم يكن هناك أي ازدحام في السكان ، ولم تكن هناك الا هجرة يهودية محدودة . ويمضي وايزمن فيقول ... « اذن لم اعتبرنا سلفاً ملعونين في

عيون الطبقة الرسمية الحاكمة ؟ ولماذا كان من القواعد الشائعة ، ان الموظفين الاداريين الذين يأتون الى البلاد ميالين الينا في البداية ، سرعان ما ينقلبون ضدنا » [1] .

ان السبب واضح كل الوضوح ، اذ هو يقوم في الخطط المسبقة التي كان يعرف بها كل رجل في الميدان ، والتي كانت اهداف اليهود الحقيقية وان كانوا لا يعلنون عنها ، او يسجلونها جهاراً ، أو يُعترف بوجودها بصورة رسمية . وكان الاداريون البريطانيون « ينقلبون » على الصهيونيين ، لأنهم عندما كانوا في الوطن ، لم يكونوا يرون من الصهيونية الا الوجه الطيب الذي تعرضه على الرأي العام البريطاني ، أما الآن فهم يرون في فلسطين نفسها ، ذلك الوجه الثاني من الصهيونية الذي ينظر باحتقار وعداء الى العرب .

وارى ان اترك الحديث هنا الى بريطاني كان من اشد المتحمسين للصهيونية وهو الكولونيل روبرت مانيرتزهاغن في كتابه « يوميات الشرق الاوسط » الذي نشر في عام ١٩٥٩ .

في الأول من آذار عام ١٩١٩ بعث الملك فيصل في باريس برسالة الى فيلكس فرانكفورتر الذي كان يمثل الوفد الصهيوني في مؤتمر الصلح . وقال الكولونيل مانيرتزهاغن « لقد وضع فيصل ولورنس ووايزمن وفرانكفوتر وانا مسودة هذا الكتاب » . وقد حملنا فيصل على القول بلسانه « نحن نشعر بان العرب واليهود اولاد عم من الناحية العنصرية ... وقد تمكنوا بمحض الصدفة السعيدة من اتخاذ الخطوة الأولى معاً نحو تحقيق اهدافهم القومية ... وانني اتطلع الى الامام كما يتطلع شعبي معي الى مستقبل نستطيع فيه ان نساعدكم كما تستطيعون فيه مساعدتنا ، وذلك حتى تتمكن البلاد التي نهتم بها معاً من استعادة مكانها بين مجموعة الشعوب المتحضرة في العالم » [2] .

هذا هو الوجه الطيب للصهيونية ، وبعد ثلاثة اسابيع تناول مانيرتزهاغن

---

١ - حايم ويزمن - التجربة والخطأ ، ١٩٤٩ .

٢ - الكولونيل مانيرتز هاغن - يوميات الشرق الاوسط ، ١٩٦٠ .

الغداء مع لويد جورج ثم كتب اليه رسالة قال فيها : « لقد وضع مؤتمر الصلح هذا بيضتين ، بيضة القومية اليهودية ، وبيضة القومية العربية ، وستفرخ هاتان البيضتان الى دجاجتين تتقاتلان؛ اولاهما دجاجة يهودية نابضة بالحياة والحيوية وذكية ومقدامة ، وثانيتهما عربية منحلة وبليدة ، وغير مؤثرة الا على اولئك الحمقى الذين يتأثرون برومانطيقية الصحراء وصمتها ... ومن الواجب ان يتطور الوطن القومي اليهودي هذا ان عاجلاً وان آجلاً الى دولة ذات سيادة . وقد فهمت ان بعض اعضاء حكومة جلالته يتصورون مثل هذا التطور الطبيعي . ولا ريب في ان القومية العربية ستنمو ايضاً الى دولة ذات سيادة من بلاد ما بين النهرين الى مراكش . وستصطدم الدولتان اليهودية والعربية . فالدولة اليهودية اذا نجحت برامج هجرتها ، يجب ان تتوسع ، وهذا التوسع لا يتم الا على حساب الدولة العربية التي ستبذل كل ما لديها من جهد لوقف نمو الدولة اليهودية وقوتها . وهذا يعني قيام الحرب وسفك الدماء . وموقف بريطانيا اليوم في الشرق الاوسط متفوق ومسيطر ، وستتحدى قوة القومية هذا الموقف . وليس في وسعنا ان نحتفظ بصداقة العرب واليهود معاً . واني اقترح ان ندافع عن الشعب الذي سيبرهن على انه صديق مخلص لنا وهو الشعب اليهودي . فهم مدينون لنا بالكثير ، والاعتراف بالجميل من خصائص هذا الشعب الملحوظة . وعلى الرغم من اننا عملنا الكثير للعرب ، الا انهم لا يعرفون شيئاً من معاني العرفان للجميل . يضاف الى هذا ان صداقتهم ستكون غرماً علينا بينما تكون صداقة اليهود غنماً لنا » . (وكان اقتراح الكولونيل ان تستولي الحكومة البريطانية على صحراء سيناء وان تجعل منها دولة عازلة بين مصر وفلسطين ، بينما تكون فلسطين بموافقة اليهود من الناحية الاستراتيجية خير ميناء لبريطانيا في شرق المتوسط) .

وحضر الكولونيل مانيرتزهاغن في عام ١٩٣٧ مأدبة صهيونية . وتحدث هيربرت صمويل في هذه المأدبة « فأكد الحاجة الى تعاون الصهيونيين مع العرب ؛ وقال ان اليهود لا يستطيعون ان يحققوا نجاحاً في فلسطين الا اذا ضمنوا العرب

الى جانبهم » . وهنا يقول مانيرتزهاغن ان وايزمن غمز له بعينه ؛ اذ كيف يستطيع المرء ان يتوقع تعاوناً بين ابن عرس والارنب .

وكتب مانيرتزهاغن في عام ١٩٤٢ رسالة الى صحيفة التايمس ايد فيها خلق قوة يهودية مسلحة داخل الجيش البريطاني ، واشار الى الاعتراض القائل بانه «عند انتهاء الحرب فإن وجود الجيش اليهودي قد يؤدي الى اغتصاب فلسطين». وقال ان هذا الاعتراض غير صحيح . ثم مضى يقول ... « وكل من يعرف شيئاً عن اليهود أو الصهيونية يعرف ان مثل هذه القوة ليست سلاحاً يهودياً. وهل هناك شخص عاقل يستطيع ان يصدق ان قوة يهودية ستغامر في الاشتباك في نضال مسلح مع القوة الهائلة التي تستطيع الأمم المتحالفة ان تفرضها ؟ وهل يبلغ السخف باليهود الى الحد الذي يجعلهم يعرضون مركزهم القوي في فلسطين للخطر ، بإغضاب بريطانيا والولايات المتحدة؟ ان الفكرة مثيرة للضحك حقاً».

ولكن هذه الفكرة لم تبد مضحكة قبل عامين . ففي تشرين الثاني عام ١٩٣٩ تناول الكولونيل طعام الغداء مع وايزمن . وقال في كتابه : « لا ريب في ان وايزمن يبذل كل ما في وسعه لمساعدتنا في الحرب . وقد عمل الكثير حتى الآن ، كما اكد لي بأنه سيعمل الكثير في المستقبل ايضاً . وهو يريد ان تشعر حكومة جلالته ببعض الالتزام تجاه اليهود ، ولذا فهو يشجع اليهود على التطوع في الجيش البريطاني ، ليكون هناك بعض الفضل الى جانبهم عندما يتحقق السلام . ويأمل وايزمن عن هذا الطريق في احداث رأي عام مؤيد للصهيونية . وهو يعيش الآن على حلم القبض على ناصية الحكم في فلسطين في اللحظة المواتية عندما تصبح بريطانيا بل اوروبا باسرها تعبة من الحروب وغير راغبة في التدخل . وبالطبع انني اؤيده في مشروعه هذا كل التأييد . فاذا تمكن اليهود من الخروج في نهاية هذه الحرب ولديهم جيش عامل لا يقل عن نصف مليون جندي ، فان ضغطهم يصبح اقوى من ان يقاوم ... أما اذا كان وايزمن لا يفكر الا بالقرصنة ، فسيجد نفسه في مركز صعب ودقيق الا اذ تلقى عوناً من تركيا . وقد قلت له بأن عليه ان يشجع تركيا على الضغط جنوباً والزحف إلى

سوريا ، واقامة حدود مشتركة بين اسرائيل وتركيا ، تكون عوناً لليهود ، وستنهار المقاومة العربية ، اذا وجدت هذه الدولة الاسلامية القوميـــة تساعد اليهود . ويعرف الاتراك طريقة التعامل مع العرب ويستطيعون ان يبقوا عليهم في المكان الذي يريدونـــه . وسألني وايزمن رأيي في امكان ان تصبح فلسطين في يوم ما جزءاً في اتحاد عربي ائتلافي (فيدرالي) فأعربت له عن عدم ايماني بأي تعاون مع العرب ، اذ انهم ..... (وهنا يطعن المؤلف مانيرتز هاغن بالعرب) . وليس في وسع أي اتحاد عربي ائتلافي ان يتغلب على أزمـة الادارة العملية ، فاليهود والعرب لن يمتزجا ولن يستطيعا الامتزاج ابداً . »

وعاد مانيرتز هاغن إلى تناول الغداء مع وايزمن في تشرين الثاني عام ١٩٤٠ وكتب يقول ... « ذكر لي وايزمن انه تلقى موافقــة مجلس الوزراء الخطية على تشكيل الجيش اليهـــودي ، على ان يتم حشد المتطوعين له من كندا وجنـوب افريقيا وفلسطين وبريطانيا ، وان يقوم بالخدمة العسكرية في الشرق الأوسط . وتقرر ان تكون هذه القوة فريقاً مختاراً من اليهود . وكان اهتمام وايزمن منصباً على اختيار قائد لهذا الجيش الذي ستكون قوته الأولية بقوة فرقه ... ولهـذا الجيش اليهودي اهمية سياسية . ويدرك تشرشل ما تنطوي عليه هذه الاهمية من مغاز. وسيجد هذا الجيش نفسه في نهاية الحرب على مقربة منفلسطين،وهذا يعني بالطبع قيام الدولة اليهودية . ولا ريب في ان وايزمن يعمل ، وقـــد وضع هذا الهدف أمامه . ولا ريب في انه نفس الحلم الذي كان يساوره قبـل عشرين عاماً ، عندما اراد ان يصبح في فلسطين نصف مليون يهودي قادرين على الزحف على سوريا وتسوية مشكلة الشرق الأوسط مرة والى الأبد » .

وكتب بعد سنة يقول : « كان وايزمن يحمل النظرية القائلة بان هناك ثلاثـة شعوب نشيطة وعاقلة في العالم ، وهي الشعب الروسي والالمان واليهود . فهـذه الشعوب الثلاثة متحدة في داخلها ، وتعرف ما تريد ، وهي على استعداد للموت كفاحاً عن مبدئها . اما نحن فقد ترهلنا بفعل الديموقراطية ، وغدونا لانعرف ما نفعله ، وقد الفنا الرخاء ، فأصبحنا ضعفاء وفاسدين ، ولكننا نصلح اوضاعنـا

بسرعة ، وبعد سنة او سنتين من حمام الدم ، قد تستقيم امورنا » .

وقد اقتبست كل هذه الفقرات من كتاب مانيرتز هاغن ، لأني لا أعرف كتاباً آخر يسجل بوضوح وجلاء بقلم واحد وجهي الصهيونية . وكان العرب والموظفون البريطانيون في الشرق الأوسط يرون على السواء ، ذلك الجانب من الصهيونية الذي تحاول جهدها اخفاءه عن الرأي العام البريطاني . ولم يكن لدى البريطانيين شك في ان هيربرت صمويل عندما يتحدث عن الحاجة الى التعاون مع العرب ، ويهتف بان اليهود لا يستطيعون النجاح في فلسطين الا اذا ساروا مع العرب جنباً الى جنب ، فهو مخلص كل الاخلاص . ولكنهم في الوقت نفسه ، يعرفون أيضاً ان غيره من الصهيونيين في الوقت الذي يعرضون فيه وجه الصهيونية الطيب الى الرأي العام الغربي ، كانوا لا يكتمون سراً بعضهم على بعض عندما يؤكدون ان ابن عرس الصهيوني سيخرج الارنب العربي من جحره ، على ان يشرف المراقب البريطاني نفسه على عملية الاخراج محاولاً ان تتم بأقصى ما يمكن من العدل ؛ وقد بدأ الرأي العام البريطاني يثقف نفسه على الاعتقاد ، بانه عندما يحين الوقت ، فان هذا المصير ، هو المصير الطبيعي والمناسب لجميع الارانب .

وقد سمعنا في السنوات الأخيرة موجة طاغية من السخط على « خرق مصر المزعوم لقداسة المعاهدات » ، وذلك على لسان رئيس وزراء بريطانيا . ولعل انتوني ايدن لم ينس ان وعد بلفور كان معاهدة ايضاً لها مثل هذه القداسة ، وكان يضمن حقوق العرب المدنية والدينية في فلسطين ، وقد يصح القول ، كما يقول ما نيرتز هاغن مثلاً ، ان مثل هذا الوعد ، كان يجب ان لا يصدر مطلقاً ، وان واجبنا كان يحتم علينا تأييد الصهيونية تأييداً صريحاً منذ البداية . لكن هذا الاتفاق قد وقع ، وقد خرق رسمياً وجهاراً ، والسبب في خرقه هو وجود عدد كبير من المؤيدين المسيحيين واليهود على حد سواء للصهيونية المحاربة التي كانت مصممة على ان هذا الاتفاق يجب ان يحطم ، وكان مانيرتزهاغن على حق عندما قال انه لم يكن في وسعنا ان نؤيد العرب واليهود في آن واحد . ولكنه كان مخطئاً في قوله : اننا اذا أيدنا اليهود فإن قوتهم العسكرية ، اذا ضمت الى

قوتنا تستطيع ان تفرض ارادتها على العرب . وقد استغرق ارغام الصهيونيين ومؤيديهم ، الحكومة البريطانية على خرق اتفاقها ، سنوات طويلة ، ولم يقع الخرق النهائي الا في عام ١٩٤٨ . وانقضت ثماني سنوات كما سترى فيما بعد ، قبل ان تقوم حكومة بريطانية فعلا بالاشتراك مع جيش اسرائيل في محاولة لفرض القوة على الوطن العربي ، وهو ما كان بعض الرجال يخططون له منذ عهد بعيد ، ولكنه مني بالفشل الذريع .

احداث الحرب الحاسمة

عندما قدم مالكولم مكدونالد ، وزير المستعمرات ، كتابه الابيض في ايار عام ١٩٣٩ [١] ، كان الاعياء قـد لحق بكل من في فلسطين من جراء ثلاث سنوات طويلة من ثورة اشبه ما تكون بالحرب . وكانت هناك لمحة خاطفـة من الأمل عند العرب . فقد حدد الكتاب الأبيض نسبة محدودة من الهجرة اليهودية لفترة من السنوات المقبلة ، على ان تصبح الهجرة بعدها رهن موافقـة العرب . وقد اقر البرلمان ، الكتاب الابيض ، ولكنه تعرض للدق العنيف ابان المناقشة ، فقد كان ثقل الرأي العام المحافظ بزعامة تشرشل ، الذي لم يكن في الحكم بعد ، متجهاً ضد هذا الكتاب . وكان هذا الرأي يقول ان المقاومة العربية قـد تم سحقها ، فلماذا الاستسلام في ساعة النصر ؟ (وهـكذا لاحظ العرب ان رأي هؤلاء ينحصر في ثلاث نقاط : اذا كان العرب هادئين ، فلا حاجة لبريطانيـا للخضوع لمطالبهم ، واذا ثاروا ، فيجب ان يعرفوا ان العنف لا يجديهم نفعـاً ، واذا ما سحقت ثورتهم ، فمن الواجب عدم ترضيتـهم) . وعارض نواب العمال أيضاً في تحديد الهجرة اليهـودية ، فهم يرون ان هـذه الهجرة نافعة للجماهير العربية ، وسمع احد النواب العمال يقول ... « هـذه هي المرة الأولى التي لا يكون فيها الاستيطان الاستعماري مسيئاً للسكان الاصليين » [٢] .

---

١ - وثائق وزارة المستعمرات ، ٥٨٥٤ .

٢ - هانسارد - المجلد ٣٤٧ - العمود ١٩٩٥ .

وكانت الحرب الكونية الثانية قد داهمتنا في هذا الوقت . وكانت الحكومة البريطانية بالطبع مصرة على الحفاظ على طرق المواصلات الحيوية ، وكان الصهيونيون عازمين على تحقيق الدولة اليهودية ، أما العرب فكانوا مصرين على وقف الصهيونيين وطرد السيطرة البريطانية . وكانت المشكلة الفلسطينية قد حطمت المصالح المشتركة في القضايا الخارجية التي تتوقف عليها المعاهدات العربية - البريطانية ، والتي تصل حد التعاون العسكري الصريح . فالصهيونية بالنسبة الى العرب من قضايا السياسة الخارجية الرئيسية . ويمثل الصهيونيون حركة قومية معادية تستهدف اغتصاب ارض عربية واخراج العرب منها ليحل اليهود محلهم . وكانت بريطانيا هي التي اسهمت في خلق هذه الحركة ، وكان العرب يرون انها تستخدم تفوقها العسكري لإضفاء حمايتها على الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وتستعمل السلطة السياسية القائمة على القوة العسكرية الثابتة التي تخولها اياها المعاهدات ، لارغام الدول العربية على شد الحبل . وأخذ عدد العرب الذين يؤمنون بان المعاهدات لم تعد ادوات للتحالف ضد عدو مشترك ، بل وسائل للاضطهاد توجه ضد العرب انفسهم لجعل الشرق الأوسط منطقة أمينة للاستعمار الصهيوني ، في التزايد والنمو . وهكذا تشابكت المصالح القومية الثلاث للعرب والبريطان والصهيونيين في صراع يتناول الاهداف ووسائل العمل ، والغايات والسبل . والى هذا المثلث من القوى المتصارعة دخل عنصر جديد هو دول المحور .

وكانت نظرية المعاهدات والانتدابات تقضي بأن يكون البريطان والعرب واليهود في صف واحد متكاتفين ضد العدو المشترك وهو المحور .

لكن اشتداد التوتر العربي - اليهودي الذي بلغ نقطة الانقطاع في اواسط حقبة الثلاثين غيرّ الصورة تمام التغير فجعل الصراع العربي اليهودي يتقاطع افقياً مع العمليات البريطانية ضد دول المحور . ومع اقتراب الانفجار العالمي تبدل الوضع من جديد ، فقد انقسم العرب من الناحية السياسية ، اذ اتجهت عواطف بعضهم نحو دول المحور ، بينما ظل البعض الآخر على صداقتهم لبريطانيا

وان كانوا غير قادرين على اظهار هذه العواطف ، والاسفار عن عدائهم للمحور ، اذ ان مشكلة فلسطين ظلت تلعب الدور الحاسم .

واستغلت الدعاية الصهيونية في انكلترا وامريكا وغيرهما ، بالطبع ، الى اقصى حدود الاستغلال ، اعتماد المتطرفين العرب على مساعدة دول المحور ، واسفرت هذه الدعاية عن الحط من قيمة القضية العربية لأن الحكومة البريطانية لاتستطيع ان تذعن لعملاء المحور ، وأدت هذه الدعاية أيضاً الى تجزئة العرب انفسهم ، وكانت هذه التجزئة هي الهدف الرئيسي للسياسة الصهيونية دائماً . وأخذ المعتدلون العرب يتهمون المتطرفين بكسب عداء الدولة الوحيدة التي تستطيع كبح جماح الاستعمار الصهيوني وهي بريطانيا . أما المتطرفون فأخذوا يتهمون المعتدلين بالخيانة والتعاون مع الدولة الوحيدة التي برهنت باعمالها على انها لا تريد ان تضع حداً للاستعمار الصهيوني ، وهي بريطانيا . ووقعت عدة حوادث اغتيال بين الفريقين .

وكانت هناك حالة من التوازن غير المستقر، التي لم يكن من المقدر لها ان تعمر طويلاً ، ووقعت ابان الحرب التي لم تكن الا مجرد مقدمة للصراع المثلث ، اربعة أحداث حاسمة ، كان كل حدث منها نتيجة منطقية « لنظام المعركة السياسية » التي حاولت ايضاحها قبل قليل . فقد وقعت ثورة رشيد عالي في العراق في عام ١٩٤١ ، وارغام فاروق في عام ١٩٤٢ ، وقرار بلتيمور الصهيوني بانشاء دولة يهودية في فلسطين كلها في عام ١٩٤٢ ، وخلق الجامعة العربية في عام ١٩٤٤ .

ففي العراق في عام ١٩٤١ ، حاول رشيد عالي الوقوف الى جانب الألمان ، وتبدل النظام الملكي مؤقتاً في البلاد ، وتدخلت القوات البريطانية وحاربت العراق ، وابعدت رشيد عالي واعادت الملكية الى عهدها السابق مع حكومة موالية لبريطانيا يتزعمها نوري السعيد . ولو شئنا التعبير عن هذا التطور وفقاً للتحليل السياسي – العسكري ، لقلنا ان الاساس السياسي للمعاهدة العراقية – البريطانية قد انهار مما اقتضى استخدام الحقوق العسكرية البريطانية التي تخولها المعاهدة ، وان وضعاً ذا ضرورة مطلقة قد نشأ مما اقتضى استخدام الوسائل

المطلقة التي نصت عليها بنود المعاهدة .

وقد أدى التدخل العسكري البريطاني الى انقاذ الوضع والحفاظ على العراق كحليف لبريطانيا ، وأعاد العهد الملكي السابق الى سلطانه ، ووضع حكومة نوري السعيد الموالية لبريطانيا في موضع السلطان . ومع ذلك فقد كان ثمن هـذا التدخل غالياً ، بل اغلى مما يتصوره الجميع في حينه ، اذ وضع في سجل حسابات نوري السعيد السياسية ، بنـداً في جانب « الديون » كان قتالاً له في نظر الشعب العـراقي .

وقد نجم هذا الاضطراب الحاسم في العراق في ذلك الوقت في عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ عن قضية فلسطين نفسها ، وعن غضب المعارضة العراقية التي كانت اذهانها قد تفتحت على الدعاية المحورية . وكان نوري السعيد قد توسل الى رشيد عالي في رسالة نشرها فيما بعد ، ان يحافظ على المعاهدة العراقية – البريطانية . وكان نوري السعيد رغم كل ما حدث في فلسطين ، لا يزال يؤمن بحسن نية بريطانيا . وقرر ان يعقد صفقة . فبعث الى الحكومة البريطانية برسالة ، يتعهد فيها لها بأنها اذا حافظت بصدق وأمانة على الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ ، وهو على كل حال بيان بريطاني رسمي عن سياسة الحكومة البريطانية _ فإنه على استعداد لحمل العراق على الوقوف باخلاص الى جانب بريطانيا ضد دول المحور . ولكن بريطانيا رفضت رجاءه . وهنا انقسمت الحكومة العراقية على نفسها ، ووقف رشيد عالي ، يلعب دوراً مناهضاً لبريطانيا وللصهيونية .

أما الحدث الحاسم الثاني فقد وقع في مصر عام ١٩٤٢ . اذ احاطت الدبابات البريطانية بقصر الملك السابق فاروق ، وابلغته السلطات البريطانية انه ما لم يذعن لمطالب بريطانيا تجاه تأليف الحكومة المصرية ، فإنه سيتحمل نتائج عناده . وعلى أساس التعابير التحليلية ، كان الأساس السياسي للمعاهدة المصرية – البريطانية قد انهار ، مما ادى الى تطبيق الحقوق العسكرية المحفوظة في المعاهدة . وكان وضع ذو ضرورة مطلقة قد نشأ ، مما اقتضى استخدام الوسائل المطلقة التي نصت عليها بنود المعاهدة .

وقد ترك هذا الحادث اثراً عميقاً في عواطف المصريين ونفوسهم . وكان جمال عبد الناصر في ذلك الحين شاباً يافعاً . وقد كتب الى صديق له وفقاً لما جاء في كتابه « فلسفة الثورة » (١) يقول : « فماذا يجب علينا ان نفعل الآن وقد حدث ما حدث ، وقبلناه ونحن صاغرون » .

وقد ترك هذان الحادثان ، وقد وقع احدهما في العراق والثاني في مصر ، اثراً عميقاً ملحوظاً ، بانت اهميته في المستقبل . أما بريطانيا فقد رأت في ذلك الحين ان مصر والعراق حليفان لبريطانيا في حربها ضد المحور . وكل ما حدث هو ان القوات العسكرية البريطانية قد أيدت المخلصين من انصارها ضد الاقليات الخائنة لمصلحة العرب كما هو لمصلحة بريطانيا نفسها . أما في مصر والعراق ، فقد كانت النظرة مختلفة كل الاختلاف . فقد رأى العرب في الحرب الكونية الثانية صراعاً بين استعمارين ، يتطاحنان على جائزة استعمارية ثمينة ، هي بلادهم هم ومواردهم . وهذه الحرب لم يكونوا هم الذين اضرموها . ولا شأن لهم بها ، وقد انقسم العرب الى معسكرين ، كان في وسع كل منهما ان يزعم لنفسه دوافع وطنية صادقة . والخلاف على الوسائل لا على الغايات ، فالفريقان يريدان الاستقلال عن بريطانيا ووقف الصهيونية عن التوسع . وقد خيل لاحدهما ان خير طريقة للوصول الى هذه الاهداف ، التعاون مع بريطانيا ، بينما خيل للفريق الثاني أن التعاون مع المحور هو السبيل النافع المجدي .

وكانت لهذين الحادثين اهمية خاصة في كل من مصر والعراق ، في حياة رجلين قدر لهما ان يشتبكا في صراع عنيف في المستقبل وهما نوري السعيد في العراق ، وجمال عبد الناصر في مصر .ولم يكن الأخير قد اصبح معروفاً حتى ذلك الحين. وادى الحادثان الى اضعاف نوري السعيد من جهة ، وتقوية جمال عبد الناصر من الناحية الأخرى . فقد فشل نوري السعيد الموالي لبريطانيا في اهم قضية سياسية وهي قضية فلسطين .ولم تعد الملكية ونوري السعيد الى الحكم الا بفضل التدخل العسكري البريطاني عن طريق ما اعتبر بحق حرباً اهلية . ففي العراق ، طرد

---

١ - جمال عبد الناصر - فلسفة الثورة ، ١٩٥٥ .

رجال كانوا ينقمون على الملكية اعتمادها على بريطانيا ، هذه الملكية التي صنعها البريطانيون ، ورأوا لأول مرة الفرصة متاحة لهم للتخلص من السيطرة الاجنبية . ولكن هذه الملكية قد عادت الى الحكم ، بقوة البريطانيين من جديد ولم يعد في وسعها منذ ذلك الحين ان تعتمد على ولاء قسم كبير من ابناء الشعب العراقي .

أما بالنسبة الى عبد الناصر ، فالقضية مختلفة . ولقد كان الاذلال الذي ارتكبته بريطانيا ، حافزاً . فمنذ حقبات عدة ، كانت السياسة البريطانية تدار على أساس ان العرب في مصر او في خارجها ،لا يستجيبون لمشاعر الولاء الرفيعة التي هي تراث مجتمعنا المقبول ، وانهم لا يفكرون الا بجيوبهم ،وان كل ما يهمهم هو ما نشرته دعاية الدكتور وايزمن البارعة.وهو الاعتبارات الاقتصادية ، وان العرب يفرون فزعين اذا ما واجهتهم « بطنة » شديدة . وكان الوقت يقترب ، ليظهر عبد الناصر ، وليقيم الدليل على بطلان كل هذه الاعتقادات المتأصلة ، التي كان البريطانيون قد تمسكوا بها لانها تبرر وجود هذا الجهاز من السيطرة ، الذي لا يعترف به رسمياً بل يكذب وجوده وينفى ، والتي عملت الدعاية الصهيونية على طبعها في اذهان البريطانيين . وكان هناك جيل جديد ، قد بدأ يطلع في في مصر وغيرها من بلاد العرب ، وكان افراد هذا الجيل من طراز مختلف من الرجال .

وظل رجال نوري السعيد يحكمون العراق حتى نهاية عهد العلاقة التعاهدية بين العراق وبريطانيا . ولعل من المهم ان يقال ان نوري السعيد كان رجلاً مهماً من بدايته حتى نهايته ، وان علاقة بريطانيا بالعراق قد زالت بزواله . وكان لا يزال في مطلع الحقبة الرابعة من عمره عندما خلقت دولة العراق الجديدة في نهاية الحرب الكونية الأولى ، وكان قد نضج في الجو السياسي والاجتماعي للدولة العثمانية . وعندما جرى الاستفتاء على ملكية فيصل الأول اظهر هو ، ورجال الجيل السابق له ولاء للعهد الجديد . اما الجيل الجديد الذي كان يظهر في تلك الأيام ، والذي لم يكن قد بلغ بعد مرحلة الوعيية السياسية ، فقد نشأ في ظل

نظام لم تكن له يد في اختياره . واوفد عدد كبير من ابنــــاء هذا الجيل الى الخارج ولا سيا الى انكلترا ، للدراسة في المعاهد والجامعات والكليات العسكرية. وهنـــاك اختلطوا بالشبان الانكليز من اقرانهم . وكانوا يقفون معهم موقف الاستعداد عندما يعزف « السلام الملكي » ، ويصغون معهم الى الناس وهم ينشدون نشيداً يقول « ان البريطانيين لن يكونوا قط من العبيد » . فهل تستطيع دولة اجنبية ان تقيم قاعدة عسكرية لها في هايد بارك ، لتذكر ملوك بريطانيا بأن على سياسة حكوماتهم الخارجية ان تظل دائما ضمن الخطوط الـتي توضع لها من الخارج ؟ وهل تستطيع الدبابات الاجنبية ان تحيط بقصر بكنغهام لتفرض عليه الاستماع الى نصائح سياسية اجنبية ؟ وهل يستطيع احد ان يتخيل الظروف التي يمكن لهذه القوات الأجنبية فيها ان تحارب ضد أية حكومة بريطانية على ارض بريطانية ؟ ان الانسان لا يكاد يحلم بوقوع اشياء كهذه هنا . ولكنها ليست مجرد احلام في مصر والعراق ، وانما هي احداث وقعت بالفعل ، وعلى ايــدي نفس اولئك البريطانيين الذين يتعلم ابناؤهم ، ان أي رجل شريف لا يمكن ان يقبل بأمور كهذه .

وكان هؤلاء الشبان العرب ، وقد ازدادت وعيتهم السياسية حدة بهذه الازدواجية في المقاييس ، ينجذبون في الغالب الى اليسار السياسي في هــذه البلاد ، لا لأن الاشتراكية تظهر عداءها الصريح للاستعمارية فحسب ، بـل لأن اليسار يقف ايضاً ضد النظريات المحافظة الرجعية وضد النظام نصف الاقطاعي الذي يسود البلاد العربية والذي يقرر اختيار حكوماتها . وقد شعروا ، وان لم يكونوا قد فهموا تماماً ، التأثيرات الداخلية لهذا الجهاز من النفوذ البريطاني الذي شرحته في الفصل الأول . وكانوا عندما يعودون الى وطنهم يقعون حتماً تحت تأثير الاحاديث السياسية التى تصدر عن تلك الفئة من الساسة المخضرمين ، الذين يتحمسون في المطالبة بالاستقلال ، والذين يشعرون بالمرارة والألم تـجاه ما هو حادث في فلسطين ، والذين يستحثون بلادهم على ضرورة شق طريقها في هــذا العالم الآلي المستصنع ، الذي تعلم هؤلاء الشبان فنونه وعلومه ومهنه في الخـارج

وحملوها معهم الى وطنهم .

وفي اواسط الحرب الكونية الثانية ، كانت طلائع هـذا الجيل الجديد ، المثقف ثقافة غربية ، والمتطرف في افكاره ، قد وصلت في سنها الى ما بين الثلاثين والاربعين ، ووراءهم حشد كبير من الشباب الجديد الطالع . وكان الكبار من افراد هذا الجيل وقد تجزأوا فكرياً عن آبائهم ، قد بلغوا السن التي تتيح لهم بحكم مرور الزمن الوصول الى مراكز الحكم والسلطان .

وفي هذه المرحلة الدقيقة من التطور الاجتماعي والفكري في الدول العربية وقعت احداث العراق ومصر في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، فأقامت الدليل بشكل لا يتطرق اليه الشك ، على ان حقوق بريطانيا التعاهدية ، مهما كانت النوايا الاصلية فيها ، قد تستخدم ، للمحافظة عن طريق القوة العسكرية على وضع السلطة الفعالة . وهو وضع كانت الصهيونية بوجودها قد ابعدته من ميدان القبول السياسي الاختياري . وقد استخدمت هذه الحقوق بالفعل في العراق ومصر . وقام الدليل . فماذا يفعلون الآن بعد ان استكانوا واذعنوا ركوعاً على ركبهم ؟ ولكن أية ركب هذه ؟ انها ليست ركب هذا الجيل الجديد من الشبان . فهم لم يصلوا الى الحكم بعد . وانما هي ركب ملوكهم ورؤساء وزاراتهم الذين يعتمدون على تأييد بريطانيا والذين لا يستطيعون البقاء بدونها . أما الشبان فهم غير ملتزمين بشيء ، ولم يسبق لهم ان التزموا بشيء ، وسيحين وقتهم . وليس من الصعب ان نتابع الافكار التي كانت تجول في خواطر افراد هذا الجيل الجديد .

ووقع الحادث الحاسم الثالث اثناء الحرب الكونية الثانية في عام ١٩٤٢ عندما انعقد المؤتمر الصهيوني في فندق بلتيمور في نيويورك واتخذ قراراً اقترحه بن غوريون يحث على « فتح ابواب فلسطين وعلى ان تتسلم الوكالة اليهودية قضية الاشراف على الهجرة الى فلسطين ، وان تعطى لها السلطة اللازمة لبناء البلاد بما في ذلك تطوير اراضيها غير المزروعة وغير المأهولة ، وان تقام في فلسطين دولة يهودية تندمج في كيان العالم الديموقراطي الجديد » . وكان وراء هذا القرار اكثر

من مجرد الظواهر ، وان كانت هذه الظواهر كافية لتقلب المقاومة العربية ضد البريطانيين والصهيونيين على حد سواء . فحتى هذا الوقت ، كان الصهيونيون يخفون حقيقة مقاصدهم في استعمار فلسطين كلها . وكانت الحكومات البريطانية المتعاقبة تطمئن العرب دائماً بأنها لن تسمح بذلك ، وان هذا الاستعمار ليس جزءاً من نواياها او مخططها . أما الآن فقد اسفر الصهيونيون عن وجوههم .

وقد ابرز القرار ايضاً تحولاً اساسياً في الخطط الصهيونية الاستراتيجية شرحه الآن تيلور في كتابه « مقدمة الى اسرائيل » . وقد اقنع تقرير اللجنة الملكية لعام ١٩٣٦ والكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ الصهيونيين بأن الحكومات البريطانية والرأي العام البريطاني لا يمكن ان يدفعا الى الامام مسافة اخرى لتحقيق الهدف الصهيوني الثابت ، الذي لم يطرأ عليه أي تغير منذ وضعه هرتزل . وقرروا تبعاً لذلك تركيز ضغطهم في المستقبل على الامريكيين والحكومة الامريكية. وهكذا نقلوا مقر قيادتهم العاملة من لندن الى نيويورك .

أما الحادث الحاسم الرابع في سنوات الحرب ، فقد تمثل في رد فعل العرب على الخطط الصهيونية الجديدة والمتطرفة وذلك بخلق الجامعة العربية . واعلن العرب عطفهم على اليهود الذين تألموا في اوروبا ولكنهم ميزوا — كما يميزون دائماً — بين مشاكل اللاجئين اليهود من ناحية ، والصهيونية السياسية من الناحية الاخرى . وهذا التمييز تقليدي بالنسبة الى العرب . فاليهودية كدين محترمة عند العرب الذين يظهرون نحوها كل تسامح كما يظهره الاسلام تجاهها. وعلى الرغم من الدعايات الصهيونية فليس هناك شعور بالعداء لليهود في البلاد العربية . ولكن العرب لا يستطيعون ان يتسامحوا مع الصهيونية كحركة سياسية قومية شوفينية، تستهدف تحويل ارض عربية يسكنها العرب الى ارض يهودية يحتلها اليهود . ولم يكن في وسع أي عربي ان يقبل بهذه الحركة ، كما ان بريطانيا لم تقبل بالعنصرية الفاشية والنازية التي ارادت مكاسب اقليمية على حسابها .

ومن العدل ان يقال ، انه مع دنو الحرب من نهايتها . أخذ تصميم كل من الفرقاء الثلاثة يشتد ويتصلب ، واخذ كل منهم يضيق هدفه الى الغاية الرئيسية

المباشرة . وكان الفرقاء الثلاثة حتى نشوب الحرب الكونية الثانية يريدون تحقيق اهدافهم بطريق ودي مع الفريقين الثانيين أو بطريق الحلول الوسط على الأقل . أما الآن وبعد قرار بلتيمور ، ظهر ان الصهيونيين يريدون تحقيق هدفهم دون اعتبار ما يفعله او يفكر به الفريقان الآخران . وبدا ان البريطانيين يريدون الحفاظ على اشرافهم العسكري على طرق مواصلاتهم مهما حدث في فلسطين ومهما فعل العرب او فكروا بفعله ، وان العرب – او على الأقل افراد الجماعات المتزايدة من الشباب الذين يقفون في المعارضة والذين لا يشعرون بأي التزام تجاه بريطانيا – يريدون الحصول على الاستقلال ومقاومة الصهيونية مهما حدث .

دولة اسرائيل !!

تمكن الصهيونيون في السنوات الأولى التي تلت الحرب من تعبئة قوات امريكية كبيرة تؤيدهم ، حتى بات النفوذ البريطاني ليس بالشيء المهم بالنسبة اليهم . ولم يعودوا يعتمدون ، كما كانوا يفعلون في السابق ، على قدرتهم على التحكم في قرارات الحكومات البريطانية . وقد مضى قرار بلتيمور الذي يطالب بكل فلسطين ، الى ابعد بكثير مما ايدته اية حكومة بريطانية او كان بوسعها ان تؤيده ، والى مدى انأى من أي تفسير ممكن لوعد بلفور او صك الانتداب . وكان الشعار الصهيوني اثناء الحرب « القتال في الحرب وكأن الكتاب الأبيض غير موجود ، وقتال الكتاب الأبيض وكأن الحرب غير موجودة » . [1] ويعني هذا الشعار محاربة الألمان لإخراج اليهود من اوروبا ومحاربة البريطانيين والعرب لإدخال هؤلاء اليهود الى فلسطين . وقد انتهت الحرب ضد الألمان . وتحتم ان تبدأ الآن الحرب لتحطيم القيود التي فرضتها السياسة البريطانية ووعد بلفور . والفوز بجميع اراضي اسرائيل .

ولم تعد هناك اية موافقة سياسية على وجود البريطانيين في فلسطين لا من العرب ولا من اليهود . ولم يعد هناك الا مركز بريطاني قانوني يستند الى استخدام نهائي للقوة العسكرية ضد شعب مصمم ومتعصب ، له قواته الشبيهة

١ – جورج كيرك – عرض للشؤون الدولية ١٩٣٩ – ١٩٤٦ – الشرق الاوسط في الحرب – ١٩٥٢ .

بالعسكرية ، وقـد درب تدريباً كاملاً على ذلك النـوع من حرب العصابات والارهاب ، الذي لا تتقن الجيوش الغربية اخضاعه واخماده .

أما من الناحية العربية فان ظهور الدليل على تصميم الصهيونية وقوتها ، مع عجز بريطانيا الظاهر عن مقاومتها ، وثقل النفوذ الصهيوني البادي من امريكا ، قد اضعفت كلها الزعماء العرب الذين كانوا قد التزموا بالتعاون مع البريطانيين ، وقوّت من الناحية الاخرى اولئك الذين لا يرون املاً في حمـاية انفسهم من الاستعمارية الصهيونية المحاربة ، الا بالاعتماد على قوتهم هم . وأخـذت عواطف التحالف والصداقة التي كان يفترض في المعاهدات ان تعبر عنها ، تتحول الآن في الشرق الاوسط العربي الى عداء ومرارة . وأخذت السياسة البريطـانية في فلسطين وفي كل مكان آخر ، تعتمد بشكل ملحوظ على السلطة العسكرية الخفية ، التي غدت تمارس تأثيرها مباشرة في فلسطين وبصورة غير مباشرة في دولتي العراق ومصر اللتين تربطهما بها المعاهدات .

وأخذ تصميم بريطانيـا على الاحتفاظ بالشرق الاوسط ، يتصلب ايضـاً بسبب المخاوف المتزايدة من هبوط الشبح الروسي المخيف من الشمال . وكان من المهم اليوم اكثر من أي وقت مضى ، ضمان سلامة الاشراف العسكري الصحيح على طرق مواصلات الشرق الاوسط ، التي هي شريان حياتنا . واذا كان السخط السياسي العربي بسبب فلسطين سيحمل العرب على الاستماع الى الروس والشيوعيين ، فان السيطرة العسكرية ، ستغدو اكثر ضرورة . واذا كان الغضب العربي على الاستيطان الصهيوني ، سيقودهم الى الحديث عن القذف باليهود الى البحر ، فان الحماية العسكرية القوية تغدو امراً لا مناص منه . ولم يعد هناك مجال للهجوم والانقضاض . اذ لو لم تكن هناك معاهدات ، وحقوق قانونية ، وقواعد عسكرية لفرض هذه الحقوق في الاشهر المبكرة من الحرب ، عندمـا تمكن النازيون والفاشيون من تحويل الكثيرين من العرب الى صفوفهم ، مما الحق بموقفنا الضعف ، لكنا واجهنا متاعب بالغة . وها هي الآن دولة كبرى اخرى ، تتقدم بشكل معاد لنا ، وهي روسيا ، حاملة معها سلاح الشيوعية

الهدام، الذي يعزف على قيثارة خداعنا للعرب، تماماً كما فعل الالمان والايطاليون من قبل . وكان الرأي السائد في بريطانيا ان استخدامنا لتفوقنا العسكري بصورة حازمة وقوية ، قد انقذنا آنذاك في مصر والعراق والشرق الاوسط بكامله . وعلى هذا التفوق العسكري ان يعيد تمثيل الرواية اذا اقتضت الضرورة من جديد ، ولهذا يجب الحفاظ على ذلك الجهاز من القوة الذي تفرضه المعاهدات مهما كان الثمن . وفي وسعنا الاعتماد على ملوك العرب وزعمائهم الذين لم يكونوا اقل منا ادراكاً للخطر الشيوعي ، وعلى تعاونهم معنا . وفي وسع هؤلاء الملوك والزعماء الإبقاء على شعوبهم هادئين . وهم بحاجة الى عوننا على كل حال ، وعلى الرغم من انهم قد يجهرون بالشكوى من وجود القواعد البريطانية ، وقد يطالبون بازالتها ، ويرددون باخلاص جميع تعويذات العرب التقليدية المألوفة ، الا انهم يعرفون تمام المعرفة ، ان من مصلحتهم كما هو من مصلحتنا ، ان يجدوا معونة صديق قوي خير يحتاجون اليه . وهؤلاء الزعماء هم خير من يعرف الجانب الذي يخبز فيه خبزهم .

لكن حكومة العمال في انكلترا ، لم تكن مقتنعة على أي حال، بأن الصيغة العسكرية ، هي الصيغة الصحيحة . ومهما كان الاشتراكيون قد التزموا بتأييد الصهيونية ، ومهما كانوا قد اغمضوا عيونهم على النتيجة القائلة ، بأنه ، اذا نجح الصهيونيون في تحقيق مبتغاهم ، فان القوة وحدها هي التي تستطيع ارغام العرب على الهدوء ، فان من تقاليدهم الفكرية ان الحلول يجب ان تكون سياسية لا عسكرية . ويقول اللورد مونتغوميري ، ان المسئلة اثيرت في عام ١٩٤٧ [١]. وقد اعد رؤساء اركان الحرب مذكرة قبلت بها حكومة اتلي . وقد جاء في مذكرة الرؤساء « علينا ان نحارب للحفاظ على الشرق الاوسط ، الذي يصلح مع المملكة المتحدة وشمال افريقيا ، كمراكز لاقامة القواعد لشن هجوم جوي هائل على بلاد أي معتد قد يأتي من الشرق . وعلى الجيش ان يحتفظ بمقر قيادة فيلق في الشرق الاوسط ، مع قوات متوافرة لمعالجة أي وضع طارىء » .

١ – المارشال مونتغوميري – مذكرات ، ١٩٥٨ .

ويسجل مونتغوميري ايضاً زيارة قام بها للملك عبد الله ملك الاردن في عمان في عام ١٩٤٦ ، فقد قال : « جرى لنا استقبال حافل ... وقال الملك انه سيستخدم جميع نفوذه لمساعدة القضية البريطانية لدى الدول العربية . واضاف ان قراراً في القضية الفلسطينية لمصلحة العرب أمر ضروري بالنسبة الى مصالح بريطانيا في الشرق الاوسط . وقد رددت عليه بأن هذه قضية تتعلق بالساسة ، وأني سأنقل ملاحظاته الى رئيس الوزارة البريطانية . وهذا ما فعلته حقاً » . لقد كان الملك عبد الله محقاً . ولم تكن هناك فائدة ترجى من الاحتفاظ بقوات بريطانية في الشرق الاوسط « على استعداد للذهاب الى أي مكان في حالة وقوع طارىء » ، الا اذا اتخذ قرار في المشكلة الفلسطينية يؤمن للملك عبد الله والملك فيصل ونوري السعيد وغيرهم العتاد السياسي ، الذي يجب ان يتوافر لهم اذا كان يطلب اليهم « دعم قضية بريطانيا لدى الدول العربية » ، واذا كان يراد لهذا الدعم أي نجاح . وكان الشرق العربي ، ابان الحرب التي انتهت قبيل قليل ، والتي ما زالت احداثها ماثلة في الاذهان ، تحت احتلال بريطانيا العسكري المباشر . ولم تكن هناك حاجة الى اية موافقة عربية على هذا الاحتلال . اذ ان اية اعتراضات عربية لا يؤبه بها ، ولا تغدو موضع اهتمام . أما الآن وقد انتهت الحرب ، فقد عادت الموافقة السياسية العربية امراً هاماً من جديد ، ولكن هذه الموافقة كانت اليوم ابعد منالاً من أي يوم مضى وان لم يكن ثمة ادراك في بريطانيا لهذه الحقيقة أو لأهميتها .

ولكن يبدو ان القرار قد اتخذ بحيث يحافظ على الضرورات الاستراتيجية ، بالطرق العسكرية ، مع بذل كل محاولة سياسية ممكنة مع الساسة ، واذا اقتضى الامر اللجوء الى الوسائل العسكرية معهم . وأخذ الأمريكيون يبدون المزيد من القلق والاهتمام ايضاً ، وكانوا على استعداد للمعاونة في حمل العبء . وصدر مبدأ ترومان لعام ١٩٤٧ ، فأقحم امريكا في شؤون اليونان وتركيا ، كما دفعها الى توقيع اتفاق عسكري مع ايران في تشرين الأول عام ١٩٤٧ . وكان في وسع الانسان ان يقول في نهاية ذلك العام ان الحرب الباردة قد جزّأت العالم الى

معسكرين . وليس في وسعنا ، بل يجب علينا ان لا نتخلى عن الشرق الاوسط ، اذ ان الضرورة تحتم علينا القتال ، من اجل بقائنا فيه .

ومع ذلك كانت هناك دلائل واضحة في العراق ومصر وفلسطين على تزايد شعور العداء . وقد اشارت لجنة التحقيق الانكلو - امريكية لفلسطين في تقريرها الذي اصدرته في ايار عام ١٩٤٦ الى التظاهرات والاضطرابات العربية التي قوبلت بها . ولعل اهم من هذا كله هو الفشل في الوصول الى اتفاق لتعديل المعاهدتين مع مصر والعراق . وقد عاد الوطنيون في مصر والعراق ، بعد الحرب ، تسيطر عليهم حيوية جديدة ، الى العمل للتخلص من هاتين المعاهدتين . وتلقى الوزير السوفياتي في بغداد سبعة نداءات من زعماء الاحزاب السياسية في العراق لاثارة قضية فلسطين في مجلس الأمن الدولي .

وكانت حكومة العمال البريطانية ووزير خارجيتها ارنست بيفن ، واقعين تحت ضغط شديد من حزب المحافظين المعارض . وتعرضت الحكومة المصرية لضغط متزايد من معارضتها الوطنية القوية . وكان المحافظون ، في هذا الجو المشحون من الخوف من التهديد السوفياتي ومن طلائع الحرب الباردة ، يريدون حقوقاً تعاهدية للدفاع عن قناة السويس سواء أراد المصريون او لم يريدوا ، بينما كانت المعارضة المصرية تطالب بالجلاء الكامل . وكان الاساس الممكن الوحيد للاشتراك ، هو ان تجلو القوات البريطانية ، وان يصار الى مجلس دفاع مشترك يقرر على ضوء اية ازمة قد تنشأ ، نوع الاجراء العسكري الذي يجب ان يتخذ . وقد عارض كل من تشرشل وايدن معارضة شديدة في هذا الاساس . وقال تشرشل في احدى خطبه المعارضة : « ستقول الدولة الكبرى ، التي قد نصبح في حالة نزاع معها ، الى الحكومة المصرية طبعاً ... اننا سنعتبر أية حركة للقوات البريطانية باتجاه منطقة القناة امراً عدائياً ... فهل يستطيع انسان ان يفترض ان الحكومة المصرية ، وقد واجهها هذا الوضع ، مع عدم رغبتها في رؤية قوات بريطانية أو طائراتها في قناة السويس من جديد ، لن ترفض السماح لنا بالعودة؟» ... ومضى تشرشل يقول ... « وهل يستطيع انسان ان يتصور ان في وسع

الحكومة البريطانية في مثل هـذا الوضع الذي يكون فيه سيف التقرير بين السلام والحرب في صراع عالمي جديد مصلتاً فوق الرؤوس ، ان تفرض ارادتها بالقوة . ان مثل هذا الفرض سيعتبر في مثل ذلك الوضع ، عملاً تحكمياً ، بل عملاً من اعمال العدوان يستنكره الجميع ، وعملاً يحطم آخر أمل من الآمال في السلام » [1] .

ولم يكن هناك بيان اكثر وضوحاً في تعبيره من هذا البيان الذي يشرح عواطف الفئات الحاكمة في بريطانيا آنذاك والتي لا تقتصر على الوزراء فحسب بل تتعداهم الى الموظفين والجنود . ولقد كانت هناك صورتان لطبيعة علاقاتنا مع مصر . أما الصورة الاولى فكانت على النحو التالي :

أ – ان علينا واجباً هو حماية المصالح المصرية الانكليزية المشتركة من اية جهة معادية لهذه المصالح .

ب – وللقيام بذلك ، يجب ان تكون لدينا قوات في المنطقة نفسها ، وان تتاح لنا حرية العمل اذا اقتضت الحاجة ، على ان نعمل بالتعاون مع حلفائنا المصريين .

ج – ان اعداءنا هم بموجب هذا التعبير ، اعداء مصر ايضاً .

د – ان الاقلية في مصر ، التي تعارض هذه المبادىء ، هي بموجب هـذه النظرية ، عدوة لمصالح مصر نفسها بقدر ما هي عدوة لمصالحنا . وعلى قواتنا ، بالاشتراك مع القوات المصرية ، ان تحمي هذه المصالح المشتركة ، ضـد جميع الاعداء سواء أكانوا من الداخل او الخارج .

هـ – ان غالبية المصريين وبينهم ملكهم وزعماؤهم ، معنا على طول الخط . فهم موالون لنا اصدق ولاء .

أما الصورة الثانية فكانت مغايرة تماماً للصورة الأولى وهذه هي :

أ – ان المصريين « لا يرغبون في اية حال من الاحوال في بقـاء القوات البريطانية وسلاحها الجوي في منطقة القناة » او في أي مكان آخر في مصر .

---

١ – هانسارد – المجلد ٤٢٣ ، العمود ٧٧٤ – ٧٧٥ .

ب — واذا سحبنا هذه القوات،فلا نستطيع اعادتها الا في حالة «وقوع عمل من جانبنا يدفع بالعدوان » ، ذلك لأن المصريين « سيرفضون السماح لنا بالعودة، وعلينا ان نشق طريقنا بالقوة » .

جـ — والعودة في مثل هذه الظروف ، أي عن طريق القتال مع المصريين انفسهم سيعتبر « عملاً تحكمياً » .

د — لذا علينا ان نحتفظ بقواتنا هناك على الرغم من معارضة المصريين . ومثل هذ العمل لا يعتبر « عملاً تحكمياً » من اعمال العدوان .

هـ — ويتضح من هذا ان عقد معاهدة صداقة وتحالف تضفي على بقاء قواتنا هناك صفة شرعية ، ضرورة لا بد منها . ووجود القوات البريطانية الفعلي في مصر ، أمر جوهري لإقناع المصريين بتوقيع معاهدة معنا تبقيهم حلفاء لنا واصدقاء . ولحملهم على البقاء كذلك في المستقبل ايضاً .

وكانت الصورة الأولى ، هي التي يفترض ان يرى المصريون الوضع فيها ، مستندة الى ما قد غدا الآن ليس اكثر من مجرد اسطورة من اساطير الصداقة والموافقة . أما الصورة الثانية فهي التي رسمها تشرشل وايدن فعلاً في اقوالهما ، وتضم كل العناصر ، التي وضعت لها الحسابات الدقيقة لانتزاع اية امكانية من صدور المصريين في ان يشعروا معنا شعور الحلفاء والاصدقاء كما تفترض المعاهدة .

وقد تغيرت الأوضاع تغيّراً جذرياً عما كانت عليه قبل الحرب . فقد كان في الوسع آنذاك الزعم بشيء من الصحة ، عن وجود اشتراك اصيل في المصالح العسكرية بيننا وبين المصريين . فقد كانت القوات البريطانية حينئذ تقف وقد اتجهت بنادقها ومدافعها الى الخارج ، نحو اية دولة معادية ممكنة ، اذا قدر لها ان تشق طريقها الى مصر الحقت بالمصريين من الأذى ما تلحقه بنا . وكان في وسعنا ان نزعم اننا حلفاء اسماً وفعلاً .

أما الآن ، وفي السنوات الأولى التي تلت الحرب ،لم تكن هناك دولة عظمى منافسة لنا تؤلف خطراً عسكرياً على اراضي مصر او غيرها من البلاد العربية ،

كما كان النازيون الألمان او الفاشيون الايطاليون يؤلفون في السنوات التي سبقت الحرب او في غضونها وكان العرب يرون ان البريطانيين والامريكيين يخشون روسيا كل الخشية، مع انهم كانوا قبل عام او عامين يغرقون العالم العربي بدعايتهم عن الكفاح البطولي الذي يخوضه « حلفاؤنا الروس النبلاء ضد العدو الفاشي المشترك » . ولم يكن أي عربي قد رأى جندياً روسياً حتى الآن . ولم يكن الروس يؤلفون في نظر العرب خطراً عسكرياً استعمارياً . وقد رأى العرب جنود بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا ، يتقاتلون في بلادهم . وكانوا ينظرون اليهم وراء فوهات بنادقهم . لكنهم لم يروا الروس كذلك . وقد تكون الشيوعية خطراً ، ولكنها قضية سياسية لا عسكرية .

وكانت محاولات بريطانيا للاحتفاظ بقواعدها ، وبالبنود العسكرية في معاهداتها ، تبدو في الأفق العربي ، موجهة لمساعدة الصهيونية ضد العرب ، لا لمساعدة العرب ضد عدو خارجي. ولما كانت السياسة الامريكية تدعم الصهيونية، وكان الصهيونيون يجهرون الان بعزمهم على الاستيلاء على فلسطين كلها ، فلن يكون في وسع البريطانيين ، حتى ولو ارادوا ، ان يحافظوا على تعهداتهم تجاه العرب في وعد بلفور وصك الانتداب . وعلى الرغم من محاولات بيفن ، فان حزب العمال نفسه ، وهو الحزب الذي يتولى الحكم ، كان قد اعلن رسمياً تأييده للمطالب الصهيونية . وكانت معاهدات بريطانيا مع الدول العربية، وما تتضمنه من بنود عسكرية وسياسية ، والقواعد العسكرية الموجودة في البلاد العربية ، تفرض قيوداً على هذه البلاد تترك أثراً واضحاً في القضية الفلسطينية ، ولذا فان الصهيونيين هم الذين يفيدون منها لا العرب . وبدت القوات البريطانية في قواعدها الآن ، وقد صوبت بنادقها ومدافعها الى الداخل ضد العرب ، لا الى الخارج ضد عدو مشترك . ولقد كان تشرشل صادقاً في قوله عندما اعلن في مجلس العموم ان على بريطانيا ان لا تنسحب من قناة السويس ، لأنها تحتاج الى هذه القوات في الحفاظ على المصريين هادئين . وهكذا اصبحت القوات تظهر بمظهر جيش الاحتلال من جديد ، لا كجيش دفاعي حليف .

وتحطمت المفاوضات مع مصر لتعديل المعاهدة . وحاول بيفن ان يصل مع العراق الدولة العربيــة المهمة الاخرى ، الى معــاهدة معدلة جديدة . ولم تكن مــودة المعاهــدة الجديـــدة التي وصلت مرتبة التوقيع بــالاحرف الأولى في بورتسماوث من قبل رئيس الوزارة العراقية، تختلف في الواقع العملي، كبير اختلاف عن معاهدة عام ١٩٣٠ ، التي كان من المفروض انها ستخلفها . فقـــد اعادت المعاهدة الجديدة البند السياسي الذي يمنع اياً من الفريقين المتعاقدين من اتبــاع سياسة خارجية تتناقض مع التحالف القـــائم بينهما ، وأكدت حق الوحدات العاملة من السلاح الجوي الملكي في استخدام قاعدتي الحبانية والشعيبة ، ونصت على قيام مجلس دفاع عراقي – انكليزي مشترك يستعاض به عن البعثة العسكرية السابقة ، وقضت على العراق في حالة نشوب الحرب بأن يقدم للقوات البريطانية جميع التسهيلات اللازمة . ونصت المعاهدة ايضاً ، على ان يكون جميع الخبراء العسكريين والتقنيين والمدربين الذين يستعين بهم العراق من البريطانيين . ومن الحق ان يقال ان المعاهدة الجديدة قد نصّت على سحب القـــاعدتين الجويتين ولكن الحق اعطي للقوات الجوية البريطانية لاستخدامها استخداماً كاملا ، كما اعطي لهــا بالعودة اليها في حالة وقوع اضطرابات او ازمة ، تقرر الحكومة البريطانية وحدها وجودها . وقد ترك هذا الحق التعاهدي ، مصحوبا بالبنــد السياسي ، في ايدي البريطانيين العناصر الاساسية التي كانت موجودة في جهاز السلطة القديم .

وما كادت تنشر نصوص المعاهدة التي تم التوقيع عليهــا بالاحرف الأولى في العراق ، حتى قامت اضطرابات خطيرة مفــاجئة . وسرعان ما استقالت الحكومة العراقية وتراجعت . واكد الوصي على العرش للشعب « انه لن يبرم اية معاهدة لا تضمن للبلاد حقوقها واهدافها الوطنية » . [1] وهكذا انتهت هــذه المعــاهدة .

وكسبت المعارضة الوطنية الجولة في العراق كما كسبتها في مصر . واخذت

١ – صحيفة التايمس – عدد ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٨ .

تشعر بقوتها المتزايدة. ولكنها عنت لبقاء المعاهدات الحالية قائمة ، بما تنطوي عليه من قواعد عسكرية وغيرها من قيود . فجهاز السيطرة البريطانية مازال موجوداً . ولكن المعاهدة العراقية ستنتهي عام ١٩٥٧ ، وستنتهي المعاهدة المصرية عام ١٩٥٦ أي بعد سبع سنوات او ثمان . وكان العرب يرون ان انتهاء المعاهدتين سيعني نهاية كل شيء . أما بريطانيا فقد رأت في هذه السنوات الباقية فرصة في يدها ، فقد يحدث ما ليس في الحسبان .

وصمم بيفن في وزارة الخارجية على ايجاد حل يتفق عليه جميع الفرقاء للمشكلة الفلسطينية وعلى معارضة العنف والقوة . ولكن الأهداف الصهيونية التي تحددت جهاراً الآن باقامة الدولة اليهودية في فلسطين كلها بحدودها الجغرافية لا يمكن الوصول اليها عن طريق الاتفاق مع العرب . وآمن الصهيونيون بان القوة وحدها هي سبيلهم لتحقيق اهدافهم ، فاذا عارضها البريطانيون فان على الصهيونية ان تلجأ الى السلاح ضد البريطانيين والعرب على حد سواء . وكانت لديهم قوات شبه عسكرية مدربة خير تدريب ، كما كانت لديهم عصابات ارهابية منظمة ايضاً . وفي وسع القارىء ان يقرأ قصة الهاغانا والبالماخ والارغون وشتيرن ، في كتب اخرى لسرد الطرق التي استخدمها الصهيونيون في تهريب السلاح واقامة مصانعه تحت سمع الادارة البريطانية وبصرها .

واقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ تقسيم فلسطين ، وخططت حدود هذا التقسيم . ولم يحظ هذا القرار الا باغلبية ضئيلة ، ووجد العرب الذين عارضوه بالطبع انفسهم يواجهون حملة صهيونية ، من الجذب والشد ، لم يسبق لها مثيل في النشاط والحيوية لكسب الاصوات ، ولم يكن في وسع أي انسان ان يتحدث عن هذا الموضوع اكثر من الرئيس السابق ترومان الذي شرح هذه الحملة في مذكراته على النحو التالي :

« والحقيقة انه لم تكن هناك حركات من الضغط في الأمم المتحدة لم يسبق لها مثيل من قبل فحسب ، بل ان البيت الأبيض ايضاً ، تعرض لضغط شديد دائم . ولا اذكر ان البيت الابيض قد تعرض قط من قبل

لمثل هذا الضغط والدعاية كما تعرض لها الآن . وقــد ازعجني وضايقني هذا الاصرار من جانب فئة من الزعماء الصهيونيين المتطرفين ، تحفـزهم الدوافع السياسية ، ويستخدمون في ضغطهم لغة التهديد السياسي . وكان بعضهم يقترح علينا ان نضغط على الدول المستقلة ، لتـدلي باصواتها الى جانب التقسيم في الجمعية العامة » [1].

وجرت الاحداث متلاحقة بسرعة كبيرة نحو النهاية في عام ١٩٤٨ عندمـا قامت الحكومة البريطانية باعادة الانتداب الى الأمم المتـحدة وانسحبت من البلاد . وبات لزاماً على العرب واليهود ان يقرروا النتيجـة عن طريق القتال . ووقعت الحرب فعلاً ، وقد سجلت وقائعها في سجلات وكتب لا ارى بي حاجة الى سردها . وكانت الحرب تمثل لليهود كفاحاً يجب ان يربحوه وان يحافظوا على ما يعتقدون بانه حق لهم . أما بالنسبة الى العرب فـكانت صراعاً للحفاظ على ما هو حق طبيعي لهم بحـكم الوراثة . وقد نوقشت الحقوق والمظالم الاخلاقيـة والقانونية في الماضي ، وما زالت تناقش حتى الآن ، وستناقش في السنوات المقبلة أيضاً . ولكن هناك حقائق قاسية معينة لا يستطيع انسان ان يتجاهلها ، فقد طرد نحو من ثمانمائة الف عربي من الرجال والنساء والاطفال من بيوتهم وممتلكاتهم وغدوا لاجئين ، بعد ان اغتصب المهاجرون اليهود هذه البيوت والممتلـكات . وهؤلاء الثمانمائة الف ، يمثلون الشعب الذي تعهدت عصبة الأمم والدولة البريطانية المنتدبة تجاههم تعهداً واضحاً :

« ... ويجب ان يفهم فهماً واضحاً ، بانه لا يجوز عمل اي شيء يمس بالحقوق المدنية والدينيـة للطوائف الاخرى غير اليهـودية الموجودة في فلسطين » .

واذا كانت « الحقوق المدنية والدينية » لهذه الشعوب لا تتضمن حقها في ان تعيش في بيوتها وفوق اراضيهـــا ، فليس هناك للـكلمات اية معان اذن . واذا كانت هذه هي حقوق العرب ، فمن هو القيم عليها ومن الذي ورث هذا الالتزام

١ – ترومان – مذكرات ١٩٥٥ – ١٩٥٦ .

المقدس بعد ان حزمت الدولة المنتدبة متاعها وغادرت البـــلاد ؟ وماذا حدث « لقداسة المعاهدات » التي طالما طولب العرب بالحفاظ عليها ...

واين ذهبت كل تلك المياه وتلك الاراضي التي كانت الدعاية الصهيونية تؤكد وجودها للعالم الغربي متوافرة كثيرة ، واين تلك المساحات الشاسعة الخصبة التي تستطيع استيعاب ملايين اليهود والعرب على السواء ؟ فداخـل حدود فلسطين وشرق الاردن ، لم يكن هناك الا حوض نهر الاردن ورافده الكبير الوحيد وهو اليرموك . وقــد اخذنا قياساتها اللازمة منذ عهد بعيد . وحـتى في عام ١٩٣٨ . عندما اقترح التقسيم لأول مرة ،وعندما اجريت عمليات المسح اللازمة ، كانت هذه المياه هي الأمل الوحيد في العثور على الأرض والماء اللازمين لإسكان العرب الذين سينزحون بموجب التقسيم عن ديارهم ، اما الآن فقد غدا عدد كل من اليهود والعرب اكبر مما كان عليه آنذاك . وقد وضع الإسرائيليـــون خططهم الآن لتحويل مجرى نهر الاردن واستخدام ميـــاهه لري اراضيهم في السهل الساحلي لإفساح المجال لعدد اكـبر من المهاجرين . وهكذا بعد ان اخذوا الاراضي التي كان اللاجئون العرب يعيشون عليها ، اصبحت مياه الري ، وهي الأمل الوحيد لهؤلاء اللاجئين مهددة بالتحول أيضاً من اعالي النهر . ومن هو صاحب الحق في هذه الميــــاه ، اهم العرب الذين اغتصب اليهود اراضيهم أم المهاجرون اليهود في المستقبل ، الذين لم تطأ اقدامهم بعد ارض فلسطين ؟

وشعر العرب بألم الخيانة من البريطانيين والامريــكيين على حد سواء ، كما شعروا بالغصة من نتائج الحرب في عام ١٩٤٨ ، وموقف الصحافة الغربية التي غالت في الحديث عنهم ومهاجمتهم . وكان الهجوم ينصب عليهم من النـاحيتين . فهم يهاجمون لأنهم ينــاضلون ليحرموا اليهود من التمتع بما هو ملك لهم ، وهم ضعفاء وعاجزون عن القتال والنضال . فـكمعتدين لا حق لهم في الفـــوز وهم يستحقون الخسارة لأنهم ضعفاء.وكان عليهم – كما تقول هذه الصحف – ان يظلوا على ولائهم لقرار الأمم المتحدة في التقسيم لأن حكم القـانون يجب ان يسود ، وعليهم ان يتحملوا نتـــائج الهزيمة ، لأن النصر من حق الأقوياء . وقـد اصبح

لليهود حق الفتــح . ومن حق اليهود ان يحاربوا ليغتصبوا ، وليس من حــق العرب ان يحاربوا ليدافعوا .

وهـــل يكتفي الاسرائيليون بما حصلوا عليه ؟ ان العــرب لا يرون انهم سيكتفون . فقد خططت حدود الهدنـــة في عام ١٩٤٩ ، والأمم المتــحدة موجودة في الميدان لتشرف على احترام هذه الخطوط . وكان هــذا مطمئناً الى حد ما ، ولكن خطوط الهدنة تجاوزت حدود الدولة اليهودية التي اوصت الأمم المتحدة بإنشائها في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ . وعلى الرغم من وجود عدد كبــير من اليهود والاسرائيليين الذين يعتقدون ان التوسع قد جاوز اكثر من حدوده ، وقد ارعبتهم رؤية هذا العدد الكبير من العرب يجلون عن ديارهم ، لا سيما وقــد تبينوا على كل حال ، ان ليس ثمة مكان يتسع لهم كلهم ، فهناك عدد كبير آخــر منهم ما زالوا يريدون التوسع ويسعون اليه بكل ما اوتوا من قوة . وقد يرضى بعضهم باحتلال ما بقي من فلسطين حتى حوض الاردن مع قطاع غزة ، بينما لا يرضى البعض الآخر من المتطرفين الا بشرق الأردن أيضــاً وجميــع اراضي اسرائيل التي حددها قرار بلتيمور .

وكان هذا القرار الذي يطالب بفلسطين كلها قد اصبح منسوخاً بصورة رسمية، ولكن سرعان ما اخذت الدلائل تقوم على ان افكار الصهيونيين تتجه الى توسع جديد .فعندما اعلنت دولة اسرائيل ، اختيرت كلمة « دولة » بصورة متعمدة، بدلاً من كلمة « ارض ».فهي دولة اسرائيل التي تقوم داخل « ارض » اسرائيل، وهي ليست الارض كلها بل جزء منها . وهكذا كان اختيــــار الاسم للدولة الجديدة ينطوي على معنى بان ثمة توسعاً ما زال في الطريــق ، وان « الدولة » ليست الا اصلاح حالة مؤقتة . وقام برلمان اسرائيل فسن قــانون العودة الذي اعلن ان «لكل يهودي الحق في الهجرة الى اسرائيل » ، وغدت سياسة التجميع داخل البلاد العلامة الفارقة الرئيسية للسياسة الاسرائيلية . فالسياسة تقوم على توسيع السكان . وبدأت تظهر الخرائط التي ترسم صورة اسرائيل الكاملة التي

يطمح اليها الصهيونيون طموحاً تاريخياً [1] . وقام حزب سياسي معترف بــه رسمياً هو حزب حيروت يدعو الى سياسة علنيــة هي وجوب شمول اسرائيل ، لجميع أراضي اسرائيل، وهي سياسة توسعية محددة. وفي الوسع الافتراض بأن هذا الحزب يستهدف الوصول الى الحكم عن طريق الاجراء الديموقراطي الانتخابي، فاذا ما نجح في تحقيق خطته ، ووصل الى الحكم ، فان سياسة التوسع وضم اراض عربية اخرى ستصبح آنذاك السياسة الرسمية لحكومة اسرائيل . وقــد توسع الهدف الصهيوني من مجرد وعد على قصاصة ورق في عام ١٩١٧ ، الى دولة قائمة في عام ١٩٤٨ ، وليس ثمة من دليل على ان الدينا ميكية قد اختفت من الحركة .

وكل هذه الادلة تمثل امام العرب ، لتقيم البرهان على وجود ضــغط توسعي قوي داخل اسرائيل . فمن يستطيع وقف هذا الضــغط عند حده ؟ لقــد ظل الصهيونيون يتوسعون طيلة عهد الانتداب البريطاني ، وبينما كانت هناك ادارة يفترض انها كانت ذات سلطة وسطوة ، وتحت تصرفها قوات عــسكرية موجودة في المنطقة . وقد تحدّوا السلطة البريطانية بنجاح وفازوا بتحديهــا . وتشرف الأمم المتحدة على لجنة الهدنة المشتركة ، التي تنفذ قرارات الجمعية العامة ، ومع ذلك فان العرب لا يرون ما يوقف الصهيونيين عن استخدام هذا القرار طالما هو في مصلحتهم ، وتوجيهه الى ناحيتهم تماماً كما فعلوا بقرار التقسيم في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ . فأي نفوذ بقي للحكومة البريطانية حتى ولو شاءت ان تقف ضد النفوذ الصهيوني الآن وبعد ان خرج البريطانيون بجيشهم وبكل شيء من البلاد ؟ هذه هي الافكار التي اخذت تساور العرب .

ولم يكن في وسع اولئك العرب الذين التزموا منذ عهد بعيد بسياسة الموالاة لبريطانيا الا ان يمضوا في هذا الطريق من الولاء . فاذا ارتدوا عن هذا الطريق ضمنوا عداء الرأي العام البريطاني الى الأبد ، واذا كانت هناك في رأيهم اية دولة كبرى قد تكون ميالة الى مساعدتهم فهي بريطانيا ، ولذا فيجب الحفــاظ على تلك الصداقة وتقويتها مهما كان الثمن . لقد كان هذا هو املهم الوحيد .

أما بالنسبة الى الآخرين ، فــلم يكن ثمة أمل عن هذا الطريق . فما زالت

---

١ – السيرجون غلوب – بريطانيا والعرب – ١٩٥٩ .

للبريطانيين معاهدات وقواعد عسكرية « يخندقون » وراءها في مصر والعراق والاردن ، وما زالت هناك عدة سنوات يجب ان تمر قبل ان ينتهي اجل هـذه المعاهدات ، وفي غضون هذه الفترة ، سيلقى الملوك والزعماء الموالون لبريطانيا كل عون وحماية منها ، وسيسعون بمساعدتها الى اخفات صوت المعارضة الوطنية. وكانوا يرون ان ليس ثمة ما يدعوهم الى تصديق ما يقال من ان بريطانيا قد تمضي بعيداً في مساعدتهم فتقوم بدور فعّال تجاه اسرائيل إما بإرغامها على الالتزام بقرارات الأمم المتحدة تجاه الحدود وعودة اللاجئين او حتى لمنعها من اختطاف قطعة عربية جديدة في حالة سيطرة النفوذ التوسعي داخل اسرائيل نفسها. فقد خبروا وعود بريطانيـــا . لقد وعدتهم بالاستقلال ثم ضنت بـه عليهم ، وقد اكدت لهم ان ليست هناك نية لاقامة دولة يهودية ثم أيدت قيـام هذه الدولة . وقد تعهدت بالمحافظة على « الحقوق المدنية والدينية » لعرب فلسطين وها قـد خسر ثمانمائة الف عربي حقوقهم وبيوتهم واراضيهم . ولم يعد يهم العرب ان يعرفوا ما اذا كانت بريطانيا قد فعلت كل هذا ، لأن نيتها كانت مبيتة على فعله منذ البداية لإقامة دولة يهودية سلاحاً لها تستعمله ضدهم ، او لأن النفوذ الصهيوني كان أقوى من ان تستطيع الحكومات البريطانية مقاومته . أما بالنسبة الى الامريكيين ، فقد بدا انهم سينفذون كل ما يطلب الصهيونيـون منهم تنفيذه . وآمن العرب ، انه اذا كان من المقدر ان تتيسر لهم الحماية ضد التوسع الصهيوني ، او القوة لإرغام اسرائيل على التراجع الى الحدود التي اوصت بها الأمم المتحدة ، فان هذه القوة يجب ان تنبع من بلادهم وان تستخدم اذا اقتضت الضرورة ضد الامريكان والانكليز ايضاً .

وكان الوطنيون يقولون ان بريطانيا ستتخلى عن اصدقائها والموالين لهـا من الملوك والزعماء ، فقد تخلت عنهم في الماضي وستتخلى عنهم في المستقبل . ولعل نوري السعيد والهاشميين أحسن مثل على ذلك . فلم يكن هناك بين الزعماء العرب من اعلن اكثر منهم جهاراً وباستمرار عن عقيدتهم بان التـعاون مع البريطانيين هو في مصلحة العرب انفسهم . وها قد اخذت المبررات في التزايد ، للاعتقـاد

بأنهم قد اشرفوا على الوصول ، ان لم يكونوا قد وصلوا بعد ، الى النقطة التي لا يستطيعون فيها التخلي عن عون بريطانيا ضد تيار المعارضة العارم ضدهم حتى ولو ارادوا هذا التخلي .

حتى لو كانت لندن وواشنطن تعرفان حقيقة هذه التيارات الفكرية في البلاد العربية ، الا انهما لم تكونا تشيران اليها صراحة وجهاراً . فالمعاهدات مع مصر والعراق والأردن ما زالت سارية المفعول ،والقواعد العسكرية ما زالت موجودة وقائمة . وهذه البلاد الثلاثة حليفة وصديقة ، وملوكها وزعماؤها ما زالوا على ولائهم . ومصلحتهم تقضي كما هي مصلحتنا في اخماد المعارضة في بلادهم . وهم يدركون ما لعلاقتهم ببريطانيا من قيمة لهم ولشعوبهم ، حتى ولو اراد العرب المتحمسون من ابناء بلادهم الزج بها في مشاكل في عالم تحتاج فيه الشعوب الصغيرة الى اصدقاء كبار ، عالم لا يوجد فيه أي شيء يسمى استقلالاً ، وانما هنالك خيار بين الرفقة الطيبة والرفقة الشريرة . وكان يقال لهم ان اسرائيل جاءت لتبقى ، وانه اذا سارع العرب الى فهم هذه الحقيقة ، كان هذا خيراً لهم ولكل انسان آخر .

وقد كسب الصهيونيون هذه الجولة . ولكن ما فتىء امامهم عمل كبير ، اذا ارادوا اقناع العالم الغربي بان ليس للعرب من حق في ان يطلبوا انسحابهم الى حدود قرار التقسيم الذي اتخذته الأمم المتحدة في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ ، وفي أن يصروا على عودة اللاجئين الى وطنهم .وكان عليهم ان يوجهوا دعايتهم الى اقناع الرأي العام الغربي بأن هذه المطالب تفتقر الى الأساس الخلقي او انها على الأقل غير عملية من الناحية السياسية . ومضى جهاز الدعاية الصهيوني يعمل ليل نهار في هذا الاتجاه .

وانساب الخط الدعائي الصهيوني بالطبع ، مكملا طريقه الاول ، فاللاجئون قد هجروا وطنهم ودورهم بمحض اختيارهم ، وتنفيذاً لتعليمات زعمائهم وقادتهم. وقد كانت هجرتهم نابعة عن خطئهم وبلادتهم ،فهم والحالة هذه يستحقون ما لحق بهم . وقد حاول العرب ، قسوة منهم وشراسة ، أن يغزوا دولة اسرائيل

الجديدة ، ولكنهم فشلوا ،وهم يستحقون ما حاق بهم . وكان هذا الخط الدعائي هو عين الخط الصهيوني المزدوج سابقاً .. اذا اذعن العرب، اظهروا عجزهم وعدم جدارتهم بالحياة ، واذا قاوموا كانوا شرسين متوحشين . . !!

واين يجب ان يذهب اللاجئون ؟ لقد وضع الدكتور وولتر كلي لودر ميلك كتاباً ابان الحرب لقي رواجاً عظيماً ، اسماه « فلسطين ... ارض الميعاد » [1] . وقد زعم مؤلفه ان في وسع فلسطين ان تستوعب بسهولة اربعة ملايين لاجيء يهودي بالاضافة الى المليون والثمانمائة الف من العرب واليهود الذين يقيمون فيها . وقد ابطل هذا الكتاب من عقول الناس كل ما سبق لآراء الخبراء ان اقاموه قبل الحرب من حقائق معاكسة على ضوء تحرياتهم العلمية وحساباتهم الدقيقة . ولكن أين هو ذلك الماء « الغزير » واين هي تلك « المساحات الشاسعة من الاراضي الخصبة » التي ادعى الصهيونيون وجودها بمنتهى البراعة والذكاء ، ليقيموا الدليل على وجود متسع من الارض ؟ لكن هذا الكتاب حقق الغاية المتوخاة منه من الناحية الدعائية في الغرب . فحقيقة « الغزارة » ، اقامت الدليل على حق اليهود في الهجرة . وقد حان الوقت الآن للرجوع الى الوراء . فلم تعد هناك غزارة ، وانما هنالك نقص وافتقار . واليهود بحاجة الى كل ما حصلوا عليه والى اكثر مما لديهم . وليس لديهم ما يكفيهم من الارض او من الماء . وهذا يقيم الدليل على وجوب هجرة اللاجئين العرب الى أماكن اخرى. انه يقيم الدليل على ان ليس من حقهم ان يطمعوا في العودة الى بيوتهم . وهكذا غدت الحقائق الصحيحة عن طاقة فلسطين الاقتصادية على الاستيعاب ، اساساً جوهرياً للدعاية الصهيونية ، ولكنها تتجه هذه المرة ضد العرب . وكانت اسطورة الغزارة والوفرة قد بررت مجيء اليهود . وها هي حقيقة الافتقار والنقص تبرر بقاء اللاجئين في الخارج .

وكان كتاب لودر ميلك قد تضمن العبارة المقتضبة التالية :

« وفلسطين على أي حال ليست الا جزءاً صغيراً جداً من منطقة واسعة

---

١ - الدكتور وولتر كلي لودر ميلك - « فلسطين ... ارض الميعاد » ، ١٩٤٦ .

يسكنها الشعب العربي بصورة متفرقة ومشتتة » .

هذا هو الخط الجديد للدعاية الصهيونية . وفي الوقت الذي صدر فيه هذا الكتاب بدا انه يخرج في هذه الجملة عن موضوعه بصورة غريبة . فقد زعم لودر ميلك كما زعم الصهيونيون دائماً ان هناك مجالاً واسعاً في فلسطين للعرب واليهود . واذا صح هذا الزعم ، فما هي الحاجة الى ارسال العرب الى اماكن اخرى في البلاد العربية ؟ ولكن سرعان ما ظهر السبب فبطل العجب .

فمنذ ان اضحت السياسة الصهيونية الرسمية قائمة بموجب قرار بلتيمور ، على المطالبة بفلسطين كلها ، فان الحجة بوجود مساحات كبيرة تكفي للعرب واليهود في فلسطين لم تعد مقنعة او كافية . ولكن في الوقت نفسه ، كانت الحجة القديمة لا تزال صالحة لتبرير الوجود لدولة اسرائيل المحدودة التي اقرتها الأمم المتحدة . وانقضت فترة سنوات اربع أو خمس واجهت فيها الدعاية الصهيونية مهمة دقيقة للحفاظ على الحجة القديمة لتبرير الهدف الفوري ، وتقديم الحجة الجديدة تدريجياً لاستخدامها فور قيام دولة اسرائيل المحدودة . وكان هناك بالفعل تطور تدريجي في حجة « الطاقة الاقتصادية على الاستيعاب » ، منذ بداية عهد الانتداب بعد الحرب الكونية الأولى . وقد سار هذا التطور في المراحل التالية :

المرحلة الأولى : هناك مجال فسيح كاف في فلسطين لجميع اليهود والعرب (اذ ان هناك مساحات شاسعة من الاراضي غير المزروعة) .

المرحلة الثانية : هناك اراض واسعة يمكن استصلاحها ، وليس ثمة ما يحول دون انتقال العرب اليها ، والاقامة فيها (على أي حال في وسع العرب ان ينتقلوا الى شرق الاردن حيث توجد اراضٍ واسعة مع عدد قليل من السكان) .

المرحلة الثالثة : اذا جمعنا شرق الاردن الى فلسطين . توافرت هناك مساحات واسعة (على أي حال اذا ضاقت الارض ، ففي وسع العرب ان ينتقلوا الى الدول العربية الأخرى) .

وكانت الدعاية الصهيونية قد وصلت في نهاية الحرب الى المرحلة الثالثة . وكان

رجال حزب العمال البريطاني ، وغيرهم من الانكليز قد قبلوا بهذا الرأي . ولكن كانت هناك مراحل اخرى لا تزال في الطريق ، واری ان نكمل السلسلة :

المرحلة الرابعة : لو فهم العرب فقط ان العراق وغيره من البلاد العربية المتخلفة اقتصادياً تحتاج الى عدد اكبر من المستوطنين ، فإن مشكلة اللاجئين تحل . (على أي حال ، ليس ثمة مجال لإسكانهم في أي مكان حول نهر الاردن ، وعليهم ان لا ينتظروا الحصول من مياه الاردن القليلة على اكثر من الكمية التي نستطيع الاستغناء عنها) .

المرحلة الخامسة : ليس ثمة مجال كاف من الارض ولا من الماء للعرب واليهود (فلماذا لا يذهب العرب الى الاقامة بين ظهراني اخوانهم في البلاد العربية حيث يرحب بهم ؟) .

المرحلة السادسة : واذا كان العرب يعتقدون ان في وسعهم التمدد داخل اراضي اسرائيل ، فانهم مخطئون كل الخطأ . اذ ليس هناك مجال لهم (فلماذا لا يعودون الى اراضيهم العربية ؟)

المرحلة السابعة : على العالم ان يصر على عودة العرب الى الاماكن التي جاءوا منها ، وان يوقفهم عن مشاريعهم العدوانية التوسعية ضد اسرائيل التي كانت ولا تزال يهودية .

وكان التحول الدعائي قد وصل المرحلة الخامسة عندما اخذت في اعداد هذا الكتاب في عام ١٩٥٩ ، بينما لاحت تباشير المرحلة السادسة في الافق . ولا ريب في أن هذا الأسلوب مهم كل الأهمية بالنسبة الى طلاب الحرب السياسية . وكان هناك دائماً اقتراحان في كل مرحلة من هذه المراحل ، احدهما ظاهر شائع ، وثانيهما خفي ومناقض له تمام المناقضة . ولما كانت القيمة الدعائية للاقتراح الظاهر ، تتآكل بعامل الزمن وترشح الحقائق المعاكسة الى عقول الجماهير ، فإن الاقتراح الخفي ،سرعان ما يرتفع الى مرتبة الظهور والبروز ، ليحل محله بصورة ناعمة اقتراح خفي آخر ، اكثر جدة وجرأة . وكانت الدعاية والتحول التدريجي للحجة عنصرين اساسين في تحقيق الهدف الصهيوني ، لأن الرأي العام الغربي ،

كان دائماً في حاجة الى اعطائه المبررات والاسباب اللازمة لإقناعه بأن المعارضة العربية ليس لها ما يبررها . وكان هذا ولا يزال ، هــو الهدف الأساسي . ولا يمكن ان يكون الا هذا الهدف ، طالما ان الصهيونية حركة حية .

وعندما بدأ الغرب يعترف بدولة اسرائيل الجديدة ويقر بوجودها،أخذ هذا الغرب يقول للعرب ، ان اسرائيل جاءت لتبقى ، وان خير ما يفعلونه ، هو ان يتعودوا العيش معها . أما العرب ، فقد رأوا في هذا دليلاً جديداً على ان قيام اسرائيل مجرد بداية . فهي مجرد « دولة » اقيمت في « ارض » اسرائيــل التي يحلم الصهيونيون بان تشمل فلسطين كلها . ولم يكن هناك ما يدعو العرب إلى الاقتناع بأن الصهيونيين سيرضون بما حصلوا عليه ولن يسعوا الى الحصول على فلسطين كلها .

البحث عن احلاف

كان قيام اسرائيل في عام ١٩٤٨ ، بالنسبة الينا في بريطانيا نهاية مرحلة . فقد مللنا من مشكلة فلسطين التي سببت لنا الاوجاع والمتاعب . وها قد انتهت ثلاثون عاماً من الاضطراب المستمر ، والعواطف الثائرة ، والصراع ، والدم المسفوك . ومضت الى غير رجعة . وقد حقق الصهيونيون حلمهم في قيام دولتهم . وقد اتيحت للعرب فرصة اضاعوها ، وعليهم ان يستغلوا هذه الفرصة لإصلاح اوضاعهم . على كل حال ، جاءت اسرائيل لتبقى (! !) واذا كان العرب يعتقدون انه سيسمح لهم بالقذف باليهود الى البحر ، فمن الافضل لهم ان يعيدوا النظر في تفكيرهم (! !)

وكان هذا الوجود بالنسبة الى العرب بداية مرحلة جديدة . انهم يسمعون ان اسرائيل جاءت لتبقى ... وهم لا يرون سبباً يدعوهم الى افتراض بقاء اسرائيل ولا الى ان يصدقوا بان بريطانيا او امريكا ستحول بينها وبين محاولة اغتصاب قطعة جديدة من وطنهم اذا قررت ذلك ، على اعتبار ان هذه القطعة جزء من ارض اسرائيل التي يعتبرها الصهيونيون السياسيون ملكاً شرعياً لهم . وليست لبريطانيا اية قوات داخل اسرائيل تستطيع عن طريقها كبح جماحها اذا ارادت ، ولكنها تملك معاهدات وقواعد في مصر والعراق والاردن ، تتمكن بواسطتها من كبح جماح العرب . اما وقد غدت اسرائيل الآن دولة لها جيشها وسفاراتها واتصالاتها الدبلوماسية واذاعتها ، فقد اصبحت قدرتها على التأثير على

مجرى الاحداث ، اعظم مما كانت عليه من قبل .

واتخذ تنظيم المعركة السياسية الآن شكلا مغايراً جديداً . فقد كانت القوميتان المتنافستان العربية والصهيونية اثناء الانتداب البريطاني على فلسطين خاضعتين لإشراف بريطانيا الذي تدعمه القوة العسكرية . وكانت الدعاية الصهيونية تعمل عبر نطاق الرأي العام البريطاني ، اما الآن ، فقد غدت اسرائيل مستقلة عن بريطانيا .

فلاسرائيل حريتها في الحركة . وليست هناك قوة منتدبة تكبح من جماح الصهيونية . اما الدول العربية الرئيسية ، وهي مرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا ، فلا تتمتع بهذه الحرية . انها ما زالت مقيدة . وكان على خطوط دعاية اسرائيل ان تتقاطع مع العلاقات بين بريطانيا والدول العربية ، اذ ان من مصلحة اسرائيل ، ان تبعد عن العرب صداقة بريطانيا .

وادت الحرب الكورية الى قيام توتر جديد غير مباشر بين بريطانيا والعرب . فقد كان رد الفعل الأول في الغرب هو الاسراع في التسلح مع استراتيجية دفاعية في مفاهيمها . وكانت هذه المفاهيم تقوم على الافتراض بان الروس قد يشنون او سيشنون هجوماً عسكرياً على اوروبا الغربية . ولهذا تطلب الوضع اقامة حلقات دفاعية حول اراضي دول حلف الاطلنطي ، التي هي الخنادق الأخيرة التي يجب علينا ان نقاتل دفاعاً عنها وان نموت في سبيل هذا الدفاع اذا لزم الأمر .

وكانت الدول العربية ، وبقية انحاء العالم الحر خارج نطاق حلف الاطلنطي على الجانب الخاطىء من هذه الخنادق . وكان الطلب على مواردنا الانتاجية في التسلح ، لتأمين دفاعنا كبيراً الى الحد الذي لا يمكننا من توفير أية اسلحة لأية دول تقع خارج هذه الخطوط . وهكذا فقد خفضت تموينات الاسلحة الى الدول العربية الى الحد الادنى .

ومع ذلك ظل العرب يلاحظون ان معاهداتنا معهم ما زالت سارية المفعول . فهم ما زالوا حلفاءنا الرسميين واصدقاءنا . واذا قدر لمصالحنا في الشرق الأوسط

أن تهدد في الحرب مع الروس، فقد كان من المنتظر من العرب ان يقفوا الى جانبنا وان يسمحوا لنا باستعمال طرقهم وسكك حديدهم وموانئهم واراضيهم. ولكننا نضن عليهم بالسلاح ليحاربوا به معنا . فنحن في حاجة الى هذا السلاح لأنفسنا ، وهم يقفون الى الجانب الخاطيء من الخطوط الدفاعية عن الحلقة .

وبالطبع كان هذا مجرد سخف لا معنى له بالنسبة الى العرب . فما يطلبونه من طائرات واسلحة لا يعدو كميات ضئيلة . وكانوا يرون اننا نحن والامريكيين نبالغ في تصوير خطر التهديد الروسي ، واننا كنا نحن الذين نلح دائماً على ان تكون لنا معاهدات تحالف وقواعد عسكرية في الشرق الأوسط لحمايته من اعداء من نوع الروس الذين نتحدث الآن عن خطرهم . ولم يكن هناك ، على النقيض ، واحد بين كل مليون عربي ، يفكر بالخطر الروسي من هذه الزاوية . فالعراق وحدها من دون الدول العربية لها حدود قريبة الى حد ما من روسيا ، وفي العراق نفسها لم يكن هناك احد باستثناء نوري السعيد ، يتصور خطر غزو عسكري روسي . فالخطر من المانيا وايطاليا قبل عشرين عاماً ، كان ماثلاً . ولكن هاتين الدولتين استعماريتان وقد صممتا على اقتناص كل فريسة ممكنة . ولم تكن هناك الا قلة نادرة من العرب تتوقع من الروس ان يسيروا في نفس هذا الاتجاه .

ولكن العرب من الناحية الاخرى كانوا يخشون حقاً توسعاً آخر من جانب اسرائيل ، وكانوا يريدون السلاح لحماية انفسهم منها . وكان بعض العرب يأملون باستعادة فلسطين ، ولكن هذا الأمل لم يكن السياسة الرسمية للحكومات العربية . وكان من الطبيعي ان يعلن الاسرائيليون ان ليست لديهم نوايا عدوانية . وانهم هم الذين يقفون في خطر من العرب . وكان العرب يرون ان الدافع البريطاني واضح كل الوضوح . وبدا ان البيان الثلاثي الذي اصدرته بريطانيا وامريكا وفرنسا في الخامس والعشرين من ايار عام ١٩٥٠ ، قبيل الحرب الكورية ، قد فسّر هذا الدافع [١] . فقد ذكر البيان ان تموينات الاسلحة للدول العربية

١ - جريدة التايمس - عدد ٢٦ أيار ١٩٥٠ .

واسرائيل ، ستحدد بشكل يضمن السماح فقط بالاحتياجات المطلوبة لأغراض الدفاع والأمن الداخلي ، شريطة التعهد ، بأن لا تستخدم هذه الأسلحة من اية دولة ضد دولة اخرى . ومضى البيان يقول ان الدول الثلاث ...

« ترغب في التعاون على اعادة السلام والاستقرار الى المنطقة والحفاظ عليها ، وتعارض معارضة شديدة في أي استخدام للقوة ، أو أي تهديد بالالتجاء اليها بين أي دولة ودولة ثانية في المنطقة . وتعلن الحكومات الثلاث انها اذا تبينت ان اية دولة من هذه الدول تستعد لانتهاك حرمة الحدود او الخطوط التي رسمتها الهدنة ، فانها لن تتردد ، تنفيذاً لالتزاماتها بوصفها اعضاء في الأمم المتحدة ، في القيام بعمل فوري داخل نطاق الأمم المتحدة وخارجها ، لمنع مثل هذا الانتهاك للحدود » .

وقد اوضح هذا البيان كل شيء بالنسبة الى العرب . فبريطانيا وامريكا وفرنسا تستعد لمحاربة روسيا . فاذا تناولت هذه الحرب الشرق الأوسط ، فان الدول الثلاث تريد حرية الحركة والعمل ، تماماً كما وقع اثناء الحرب مع المانيا وايطاليا . وفي وسع هذه الدول ان تتوقع مشاكل كثورة رشيد عالي وحادث ١٩٤٢ في مصر . والقومية العربية الآن قوة اقوى مما كانت عليه آنذاك ، وقد تعمّقت مراراتها من مشكلة فلسطين . وعلى بريطانيا ان تكون مستعدة لإخضاع العرب ، وستكون اسرائيل حليفة لها ، وهذا ما خطط له الكثيرون من البريطانيين منذ عهد بعيد ولا سيما بالنسبة الى وضع اسرائيل الاستراتيجي من مصر . والغرض من حظ الاسلحة ، هو الابقاء على الدول العربية ضعيفة عاجزة . وكل ما يريده البريطانيون (في رأي العرب – كما يقول المؤلف) هو الحقوق والصلاحيات ، ليعملوا كما يشاؤون في الارض العربية . وليخنعوا العرب ويسيطروا عليهم ، ويجعلوا من الشرق الأوسط مكاناً اميناً للصهيونية .

وقرعت كلمات البيان على نغمة فارغة في آذان العرب . فلقد اعلنت الدول الثلاث عن « معارضتها الشديدة في أي استخدام للقوة او اي تهديد بالالتجاء

اليها ، بين اي دولة ودولة ثانية في المنطقة » .وطبعاً لا يشمل هذا القول بريطانيا او الاسرائيليين الذين خلقت القوة مراكزهم في الشرق الأوسط ، وهي التي تحفظ لهم هذه المراكز في الحال والاستقبال . وكان العرب واثقين من شيء واحد ، وهو انه اذا قررت اسرائيل التوسع فان البيان الثلاثي لن يقف عقبة في طريقها . فالرأي العام في بريطانيا وامريكا هو الذي يقرر ما تعمله حكومتا هذين البلدين ، ويعرف الصهيونيون اكثر من غيرهم ان في وسعهم تحويل هذا الرأي العام الى جانبهم في اللحظة التي يختارونها .

وتبدلت آراء الغرب في ربيع عام ١٩٥١ تجاه النوايا الروسية . فقد بدأت في ايران حركة الدكتور مصدق لتأميم شركة الزيت الانكليزية – الايرانية . وكانت هناك ازمة يتمخض عنها الوضع في الباكستان ، ووقعت سلسلة من الاعتقالات اشارت الى الخطر من النشاط الروسي الهدام . وتوصلت الدول الغربية في اواسط عام ١٩٥١ الى النتيجة القائلة بان الخطر الفوري ناجم عن الحرب الباردة المستمرة ، التي ترافقها اندفاعات على غرار ما وقع في كوريا والهند الصينية . وكانت الأزمة الايرانية في قمتها بصدد امتياز الزيت للشركة الانكليزية – الايرانية . وكان هذا هو الوضع الذي خشيت الدول الغربية ان يستغله الروس بخلق « كوريا » جديدة أو « هند صينية » في الشرق الأوسط . وكان الافتقار الى المواد والآلات والأيدي العاملة على طرفي الاطلنطي ، يحد من تقدم برامج التسلح ،ولم تتخذخطوات فعّالة ،لتحسين هذا الوضع أو تعديله .وكان الخوف من الحرب في بريطانيا يسير في اتجاه انحداري ، بينما كانت متاعب التسلح ومشاكله تسير في اتجاه تصاعدي . وكان حزب العمال الحاكم في بريطانيا آنذاك ، يرى ان الخطر الحقيقي من روسيا قائم في عمليات تخريب سياسية لا في هجوم عسكري رئيسي . وظهر في امريكا تبدل موازٍ في الرأي والاتجاه. فلقد كان الكونغرس من قبل يسأل عن اسباب الابطاء في تنفيذ الاعدادات الدفاعية وبرامجها، اما الآن فان نفس الكونغرس قد اخذ يسأل ما اذا لم تكن الجهود التي تبذل في هذا السبيل اكثر من اللزوم .

وكانت سياسة « التطويق » تشق طريقهـا . واضحى من الواجب اكمال النطاق المفروض حول الحدود الجنوبية لدول الكتلة الشيوعية .

وكان التفكير الامريكي ، يرى في الشرق الأوسط ، ثغرة متراخية في خط « التطويق » العالمي الذي يلف الاتحاد السوفياتي . واخذ برنامج النقطة الرابعة وبرنامج المساعدات العسكرية ، يسيران سيراً حثيثاً . وكان على كل عربي عاقل ان يرى الخطر الذي يهدده من العدوان الروسي . ولا ريب في ان المساعدة حجة قوية .

وبدا وكأن الحكومة الامريكية تتصور هذا الحد من « التطويق » ، حاجزاً او سداً . فالى الجهة الشمالية من هذا السد ، هناك بحر فسيح من الآثام الشيوعية، وسائل احمر قد ينساب جنوباً كما ينساب الماء من مستوى عال الى مستوى اقل منه انخفاضاً الا اذا قام هناك سد يحول دون هذا الانسياب . وبدا ايضاً انهم ينظرون الى بناء هذا السد وكأنه عملية هندسية ، تتم عن طريق تعهد للاشغال العامة . ولبناء هـذا السد يجب ان توفر الأدوات والرجال المدربين على استعمالها ، والأموال اللازمة لدفع الاجور . فاذا اعطيت لهـم الأدوات الجيدة والأجور الكافية ، فانهم سيقومون بالعمل خير قيام . ولم تكن هذه الادوات الا الاسلحة ، ولم تكن الأموال الا المعونة الاقتصادية ، اما السد فقد اتخذ شكل المواثيق الدفاعية والقواعد العسكرية . ولم يهمل الامريكيون الجانب البشري في هذا العمل في الشرق الأوسط . فكانت نظريتهم في ان اهل هـذا الشرق يتوقون بدهياً الى الحرية والى الرخاء ، وتوقهم هـذا يقودهم بحكم الضرورة الى كراهية الشيوعية وما يصاحبها من متاعب الفاقة والعبودية . فاذا اتيحت لهم الحرية ، ومنحوا الرخاء والرفاهية ، فانهم سيغدون منيعين ضد ميكروب الشيوعية . وستحقق لهم سياسة التطويق ، ما يريدونه من حرية ، وعلى هذا فان العرب سيؤيدونها .

أما بالنسبة الى الآخرين ، فقد كانت القضية موضوع تنظيم وتموين وسوقيات أي بكلمة أصح ، موضوعاً تقنياً (تكنيكيـاً) . فهناك حاجة الى تقنيين

سياسيين لهندسة المواثيق العسكرية ، وتقنيين عسكريين لتنظيم تموينات السلاح والتدريب والقواعد ، وتقنيين هندسيين ومعماريين للمساعدة في بناء اجهزة الانماء الاقتصادي والرخاء ، وتقنيين زراعيين لاستغلال الارض إلى اقصى ما يمكن من استغلال ، وتقنيين تربويين لتعليم الشعوب استخدام الاجهزة العصرية لتأمين التقدم والازدهار ، وتقنيين اجتماعيين لتلقين الشعوب على تكييف عقولهم لتقبل الطرائق الجديدة في الحياة ، وفي طليعتها الطريقة الديموقراطية التي تمنحهم الالهام والوحي .

فأي تبدل هذا كان يأخذ مجراه ! وبدلاً من ان يكون الشرق الاوسط ، في العراء ، في الجانب الخاطىء من الحلقات الدفاعية عن مجتمع الاطلنطي . اضحى الآن صلة وصل حيوية في هذا النطاق التطويقي ، الذي يلف العالم.وبدلاً من أن تعتبر الدول العربية مصدر ارباك مزعج ، فانها غدت الآن موضع « المغازلة » الملحفة ، يطلبون تعاونها ضد التهديد الروسي . وبدلاً من ان يقال لها ، ان الاسلحة لا يمكن توفيرها لها ، فان هذه الاسلحة ستقدم اليها بلا ثمن .

ولكن مع الأسف ، عندما قدم الى مصر ، مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط في عام١٩٥٢ ، لتقوم بدور قيادي في سلسلة اقليمية من المواثيق تنضم اليها جميع دول الشرق الأوسط ، رفض المصريون هذا المشروع . انهم لا يفكرون بروسيا ، بينما لا تفكر امريكا والدول الغربية بشيء آخر عداها . اما المصريون والعرب عموماً ، فلا تتجه عيونهم الا الى اسرائيل . فامريكا لا تقل جريمة في موضوع الصهيونيين عن بريطانيا ان لم تزد عليها ولا سيما في المراحل الاخيرة . والميثاق الدفاعي مع امريكا بالاضافة الى بريطانيا ، ينطوي على جميع المحظورات التي كانت قائمة في المعاهدات التحالفية مع بريطانيا وحدها ، اذ انه يشتمل على نفس البنود السياسية والقواعد والامتيازات العسكرية . وكان طموح العرب منذ نحو من اربعين عاماً يستهدف الخلاص من هذه الارتباطات التعاهدية غير المتكافئة .

وليس ثمة من جدوى في تخويفهم من « بعبع » العدوان العسكري الروسي .

وليست هذه المنظمة الدفاعية « المزخرفة » الا محاولة جديدة ، لإعادة بنـــاء الجهاز البريطاني القديم الفارض لسلطانه ، تحت اسم جديد ، وقد دخلته امريكا لدعمه واسناده ، في الوقت الذي كان فيه العرب قد شرعوا يحسون بقوتهم ، وفي الوقت الذي لم يبق فيـه امام المعاهدات القـــائمة الا بضع سنوات ينتهي امرها بعدهـــا .

ولو قامت امريكا وبريطانيا بشيء مؤثر وفعال تجاه اسرائيل ،لكان في وسع العرب ان يستجيبوا لهما . ولكنهما لا تظهران اي ميل لذلك. ولم يكن هناك ما يدعو المصريين او العرب عامة ، الى الموافقة على ان يرتبطوا كحلفاء ، فما يكاد يبدو لهم كصراع استعماري بين الدول الغربية وروسيا . وهو صراع لا شأن لهم فيه ، الا اذا تلقوا ثمناً لهذا الارتباط ، يتعلق باسرائيل ، وهو أمر ليس ثمة أي احتمال لوقوعه . وقد وقفت الهند صامدة بنجاح في وجه أية ارتبـــاطات تعاهدية . وبدأت ريح الحياد تهب في الجو . فلماذا يعتقد البريطان والامريكان ان في وسعهم ان يرغموا العرب على الدخول في هذا الحلف الجديد ؟ وبالطبع ، كان هناك من يفكر تفكيراً مغايراً . فقد كانت ثمة قلة من العرب ، يقف نوري السعيد في طليعتها ، تشعر باخطار التسلل الروسي ، وكانوا من هذه النـــاحية قلقين اشد القلق من القضية الاسرائيلية . وكان هنالك ايضاً اولئك الذين يرى فيهم الوطنيون العرب انهم جماعة من المرتبطين ببريطانيـــا والذين يعتمدون على تأييدها ويشعرون بالطمأنينة لوجود قواتها بين ظهرانيهم ، ومثل هؤلاء يقفون حتماً الى جانبنا .

ولكن مد الاجيال الصاعدة ، كان يسير بسرعة هائلة . ان لهم افكارهم المغايرة . فسياسة نوري في رأيهم لن تنجح . ولن يقـــوم البريطان او الامريكان بأي عمل ضد اسرائيل عن طريق المفاوضات السلمية الهادئة . وكان من رأيهم ان الاستقلال يجب ان يتحقق اولاً ،وان يتخلص العرب من المعاهدات والقواعد ، ثم يتفاوضون كأنداد وجهاً لوجه .

ثورة مصر

جاءت ثورة مصر في تموز عام ١٩٥٢ بعيد رفض الحكومة المصرية لمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط ، وبعد نجاح مصدق في مشكلة عبدان ، دليلا جديداً على ان الأسلوب الاستعماري القديم ، قد اخطأ من جديد . فقد برهن مصدق اولاً ، كما برهنت ثورة مصر ثانياً ، على ان في وسع دولة ضعيفة عسكرية ، ان تقف في وجه القوة الاستعمارية الضخمة وان تحقق ما تريد . وكانت الهند وباكستان وغيرهما قد اثبتت منذ امد ابعد ، صحة هذا الافتراض . وكانت حركة الضباط الاحرار ، التي تولى عبد الناصر منذ نشوئها ، حركة توجيهها ودفعها ، قد نبتت عن ذلك الاذلال ، الذي احست به مصر من استسلام فاروق المعيب في عام ١٩٤٢ أمام فوهات البنادق البريطانية ، وقد وصلت الآن مرحلة نضوجها .

ومن المحتمل ان يكون السبب في عدم تفهم انكلترا فوراً للأهمية الكاملة والكامنة في الثورة المصرية ، هو ان علاقتنا التعاهدية بمصر ، لم يطرأ عليها أي تبديل في الظاهر . فقد ظلت مصر بعد الثورة ، كما كانت قبلها ، دولة مستقلة ذات سيادة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا العظمى . وقد نصت المعاهدة ، على ان تكون لنا قاعدة السويس وامتيازاتنا العسكرية ، وما زالت هذه القاعدة والامتيازات في ايدينا . وما دام ان الحكومة الجديدة تحترم التزاماتها التعاهدية تجاهنا ، فان تبدل نظام الحكم فيها شيء لا يعنينا ابداً . وكان نفوذنا مستمداً من احترام المصريين لقوتنا ، وسنحافظ على هذا الاحترام ، اذا ظللنا ثابتين

صامدين الآن كما كنا من قبل . فالمصريون هم المصريون ، وها هي امريكا تدخل الى الميدان وتضم قوتها ونفوذها الى قوتنا ونفوذنا ، في القضية الاساسية المتعلقة بالدفاع ضد روسيا والشيوعية ، حتى ولو كانت سياستها المناهضة للاستعمار مربكة لنا .

ولكن هذه النظرة السطحية الى الامور لم تأخذ بعين الاعتبار حقائق الوضع الذي نجم عن التبدل الطارىء . ولم يكن الرأي العام البريطاني قد ادرك من قبل ان « نفوذنا » لا يرتكز على مجرد احترام قوتنا او حكمتنا ، وهي عاطفة قد ينظر بها شعب صغير نحو شعب آخر قوي وكبير ، وانما كان يرتكز على ذلك الجهاز الماكر من السلطان الذي حاولت تحليله وشرحه في الفصل الاول . وكان هذا الجهاز يتطلب التعاون الفعّال من ملك « ملتزم » يتمتع بصلاحيات دستورية تمكنه من تعيين الحكومات التي تنسجم مع آراء بريطانيا في الطريقة التي يجب أن ينفذ فيها البند التعاهدي المتعلق بالسياسة الخارجية. ولما كان الملك قد انتهى من الوجود ، وانتقلت السلطة الى مجلس للثورة جعل هدفه الأول ازاحة هذا الجهاز من طريقه ، فان الادارة التي كنا نمارس عن طريقها نفوذنا قد اختفت ، واختفى معها نفوذنا نفسه . ولم يعد في وسع وزراء الخارجية ان « يضغطوا » على الزر في داونتغ ستريت وان يقرع الجرس فوراً في غرفة مجلس الوزراء في القاهرة ، فان مجلس الثورة قد قطع الاسلاك التي تربط بين « الزر » و «الجرس». ولم تعد « بطاريات » قاعدة السويس مرتبطة باسلاك تمر بالقصر الملكي في القاهرة ، وتنتقل منه الى مكتب رئيس الوزارة المصرية فدوائر الشرطة والامن . ولم يكن هناك فائدة من الاكثار في الضغط على الزر ، او استبدال « البطارية » الكهربائية في السويس بأخرى اقوى منها واضخم ، او شتم الكهربائي او ضرب الجرس بالقدم . فقد انقطع التيار ، وتوقفت الدائرة الكهربائية ، واصبح الرجال الجدد في مصر يحملون في ايديهم اطراف هذه الاسلاك «المفكوكة»، وما لم يكونوا هم راغبين في ربطها من جديد ، فان الدائرة لن تغلق ولن يقرع الجرس . وكانوا آخر من يفكر في العالم بصنع ذلك . فهم الذين قطعوا الاسلاك عمداً وتقصداً

لأنهم كانوا يريدون ان يقرعوا جرسهم الخاص ببطاريتهم وبزرهم لا زر غيرهم .

ومنذ هذا التاريخ غدت العلاقات البريطانية مع مصر خاضعة للمصالح او العداوات المشتركة ، تماماً كما تكون العلاقات بين اية دولتين مستقلتين تمام الاستقلال . وغدت القوات البريطانية في السويس بالنسبة الى الحكومة الجديدة جيشاً اجنبياً يحتل ارضاً مصرية ، وليست له أية قوة للتأثير عليهم سوى ما يملكه اي جيش يوجه بنادقه نحو شعب آخر ، أي مجرد قوة عسكرية خالصة . ولم يعد في وسعه ان يؤثر على قرارات الحكومة المصرية الا بالقدر الذي تخشى فيه هذه الحكومة من هجوم عسكري فعلي ، اذا قامت بأشياء لا يرضى عنها البريطانيون .

وعلى الاثر ، سرعان ما ظهرت اسطورة جديدة ، خلفت الاسطورة القديمة القائلة بعدم وجود جهاز للاشراف ، وكانت الاسطورة الجديدة ان في وسعنا ، حتى الآن ، ان نمارس نفس التأثير على مصر ، وهذا يعني وفقاً لمفاهيم الحقيقة والواقع التي تقبع وراء الاسطورة ، ان السياسة التي كانت ناجحة عندما كنا نملك الوسائل لفرضها ستستمر في النجاح ، بعد ان نكون قد فقدنا هذه الوسائل .

ففي النظام السابق الذي يقوم القصر بتنفيذه ، كانت للملك وحكوماته مصالح مشتركة معنا في اخفات صوت المعارضة الوطنية وفي القضاء على الحركات الثورية . وفي اوقات الازمات ، عندما تقتضي الضرورة عرضاً للقوة ، كانت قواتنا تضاف الى قواته كمدد وتعزيز . ولهذا كان من الممكن القول ، طبقاً لمقاييس الحقيقة ، ان عرضنا للقوة كان يترك أثره ومفعوله اللذين نريدهما . وكان صحيحاً ان نقول في السابق ، اننا اذا تصلبنا فيما نريد ، حصلنا على ما نشاء . ولكن هذه « التشكيلة » ما كانت لتنجح الا لأن من مصلحة القصر وحكومته ان تنجح ، على الرغم من رغبتها احياناً في الخلاص منها . ولم يكن التدخل البريطاني للحفاظ على المصالح البريطانية ضرورياً الا في الحالات التي يختلف فيها المصريون بين انفسهم . وكان الرجال « الملتزمون » في هذه الحالة ، يحتاجون الى

تدخلنا بقدر حاجتنا اليه . اما اذا لم تكن الحاجة قائمة ، فان القوة الدفينة ما كان ليصيبها التقيّح والالتهاب . وفي كل لحظة من لحظات الأزمات ، عندما ترغب الحكومة البريطانية في فرض نفوذها ، كان المصريون يقفون مختلفين كل الاختلاف عن طريق العمل الاوتوماتيكي الرتيب للنظام نفسه . ولم تكن الحكومات البريطانية هي التي تقول لنفسها « لنفرق... حتى نسود » ، بل كان البريطانيون يملكون وسائل النفوذ ، وهذه الحقيقة المجردة كانت تثير الفرقة التي تمكن النظام من البقاء مدة طويلة . حتى بعد اختفاء أي مظهر من مظاهر التأييد الشعبي لهذا النظام بمدة طويلة . وكان النظام يقرب بين الحكومتين في اوقات المحنة ، فيجعل ملك مصر وحكومته في صف واحد مع البريطانيين ضد الشعب المصري ، حتى ولو كانت هذه الحكومة ممتعضة من هذا الوقوف . أما الآن فقد انعكست الآية تماماً ، وغدا الرجال الجدد ، في صف واحد مع شعبهم ضدنا ، وأي عرض « للصلابة » ، أو للقوة في قاعدة القناة ، كان كافياً لتوحيد المصريين والفصل بين الحكومتين البريطانية والمصرية تماماً . ففي السابق كانت الأزمات تجزىء المصريين فيميل بعضهم الى جانبنا ، بينا يقف البعض الآخر في معارضتنا ، أما الآن فان هذه الأزمات توحد المصريين جميعاً ضدنا .

وعلى هذا فكان اتّباع حكومتنا لسياسة النفوذ الظاهرة يترك اثراً معارضاً تماماً لما كانت توحي به تلك النظرية . وكانت المحاولات للضغط بهذه النظرية الى مدى ابعد عن طريق تطبيق « النفوذ » كفيلة بأن تؤدي الى توتر العلاقات والى اضعاف نفوذنا بدلاً من تقويته . وهذا ما حدث فعلاً . فقد ساءت العلاقات المصرية – البريطانية باستمرار ، وكلما كان البريطانيون يطالبون بعمل اكثر صلابة ، كلما كان المصريون يرفضون الاطاعة .

وأدت اعمال القناصة وسفك الدماء التي نشبت بين المصريين والقوات البريطانية في منطقة القناة الى تجزئة الرأي العام في بريطانيا ، وانعكست الآية تماماً . ففي السابق كانت الحكومات البريطانية التي تملك جهازاً من السلطة في مصر ، تستطيع تحقيق اهدافها السياسية لأن المصريين كانوا مفرقين . أما الآن فان

الحكومة المصرية متحدة في هدفها السياسي ضدنا ، غدت في وضع يمكنها من استغلال التجزئة الموجودة في بلادنا .

وعندما قررت الحكومة البريطانية في عام ١٩٥٤ التفاوض لعقد معاهدة جديدة مع مصر تقضي بسحب قواتنا من اراضيها في عام ١٩٥٦ وهو موعد انتهاء اجل المعاهدة السابقة التي عقدت في عام ١٩٣٦ ، قامت فئات من الرأي العام البريطاني تعارض في هذا القرار . وتصفه بانه عمل تخريبي ، لأن سحب قواتنا ينزع من ايدينا الوسيلة اللازمة لحماية شريان الحياة عبر قناة السويس ، كما يجعل اسرائيل تحت رحمة مصر . وكان من رأي هذه الفئات ان على الحكومة البريطانية ان تتصلب وتظهر قوتها ، وان تبقي على قاعدة القناة قائمة في مكانها ، فهذه القاعدة مركز من « مراكز القوة » في لغة الحديث الاستراتيجي الشائع ، والعالم الغربي منشغل في بناء مراكز القوة الجديدة حول العالم . وتمضي هذه الفئات فتقول ... فهل من المصلحة في شيء ان نتخلى عن مركز موجود ؟

وكان هؤلاء الناس على حق من الناحية العسكرية ووفقاً للتعابير العسكرية . ولقد قال تشرشل وايدن في مجلس العموم ، عندما نوقش موضوع تعديل المعاهدة ، اننا اذا تخلينا عن السويس وانسحبنا منها فان المصريين لن يوافقوا قط على عودتنا اليها ، لأنهم لا يريدون وجودنا فيها . واذا انسحبت قواتنا العسكرية ، خسرنا الاشراف العسكري على القناة والقاعدة معاً . وكانت كل خططنا الاستراتيجية ترتكز على ان نكون في موقف من يستطيع القتال للاحتفاظ بالشرق الأوسط . وكان امراً سيئاً جداً ان نخرج من عبدان ، فاذا خرجنا من السويس ايضاً ، فسرعان ما سنضطر الى الخروج من كل مكان .

وكان هذا النقاش منطقياً وسليماً الى الحد الذي مضى اليه ، ولكنه لم يمض الى حد طويل . فمن المؤكد ان السويس مركز من مراكز القوة ، اذا كانت الحسابات العسكرية هي كل ما يهم ، واذا كان التفكير الغربي في هذه المرحلة ، خاضعاً للاعتقاد بأن القوة السياسية تقاس بمعيار عسكري . وكان هذا بالضبط هو ما قرر المصريون تحديه . وكان من طبيعة المعادلة الغربية ان تترك المصريين

والعرب عموماً ، كشعب خارج الحساب . ولقد قال اللورد مونتغوميري للملك عبد الله ، ان هذا شأن الساسة . وهـــذا حق ، ولكنه ليس شأن الساسة في بريطانيا وحدها ، بل في مصر والدول العربية الاخرى ايضاً . ولم يـكن شأن الملوك والساسة الحاكمين فحسب ، بـــل شأن اولئك الذين ينتظر وصولهم الى الحكم ، والذين وصلوا اليه بالفعل في مصر . وكان هؤلاء الساسة يريدون ان يفرضوا وجودهم على المعادلة التي تريد السياسة البريطانية استثناءهم منها .

ولقد كان صحيحاً بلغة الارقام القول ، باننـــا اذا سحبنا مصدر قوتنـــا العسكرية من المنطقة ، فاننا سنخسر نفوذنا العسكري فيها . وعندما كان دعاة هذا الرأي يصلون الى النتيجة القائلة بوجوب استمرار بقاء قواتنا في المنطقـة ، فانهـــم كانوا يعنون حتماً ان نظل دائماً على استعداد والى اجل غير مسمى لاستخدام قوتنا العسكرية في فرض ارادتنـــا على المصريين . وكان الافتراض الكامن وراء هذه الحجة ، انه اما ان يذعن المصريون سياسيا لما نريد ، او انهـم في حالة الرفض ، سيرغمون على قبول بقائنا ، وهذا يعني عدم اعتبـار العواطف السياسية المصرية اعتباراً جدياً .

كان هذا هو الافتراض الكامن دائماً . وكان الفرق ، انه في ظل الملكية ، كانت لدينا الوسائل لضمان شكل الموافقة السياسية ، مما يجعل حقيقـة اعتراض الشعب ، أمراً غير ذي موضوع ، أما الآن فلم تعد لدينـــا هذه الوسائل . ولم يكن أمامنا مناص في الأوضاع الجديدة لتحقيق غاياتنا الا ان نتبع احـدى طريقتين ، واولاهما ان نظل هناك في منطقة عسكرية محظورة ، تحت حراسة عسكرية ، وضد مصر معادية لنا ، فنبدو امام العالم كجيش اجنبي يحتل قطعة من ارض مصر ضد ارادة الشعب المصري وحكومته ، وثانيهما ان نشن هجوماً من السويس على العاصمة ، فنزيل الحكومة القائمة ، ونضع على الحكم ، حكومة وديعة مستخذية ، ونحفظ بقاءها بوسائلنا السابقة المألوفة ونعيد النظام القديم . وكلتا الطريقتين تعني اللجوء الى الحل العسكري .

كان هذا هو الواقع ، ولكن المدافعين عن هذا الاتجاه ، لم يضعوه في هذه

العبارات . وكان المحافظون من اصحاب هذا الرأي المشاكس ، يعتمدون ، ضمناً ان لم يكن صراحة ، على نظرية « التغطية » القديمة ، وهي ان الشيء الوحيد الذي يحترمه المصريون والعرب عموماً هو القوة ، وان الجماهير الكبيرة من الشعب — اذا اتيح للانسان الوصول الى حقيقة ما يفكرون به — يحبذو وجود دولة قوية وصديقة وعادلة بين ظهرانيهم تتولى حمايتهم من الغزو ، وتكون مصدر تأثير لما فيه الخير لا سيما في مثل هذه الاوقات .

وكان اللورد كرزون قد ابلغ العالم في عام ١٩٢١ ، ان سعادة مصر وسلامتها امران ضروريان لسلام الامبراطورية وسلامتها . وقالت حكومة جلالته في نفس ذلك العام « وان الحكومة البريطانية لتأسف اعمق الأسف ان يساء فهمها على هذا النحو الفاضح ؛ فالعالم يعاني في كثير من اجزائه من هذه العقيدة المتعصبة والهدامة التي يبشر بها هذا الطراز من القومية. وان حكومة جلالته عازمة على مواجهتها بصلابة وثبات في مصر وغيرها . وان اولئك الذين يستكينون لها يجعلون مثل هذه المقاومة اكثر ضرورة ، ويطيلون بعملهم هذا بقاء تلك العقوبات الأجنبية التي يستنكرونها . وستظل حكومة جلالته صامدة في عزيمتها لا يلحق بها وهن او خور » .

وقد تصلح هذه الكلمات لأن تكون معبرة عن الرأي البريطاني في عام ١٩٥٤ أو في أي سنة أخرى بعد هذا التاريخ حتى وقوع ثورة العراق في عام ١٩٥٨ . ولقد ظلت الحكومة البريطانية صامدة في عزيمتها نحواً من اربعين عاماً وستستمر في صمودها ؛ لا يزعزعها تفهم ما حدث ، حتى وقع الانفجار النهائي الذي هز العالم كله .

واعدت الخطط للانسحاب من السويس الى قبرص ، حتى يكون في وسعنا ان نعود بموجب الحقوق التي حصلنا عليها بالمعاهدة المصرية — الانكليزية الجديدة ، التي نصت على ان توضع القناة تحت ادارة المدنيين وعنايتهم . وقد عملت هذه المعاهدة على الورق على الاقل ، على ارضاء الرأي العام البريطاني الذي اعتقد باننا على كل حال نملك القوة الاساسية للاشراف العسكري ، ولكن هذا

الاقتناع ، ادى بدوره الى اقتناع العرب بان هذا هو هدفنا الحقيقي . ولما كان هذا هو هدفنا الحقيقي، فقد عارضه العرب، وظل عداؤهم له كاملاً غير منقوص.

وهكذا فان مشكلة وضع اشرافنا العسكري في موضع التنفيذ ، اذا اقتضى الأمر ، تنطوي تماماً على نفس المصاعب التي كانت موجودة في السابق ، وهي انها ستعني ان نفرض ارادتنا بقوة السلاح على المصريين لإرغامهم على العمل كاصدقاء وحلفاء لنا ، طبقاً لما تفترضه سياستنا منهم . وكان الفرق الوحيد الناجم عن انتقالنا الى قبرص ، ان عودتنا ضد رغبة المصريين ستعتبر في العالم عدواناً ، وهو ما تكهن به تشرشل وايدن في عام ١٩٤٧ بصورة صحيحة ودقيقة ، وما وقع فيما بعد فعلاً .

والشيء الثابت والمدهش ، ان هذه الدولة الصغيرة التي لا وزن عسكرياً لها ، تمكنت بطريق او بآخر ، من طرد الجبروت البريطاني الطاغي والقوي عسكرياً . أما ان المصريين والعرب عامة كانوا يريدون دائماً ان يتحرروا من أي اشراف استعماري ، فهذا أمر لا يتطرق اليه الشك ، ولو ان المحافظين البريطانيين قد تمكنوا من نسيانه او تناسيه عن طريق عادتهم القديمة المألوفة في الادعاء بان جبروتنا نافع للعرب ، وانهم تبعاً لذلك يجب ان يحبوه. وكل ما حدث الآن ، هو انهم وجدوا السبيل لتحقيق الاستقلال . ولكن كيف تمكنوا حقاً من تحدي سلطاننا بهذا الشكل الناجح ؟ ويقول البعض اننا سلكنا معهم سلوكاً ناعماً ، بينما يقول البعض الآخر ، انهم لم يفعلوا اكثر ما كنا نعتقد انه حق لهم ، ولذا فقد تسامحنا معهم في فعله . ولكن الحقيقة ان تبدلات منظورة معينة كانت قد طرأت على العالم عن طريق التقدم التقني ، مما خلق اجهزة جديدة في النفوذ السياسي – الاقتصادي بين الدول ، وان هذه التبدلات قد بدأت تلتف حول جناح الادوات العسكرية – السياسية التي كانت ترتكز عليها سياستنا التقليدية في الشرق الأوسط .

وتساءل المحافظون العنيدون : واذا لم نحافظ على مراكزنا بالقوة العسكرية فكيف نستطيع ان نوقف الروس عن الدخول الى المنطقة . وقال الاخلاقيون : واذا كنا نقبل ان يظل مقياس النفوذ مستنداً الى القوة العسكرية ، فأي أمل

لكل ما ندافع عنه من قيم ومثل ؟ ولم يكن الا القليلون يسألون حقاً عما وقع ، وعن السبب في توقف نفوذنا عن العمل بين العرب ، وعن التبدلات التي طرأت والتي مكنتهم من تحدي ارادتنا ، والحصول على ما يريدون .

وبالطبع لم توجه هذه الاسئلة ، ولم يرد عليها احد . وظلت الحقيقة السياسية أننا في انكلترا اصبحنا مجزئين تجزئة عميقة . وان طبيعة هذه التفرقة تختفي وراء استقطاب الولاء الحزبي نحو احد الطرفين ، بحيث ظلت الجماهير الكبيرة من الناس في الوسط ، وقد قلقت ضمائرها كما ارتبكت ولاءاتها الحزبية الخارجية .

العالم يتبدل

لقد تبدل العالم ، وتبدل معه الجيل الجديد من العرب . فلنستعرض بايجاز ، كيف كان العرب بعد الحرب الكونية الأولى ، وكيف اصبحوا ، عندما بدأ النصف الثاني من القرن الحالي .

كان النقل الآلي ، بعد الحرب الكونية الاولى ، قد بدأ في التسلل الى الشرق الاوسط بمجموعه . اما النقل الجوي التجاري فلم يكن قد بدأ بعد . وكان السفر من لندن الى بغداد يستغرق خمسة اسابيع تقريباً . وكان المسافر العادي من بغداد الى القاهرة ، يمضي الى البصرة اولاً ليستقل منها الباخرة ويبدأ رحلة بحرية قد تستغرق بضعة اسابيع ، أو يستقل عربة تجرها الخيول صاعداً مع نهر الفرات الى سوريا حيث يستقل القطار او الباخرة منها . وهناك طريق ثالث كان في وسعه ان يسلكه ، وهو ان يجتاز الصحراء على ظهور الإبل .

وكانت الدول العظمى قد قررت تقسيم الشرق الاوسط الى نصف « دزينة » من الدول المتفرقة . وكان العرب يتطلعون الى الاستقلال الكامل . ويرفضون الحكم البريطاني والفرنسي . لكن أي عمل يقومون به كان يتطلب التنسيق والانسجام ، وكان مثل هذا التنسيق صعباً ان لم نقل مستحيلاً ، في مثل هذه الاوضاع الشاقة والمنهكة في السفر والتجوال . وكانت للبريطانيين الميزة الحاسمة في سرعة الحركة ، والقيادة السياسية الموحدة . وكان جهاز التفوق العسكري ،

قد بدأ في التركز على القوة الجوية . وكانت سياسات بريطانيا واعمالها واقعة تحت اشراف سلطة مركزية سياسية وعسكرية . فتحت تصرفنا مواصلات جوية ولاسلكية سريعة بالاضافة الى الاسلحة الجوية والسيادة على الملكوت الثالث وهو الجو . أما العرب فيفتقرون الى كل شيء .

وفي تلك السنوات المبكرة لم تكن في ايدي العرب اية عقوبات يستطيعون فرضها علينا . فليست هناك انابيب للزيت ، ولا اية ناحية عملية ايجابيـة في علاقاتهم مع بريطانيا العظمى ، يستطيعون عن طريق التهديد بوقفها او حرماننا منها او « الاضراب » فيها ، ان يفرضوا علينا سلطتهم بسببها . وكانت في مصر قناه السويس ، وكان في وسع المصريين من ناحية نظرية ان يحرمونا منهـا ، ولكن البريطانيين كانوا متمركزين في جهاز الحكومة المصرية بشكل قوي ، يضمن عدم تحقيق ذلك . وكان السلاح الوحيد الذي تستطيع أي من هذه الدول في المنطقة استخدامه ضدنا هو العنف المحلي ، ومثل هذا السلاح لا يقدر له النجاح ، الا اذا استطاعت هذه الدولة عن طريق العنف طردنا ، والا اذا استطاعت تحدينا عسكرياً والفوز في هذا التحدي ، وهو ما لا يتيسر لها .

ولم يكن هناك مناص امام الدول العربية وبينهـا مصر ، في مثل هذه الاوضاع الا ان تتبع احدى طريقتين ، واولاهما ان يأخذ الملوك والزعماء أي شكل من اشكال الاستقلال قد يكون البريطانيون على استعداد لتقديمه اليهم ، أو ان يمضوا في اضراب دائم . وفي مثل هذه الحالة ، تستطيع الحكومة البريطانية باصرار ثابت على الابقاء على سيطرتها على طرق المواصلات ، ان تتولى الادارة بنفسها بقوة السلاح وان تحكم مباشرة ، تماماً كما فعل الفرنسيون في سوريا ولبنان . وعلى الرغم من ان مثل هذه الضرورات لم تكن ترد في الحديث او حتى في الخاطر ، الا ان المحاولة التي قامت بها بريطانيا لاستعادة السيطرة على قناة السويس في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ، كانت النتيجة المباشرة لهذه العقوبة التي كانت المعاهدات ترمز اليها بوضوح .

ومنذ اللحظة التي التزم بها الملوك والحكومات بالتعاون مع البريطانيين

وكانوا مضطرين تنفيذاً لهذا الالتزام الى اشراك انفسهم شخصياً في أية اعمال قمع للعنف ، فإن عملية التحدي لم تعد قائمة . وكل ما في وسع هؤلاء الملوك وحكوماتهم ان يفعلوه ، هو اللجوء الى الاقناع السياسي مع بريطانيا . ومثل هذا الاقناع لا يمكن ان يتم ، الا اذا استطاعوا تعبئة الرأي العام البريطاني وراءهم . واذا كانت الحكومات البريطانية مصممة على رأيها وعلى عدم الاذعان ، فانها بحكم الضرورة تلقي بثقلها الحاسم ضد اية حملة خطيرة في الوطن لتحويل اتجاه الرأي العام . وكان هناك ايضاً الصهيونيون ، وهم على استعداد دائم ، لعرقلة أية مطالب عربية ولتقديم عون يسير في خط مواز للحكومة البريطانية .

ولإعطاء الصورة الواضحة عن طريق المقارنة مع هذه الاوضاع السابقة ، ننتقل فوراً الى ظروف المرحلة الأخيرة التي سندخلها الآن . فلقد تبدلت الاوضاع تبدلاً كلياً ، حتى اصبح من المتعذر تمييزها . فهناك نقل جوي عالمي وسريع من أي مكان الى مكان . وفي وسع ساسة الشرق الاوسط ورجال الحكم فيه أن ينتقلوا كما يشاءون بيسر وسهولة . وقد اختفى الاحتكار البريطاني السابق عن طريق السلاح الجوي الملكي . والاجتماعات والمؤتمرات تعقد ، في اقرب وقت ممكن وبعد توجيه الدعوة اليها مباشرة ، وفيها تدرس الآراء العربية وتنتشر ، وتبحث السياسات والاعمال .

وهناك الآن ايضاً الاذاعة . ففي وسع أي عربي اليوم ان يتحدث الى جميع العرب وان يسمع على التو واللحظة . انها سيف ذو حدين . ولكنها بالنسبة الى أية قضية تمس الصميم العربي ، اصبحت سلاحاً بالغ الاهمية .

وتحولت الكتابة العربية والشعر الى قوة حقيقية حافزة ولا سيما بعد الحرب الكونية الثانية ،وهذه القوة مغلقة على افهام من لا يعرفون العربية حق المعرفة . ولقد قيل لي ان العالم العربي شهد بعد الحرب الكونية الأولى ، بعثاً جديداً في عالم الادب . واخذت اللهجات المختلفة تختفي في استعمالات محلية ليس الا . ففي العالم العربي اليوم يتحدث الجميع بلغة سليمة ، حتى ان المثقف العربي يتحدث بلهجة ادبية صحيحة عندما يطرق في مناقشاته المواضيع الجدية . واذا استثنينا

بعض الفروق اللفظية ، امكننا ان نقول إن العربية المستعملة في الاذاعات واحدة ، الا في بعض البرامج المحلية التي توضع احياناً باللهجة المحلية لاستهلاك الطبقات غير المثقفة .

وهكذا وقعت تبدلات واضحة وجذرية ثلاثة . فوسائل الاتصال الحقيقي اولاً غدت في المرحلة الأخيرة سريعة وسهلة . ثم هناك التبدل الثاني وهو لا يقل اهمية عن سابقه ، فقد تحول سبيل الاتصال وهو اللغة العربية الى صعيد عالمي ، مستخدماً الاذاعة كجهاز لنقل الافكار . اما التبدل الثالث وهو قمة الهرم ، فهو ان الكلمات التي تؤلف النقاش السياسي وغير السياسي والتعابير التي تستخدم في هذه المناقشات غدت مشتركة بين جميع العرب من ذوي الاهمية وفي طليعتهم الساسة ورجال الحكم والكتاب والإذاعيون .

وكانت هذه التبدلات على جانب كبير من الاهمية ، لانها وضعت في ايدي العرب ، شطراً مهماً من الوسائل التي شرعوا في التدرب على استخدامها ، لتحطيم قيود الاشراف الاجنبي السياسي المفروض عليهم . وكان من الواجب ان تكون هذه الوسائل سياسية لا عسكرية ، اذ لم يكن في وسعهم ان يتحدوا فراهة البريطانيين بقوة السلاح . ولهذا فقد تركز املهم الوحيد في الالتفاف حول جناح القوة العسكرية والعمل في هذه التأثيرات السياسية التي تعتمد عليها النواحي العسكرية . وكانت اجهزة النقاش السياسي المشترك ، ضرورية . ولم تكن هذه الاجهزة متيسرة للعرب بصورة فعّالة قبل الحرب الكونية الثانية . ولكن عندما دخلت الازمة مراحلها الاخيرة ، كانت قد اصبحت في متناول ايديهم .

وبدأ العرب يتعلمون استخدام هذه الاجهزة بسرعة . وكانت التبدلات الجذرية في كيان المنظمات العالمية السياسية تقدم لهم فرصاً جديدة وثورية . وقد اتاحت لهم منظمة الأمم المتحدة منفذاً لم يكن متيسراً لهم من قبل ، ونقطة انطلاق ، كانت جديدة في نوعها بالنسبة اليهم .

وكان كل امل لهم ابان الحقب الماضية في تحقيق الهدفين اللذين يتطلعون

اليها وهما الاستقلال الكامل ، ووقف الامتداد الصهيوني يتوقف على القرارات السياسية التي تتخذ في لندن . وكان على الحكومة البريطانية ان تبحث عن اقناع الرأي العام البريطاني لا العربي في موضوع سياسة الحفاظ على الاشراف السياسي – العسكري في الشرق الاوسط . واذا ايد الرأي العام البريطاني تلك السياسة كان في وسع القوة البريطانية ان تنفذها . ولم يكن للعرب سبيل في الوصول الى الرأي العام البريطاني كما لم يكن لهم ممثلون في البرلمان البريطاني . وكانوا دائماً يواجهون هذا الموقف الجامد .

واخذ وضع جديد يظهر مع ظهور الأمم المتحدة . فهناك بورصة سياسية عالمية او سوق للآراء السياسية اخذ يترك اثراً حاسماً في الشؤون الدولية . ويقول النقاد ايضاً في غالب الاحيان ان الامم المتحدة لا جدوى منها ولا فائدة ، اذ لا سبيل لها لتنفيذ قراراتها . وينسى هؤلاء الاهمية الرئيسية لهذه المنظمة . ولعل اهم قوة في قرارات الأمم المتحدة انها تحدد وتسجل الاوضاع والمواقف التي تتخذها الدول الأعضاء فرادى ، وهي مواقف تؤثر تبعاً لذلك في اعمالها السيادية داخل حدود بلادها وفي طريقة تعاملها مع الدول الاخرى . وفي المناقشات العامة والمحادثات التي تدور وراء الكواليس يجري اختبار السوق السياسية الدولية اختباراً كاملا ، وتعرف الوفود احوال الاوراق في هذه السوق وارصدتها . وتجمل اهمية هذا الاتجاه او ذاك ، ورد فعل هذه الدولة او تلك من الأعداء او الاصدقاء ازاء الاتجاه الذي تقرر الدولة التي ينتمي اليها الوفد اتخاذه . والرأي العام العالمي حاضر دائماً هناك . وقد غدا للدول العربية صوت واقتراع هناك كما لغيرها من الدول ، على الرغم من ان الرأي العام في انكلترا لم ينتبه لهذه الحقيقة ، او انه تأخر في الانتباه اليها ، بالنسبة الى السرعة في التطور الجديد الذي وقع . وكانت الدول العربية قد حاولت منذ عدة حقب تعبئة الرأي العام البريطاني ضد حكومته ولكنها منيت بالفشل في محاولاتها . وها هي الآن تتوافر لها الوسيلة للقفز فوق رؤوس البريطانيين والوصول الى الرأي العام العالمي مباشرة . وعلى الرغم من عدم وجود تمثيل لها في البرلمان البريطاني ،

الا انها تتمتع بتمثيل كامل في « البرلمان العالمي » ، حيث تقتعد مجالسها وتسمع اصواتها في مكبرات الصوت مع بقية الدول الاخرى .

وفي هذه الندوة التقوا بعدد متزايد من الدول الاخرى ، التي وجدت نفسها ايضاً في هذا الوضع الجديد الفاتن ، الذي تقف فيه موقف الند في مؤسسة تمثل الرأي العام العالمي ، ضد ممثلي بريطانيا التي لم يكن لها مكان أو صوت في وضع سياساتها او برلمانها . وكانت الدول العظمى هي التي خلقت هذه المنظمة ، والتزمت باستخدامها في تسوية المنازعات الدولية دون اللجوء الى القوة . وفي وسع الدول الصغرى ، وبينها الدول العربية طبعاً ان تحمل الدول الكبرى على الحفاظ على كلمتها . واصبح في مكنتها ان تستمرىء طعم فرض نفوذها على الحكومة البريطانية من مكان مشرف ، بعد ان كان من المتعذر عليها ان تمسك بزمام مثل هذا النفوذ من مكان خفيض .

وكان اول اختبار حقيقي لها في الاهمية السياسية للأمم المتحدة هو ذلك الاقتراع الموالي لاسرائيل في موضوع التقسيم عام ١٩٤٧ . وعلى الرغم من ان الاقتراع ، كان بفارق قليل بين المؤيدين والمعارضين ، الا انه مكن الصهيونيين من ان يزعموا لانفسهم التأييد الدولي لوجود دولتهم ، وهي خطوة ذات اهمية سياسية بارزة . وها هم العرب الآن يحاولون استرجاع الفرصة الضائعة . ويتعلمون طريقة شد الخيوط لأنفسهم في الأمم المتحدة ، وطريقة غزل خيوط جديدة .

وها قد اقتربت النقطة التي يتحتم فيها على الحكومة البريطانية بالنسبة الى اعمالها في الشرق الاوسط ، لا ترضية الرأي العام البريطاني وحده ، بل الرأي العام العالمي ايضاً ، على الرغم من ان الحكومة البريطانية والرأي العام في بلادها ، لم يظهرا اي دليل على ادراكها هذا التبدل ، ولهذا فقد حلت بها صدمة السويس في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ، ولم يصبح عقلاهما مستعدين كلية بعد لمثل هذا التبدل . وكان الانكليز لا يزالون يرون في الأمم المتحدة منظمة يجب ان تكيّف نفسها لأهوائهم اذا ارادت العيش . ولم نكن نحلم ابداً ان زمناً سيحين ، يطلب الينا فيه ان ندافع عن انفسنا أمام الأمم المتحدة ونبرر اعمالنا .

وكانت ثمة تبدلات اخرى ذات اهمية حيوية ايضاً. فالتقدم التقني نفسه الذي خلق ثورة في طرق المواصلات ، قد جاء بتبدل كياني في المنظمات العالمية من سياسية وادارية وتجارية على العموم . ولما كان قد غدا في وسع الناس ان يرتحلوا بسرعة جواً ، فقد غدا في الامكان عقد الاجتماعات والمؤتمرات الدولية بسرعة لم تكن متوقعة . وكنتيجة لهذا فانالقرارات ذات الاهمية المحلية الصرفة اصبحت تعتمد اكثر واكثر على القرارات التي تتخذ في الاجتماعات التي تتمثل فيها شعوب عدة سواء في القضايا الحكومية او التجارية ايضاً . واسفر هذا التطور عن ان ادارة الشؤون اليومية العادية لم تعد محصورة كلياً في مراكز للنفوذ والسلطة تقوم ضمن حدود الدول المعنية التي ترتبط بعلاقات خارجية ذات طابع سفاري . وأخذت تبدو مراكز جديدة للسلطة الحكومية والتجارية ، على اسس دولية ، او لهيئات تمثل مجموعة من الدول . واخذت الادارة العملية الفعلية لمختلف الشؤون تتقاطع آلياً عابرة الحدود القومية بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ .

ونشأت مع هذا التطور علاقات اقتصادية وتقنية ونمت الى الحد الذي جعل التواكل بين الدول ، يتخذ شكلاً جديداً من نوعه . وكان الاتكال المتقاطع في الاقتصاد والصناعة في كل دولة من الدول قد بلغ مرحلة نامية متطورة . وادى التزايد السريع في التواكل عن طريق توزيع الاختصاص في التموين ، والخدمات ، والمهارة ، الى جعل اقتصادنا الداخلي حساساً كل الحساسية بحيث يتأثر بالانقطاعات التي قد تنجم مثلاً عن الاضرابات . وادى الاتكال المتقاطع بين الدول الى توسيع شقة هذه التأثيرات. وما وقع في بلاد ما قد يترك آثاراً في بلاد اخرى . وهذه الآثار قد تكون فورية ومهمة للغاية .

وخلقت المواصلات الجوية السريعة جهازاً من الدبلوماسية المتضاعفة لم يسبق للجنس البشري ان رأى شيئاً منه في الماضي . وقبل اكتشاف البرق ، لم يكن في وسع الرسائل ان تمضي بشكل اسرع مما يحمله الرسول فارساً او مبحراً. وكان في الامكان عقد مؤتمرات تضم ممثلين عن شعوب عدة ولكن لبحث قضايا ثابتة ،

طويلة الأجل ، لا شؤون متغيرة من يوم الى يوم وبسرعة فائقة . وادت البرقيات الى الاسراع في الاتصالات،وان كانت لا تعدو في حقيقتها رسائل تنقل بسرعة. وفي الوسع اجراء محادثات دولية سريعة من نوع ما في أيام الأزمات عن طريق البرقيات ، ولكن هذه المحادثات تكون اشبه ما تكون بلجنة من البكم ، الصم والعمي ، يبحثون في شؤون الدولة عن طريق تبادل رسائل بطريقة بريل ، عبر المائدة التي يجلسون اليها في جميع الاتجاهات ، دون ان يكون على رأسهم من يتولى ادارة الجلسة . أما الآن ، ولأول مرة في التاريخ يستطيع المفوضون ، ان يتحلقوا حول مائدة واحدة شخصياً وان يتباحثوا بسرعة ، هي التي يحتاجها ارسال برقياتهم وحل رموزها وتوزيعها وفهم ما يردهم من ردود عليها من جميع انحاء العالم التي منح لها حق المساواة في الاتصال .

وكانت اهمية جميع هذه التبدلات ، انه اصبح في وسع العرب الآن ، ان يعبئوا تأثيرات في السياسة الدولية لم تكن في متناول ايديهم من قبل . وهذا النفوذ ليس بالعسكري اطلاقاً ، اذ انهم في هذا الميدان ، لا اهمية نسبية لهم . ولكنه نفوذ اقتصادي — سياسي. متصل اتصالاً مباشراً بالتسهيلات الحديثة كلية ، لضمان التأثير الفعال على الرأي العام العالمي .

وقد نجح المصريون عن طريق الاستقلال السياسي الحقيقي والتصميم الذي بدا من جيل جديد من الشباب الصاعد ، في اخراج البريطانيين من قاعدة السويس نفسها على الرغم من قوتنا العسكرية المتفوقة ، وذلك في معاهدة عام ١٩٥٤ .

ولا ريب في ان اولئك الانكليز الذين اعتقدوا بأن الواجب كان يحتم علينا « التصلب والصمود » ورفض التحرك من السويس قد اخطأوا في فهم حقيقة ما حدث . فقد كنا نقف صامدين في مصر منذ خمسة وسبعين عاماً ضد شعب لم تتوافر لديه القوة العسكرية لتحدينا ، ولم يجد السبل اللازمة للالتفاف حول قوتنا بطرق أخرى . لكن التبدلات الاقتصادية — السياسية في العالم ، التي خلقها التقدم التقني ، قد جهزت هذا الشعب الآن بوسائل اخرى ، وقد مكنته

التجارب السياسية من استعمال هذه الوسائل . لكن الشعب البريطاني لم يلاحظ المعنى العملي في هذه التبـــدلات . وظلت مفاهيم النفـوذ البريطاني في الشرق الاوسط ، جامدة ثابتة لا تتغير في عالم قد تبدل كل ما فيه حتى بات بعيداً عن التمييز .

القسم الثاني

« يبدأ هذا الجزء من الكتاب بعرض للاوضاع السياسية على النحو الذي كانت عليه في شتاء وربيع عام ١٩٥٥ . وبدا ان ثمة فترة من الهدوء سيطرت على الجو بعد ان جاءت المعاهدة الجديدة ضامنة للتسوية الانكليزية – المصرية لعام ١٩٥٤ . وفجأة قام الاسرائيليون بهجوم على قطاع غزة في شباط عام ١٩٥٥ ، تبعه توقيع حلف بغداد ، فأثار هذان الحادثان المنازعات التي سرعان ما غدت مريرة معقدة من جراء الدوافع المتصارعة ، بحيث تعذر حلها بصورة سلمية .

« وقد رأينا هذه الصراعات ، كما بدت لنا في بغداد . ونحن نرقب المنافسة بين نوري السعيد وعبد الناصر ، كما نرقب ازمة السويس وحربها في عام ١٩٥٦ ، وازمة سوريا ومبدأ ايزنهاور في عام ١٩٥٧ ، وازمتي لبنان والاردن عام ١٩٥٨ ثم اخيراً ثورة العراق .

« وبينما تأتي كل ازمة من هذه الازمات وتمضي ، يظل السؤال هو عين السؤال : ما هي النتائج في العراق على نوري السعيد بالنسبة الى هذا الوضع الاجتماعي المضطرب .؟ وكان هـذا هو السؤال المهم ، ذلك لأن سقوط نوري يعني انهيار حلف بغداد عند العرب ، وسقوط قوس السياسة البريطانية تجاه الشرق الاوسط العربي » .



نحو الساعة الفاصلة

بدا في فترة انفراج التوتر التي تلت معاهدة عام ١٩٥٤ بين مصر وانكلترا ، وكأن نوعاً من التسوية العامة على وشك ان يسود الشرق الأوسط كافة . فقد اضحت مصر الآن مستقلة تمام الاستقلال ، واتفق على ان تجلو القوات الاجنبية في صيف عام ١٩٥٦ . ومن المتوقع ان تنتهي المعاهدة العراقية – البريطانية في عام ١٩٥٧ ، ويصبح العراق مستقلاً ايضاً ، وهذا ما توقعه العرب على الاقل .

لكن البريطانيين والامريكيين ، كانوا تواقين كل التوق لإدخال الشرق الاوسط في نظامهم الدفاعي . وقد نسي الناس منذ امد طويل منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط القصيرة العمر . وكانت صورة هذه المنظمة تقوم على اساس ان مصر قاعدتها ، وقناة السويس مركزها الاستراتيجي ، ثم تنتشر شمالاً نحو الحدود الروسية . أما الآن فقد تصور المستر دالاس ، مشروعاً آخر ، وهو « الحزام الشمالي » ، الذي يعني خطاً يضم تركيا وايران وباكستان التي تؤلف مظهره الرئيسي ، مع المؤخرة العربية تمتد وراءه نحو الجنوب . وكانت اهم الدول العربية في هذا المحتوى ، العراق وسوريا ولبنان والاردن .

وبدأت فكرة « الحزام الشمالي » الجديدة ، تداعب الافكار والعقول بشكل متزايد . وتوصل الامريكيون مع العراق الى اتفاق لتزويده بالمعدات الحربية . وتم انشاء حلف جنوب شرق آسيا ليؤلف سداً في الشرق الاقصى يمتد غرباً الى الباكستان . وانضمت اليونان وتركيا الآن الى حلف شمال الاطلنطي . ووقعت تركيا والباكستان في شهر ايار عام ١٩٥٤ ميثاقاً عسكرياً . ولم يبق هناك الا

ايران والدول العربية . ومن المحتمل ان لا تدخل مصر ، فروح الحياد قد بدأت تظهر قوية فيها حتى قبل الثورة ، وكان مثال الهند مشجعاً لعبد الناصر الذي كان قد تولى الحكم شخصياً في خريف عام ١٩٥٤ . ولكن غياب مصر عن المحتوى الدفاعي الجديد لن يشله: ذلك لأن التوقيع قد تم على المعاهدة المصرية – الانكليزية ، وبدت العراق كدولة مرشحة قوية له . والعراق من الناحية الجغرافية اكثر تعرضاً للخطر الروسي من أية دولة عربية اخرى ، وهو يحتل مركزاً مفتاحياً مهماً بالنسبة الى المواصلات والزيت . والعراق في ظل الهاشميين وعلى رأسه رجلهم القوي نوري السعيد يؤلف حكومة يمكن ان يركن اليها دائماً على انها موالية لبريطانيا وللغرب ومعادية اشد العداء للشيوعيين .

أما بالنسبة الى اسرائيل ، فقد بدا ان المشاكل آخذة في طريق الخفوت . وكانت حكومة اللواء نجيب قد وقعت اتفاقاً مع وكالة الاغاثة الدولية لإسكان خمسين الف لاجيء فلسطيني في قطاع غزة . وعلى الرغم من ان صرخات التهديد في الدول العربية الاخرى ضد اسرائيل لم تنقطع ، الا ان اياً من هذه الدول لم تكن على استعداد لنقل هذه التهديدات الى مرحلة التنفيذ .

وكانت الدول العربية الاخرى تنظر الى مصر في هذا الوقت أي في عام ١٩٥٤ بعين الشك والتخوف . فالملكيات العربية كانت لا تثق حتماً بنظام جمهوري ثوري . ووقعت المشكلة بين حكومة الثورة والاخوان المسلمين ، ولم يكن المصريون يبدون اهتماماً كبيراً آنذاك بالجامعة العربية . ولم تكن قد بدأت بعد زعامة عبد الناصر للحركة القومية العربية ، وان كان قد تولى الحكم في مصر مع رفاقه من رجال الثورة بعد تنحية اللواء نجيب .

وبدأت رياح التفاهم تهب في خريف عام ١٩٥٤ .فقد اتفق على الخطط اللازمة لاستقلال السودان . وبدا ان الانكليز والامريكان كانوا في أمس الحاجة الى تعاون العرب حتى انهم فكروا بدفع الثمن الذي يطلبه العرب ، وهو الحل الموافق للعرب في مشكلة اسرائيل .

وقمت في تشرين الاول وتشرين الثاني من عام ١٩٥٤ بجولة في العواصم العربية

زرت في غضونها بغداد ودمشق وبيروت وعمان والقاهرة . ولم أجد دليلاً اثناء زيارتي على ان اياً من الدول العربية تفكر تفكيراً جدياً بالقيام بأي عمل عسكري ضد اسرائيل . وكان كل ما تطلبه هذه الدول هو ضغط بريطانيا وامريكا على اسرائيل لاقناعها بقبول قرارات الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ كأساس لتسوية مشكلة اسرائيل . وكان الزعماء العرب قد الحوا الى ذلك تماماً . وكان وايزمن نفسه قد حث على « وجوب حمل العرب على ان يشعروا بأن قرار الأمم المتحدةنهائي ، وان على اليهود ان لا يتجاوزوا على اية اراضٍ خارج نطاق الحدود التي اعطيت لهم بموجب مشروع التقسيم »[1] . واذا كان رئيس دولة اسرائيل يوصي بذلك ، فلم يكن من غير المعقول ، ان لا يطلب العرب نفس الشيء . وكانت الأمم المتحدة قد اقرت وجوب السماح للاجئين العرب بالعودة الى دورهم وممتلكاتهم ، ولم يكن من غير المعقول ، ان لا يريد العرب ما قررته الأمم المتحدة .

وبدت في نفس الوقت بعض الدلائل على الايجابية في اسرائيل . واعتقد العرب ان لهذا التطور علاقة بالقطيعة الاقتصادية التي فرضوها على اسرائيل . وخيل اليهم ان اسرائيل تقع تحت ثلاثة اشكال من الضغط ، خانقة اقتصادية بسبب المقاطعة ، وضعف في عطف الغرب السياسي عليها ، ونمو في القوة العربية بسبب اقبال الامريكيين والبريطانيين على مغازلة العرب وتزويدهم بالسلاح من جديد .

وكانت القضية من وجهة النظر العربية تعتمد على امرين ، اولهما ان على العرب انفسهم الاحتفاظ بجبهة موحدة في رفض الانضمام الى ميثاق دفاعي تلبية لرغبات البريطانيين والامريكيين الا اذا نفذ هؤلاء نصيبهم من الصفقة باقناع اسرائيل بقبول تسوية معقولة . واذا خرجت اية دولة عربية على وحدة الصف العربي وانضمت الى ميثاق مع الدول الغربية ، فإنها بعملها هذا تجزىء الجبهة العربية ، وتضفي قوة نسبية على مقاومة اسرائيل .

---

١ - هانسارد المجلد ٣٤٧ عمود ١٩٦٧ .

اما الامر الثاني فهو في اسرائيل ، ويعتمد على أي من الاتجاهين الفكريين سيتغلب ويقوى . وكان ليوبولد ايمري المتوفى قد كتب في عام ١٩٥٣ يقول... « ان الكثير يتوقف على الدرجة التي تتلطف فيها طاقة الاسرائيليين القلقة ، وثقتهم الاستفزازية بانفسهم ، بفعل الحماس الروحي الذي كان دائماً مصدر الهام للحركة الصهيونية . فنجاح الصهيونية النهائي يعتمد على تأثيرها كرسالة ثقافية اكثر من اعتماده على مفعولها كاستعمار عسكري »[1] .

واذا تغلبت الرسالة الثقافية ، اصبح في الامكان الوصول الى تسوية .

وكان الانطباع الذي جمعته من جولتي في خريف عام ١٩٥٤ ، ان العرب كانوا يأملون أملاً حقيقياً في نجاح الضغط الانكليزي – الأمريكي السياسي على اسرائيل ، وان تسوية عادلة سيتم الوصول اليها لقضية فلسطين . ولو حدث هذا لكان في الامكان سياسياً ان تشترك الدول العربية في تعاون دفاعي مع الغرب . ولمست في كل مكان زرته ، الاعتقاد بأن نوري السعيد ، اذا تخلى عن هذه الورقة الرابحة بالانضمام الى الميثاق الجديد الذي كان اعداده يسير في الطريق ، ليصبح عما قريب حلف بغداد ، فإن عمله هذا سيجزىء وحدة العرب ، وسيمكن اسرائيل من ان تنزل بهم الارتباك والفوضى .

وكانت اسرائيل هي القضية المهمة الحاسمة للجميع ، ولكن جماعة عبد الناصر كانوا ينظرون اليها من زاوية تختلف عن الزاوية التي ينظر اليها منها اتباع نوري السعيد . ولقد ذكر لنا جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » ، ان القضية الصهيونية ليست المحدّد النهائي في تفكيره . وهذا ليس بالأمر العسير على الفهم . فالمصريون كانوا يطالبون بالاستقلال عن السيطرة الاستعمارية . ويثورون تأييداً لهذا الطلب ، قبل ان يخلق وعد بلفور بأمد طويل . ولم يكن الملك السابق فاروق ومن يحيط به من الوزراء ، قط راضين شخصياً عن الحركة الصهيونية . ومن العدل ان نقول ان الجيل الجديد من العرب وبينهم المصريون – وهم جيل عبد الناصر – كانوا يرون الصهيونية واسرائيل على انهما جزء من جهاز

---

١ – ليوبولد ايمري – حياتي السياسية ، المجلد الثاني ١٩٥٥ .

السيطرة البريطانية . وبالطبع لم يكن هذا الجيل ليغفر استعمار الصهيونيين للارض العربية او ينسى هزيمة ١٩٤٨ المرة ، ولكنه يرى من الناحية العملية ان الخطوة الأولى يجب ان تكون في تحرير جميع البلاد العربية من السيطرة الاستعمارية . وقد تحرر المصريون وبرهنوا على ان في وسع العرب ان يتحرروا. واذا ما تحقق هذا التحرر بصورة صحيحة اخيراً ، امكن للعرب ان يتحدوا وأن يحاربوا اسرائيل ، دون ان يضطروا الى الالتفات وراءهم ليروا ماذا يفعل البريطانيون عن طريق ابواب قصور الملوك الخلفية . واتباع سياسة وطنية صحيحة وقاسية ، هو الطريق الوحيد الذي يرغم الانكليز والامريكان على وجوب اتخاذ اجراء ما تجاه اسرائيل .

اما نوري السعيد ، فعلى الرغم من تصميمه ايضاً على ان شيئاً ما يجب ان يعمل مع اسرائيل ، الا انه كان يرى وجهة نظر معاكسة تماماً لهذه النظرية من ناحية الوسائل. فقد اتبع خطى سيده الملك فيصل الأول، وغدا ملتزماً تمام الالتزام بالتعاون مع البريطانيين . واذا قدر لشيء ان يتم في موضوع اسرائيل ، فيجب ان يتم هذا الشيء بطريق التعاون مع بريطانيا وامريكا ايضاً ، لأن هذين البلدين هما اللذان يمدان اسرائيل بالقوة . فالقادة العرب الذين يخرجون على هذه السياسة سيجدون ان الحكومتين البريطانية والامريكية تقفان ضدهم ، وقد ضمنتا بمساعدة الصهيونيين النشطة دعم الرأي العام في بلديهما . ومهما بلغت درجة استقلال الدول العربية ، فان عطف انكلترا وامريكا وتأييدهما أمر جوهري . واذا ما عاديتهما فان تأييدهما سيتجه حتماً وبصورة مفهومة نحو اسرائيل . واتباع سياسة وطنية قاسية هو الطريق للتأكد من ان بريطانيا وامريكا لن تعملا شيئاً مع اسرائيل .

ويعود عهد هذا الانقسام في الرأي بين العرب الى ايام وعد بلفور . فلقد كان ثمة دائماً المتطرفون الذين يريدون العمل في تحدي بريطانيا ، وهؤلاء المتطرفون هم الذين كانوا يعتبرون انفسهم اعظم من قيصر ، فعملوا على التقريب بين البريطانيين والصهيونيين . كما كان هناك دائماً المعتدلون العرب الذين تعاونوا

مع بريطانيا .

وكان الانقسام من الناحية الاساسية قضية اتجاه فكري يتناول الطريقة السياسية لمعالجة المشكلة المزدوجة وهي كيفية الحصول على الاستقلال الكامل وتسوية المشكلة الاسرائيلية . وكان الرأيان المتعاكسان يتمثلان في الجيلين القديم والطالع . فاولئك الذين يؤيدون طريقة الوصول الى الاستقلال اولاً ثم معالجة اسرائيل ثانياً ، اتجهوا بطبيعة الحال في افكارهم ، نحو اولئك الرجال الذين خطوا بالفعل الخطوة الاولى في هذا الاتجاه ، وهم عبد الناصر وجماعته في مصر . اما اولئك الذين اعتقدوا ان خير طريقة هي كسب التأييد الانكليزي الامريكي اولاً عن طريق التعاون معنا في تنفيذ ما كنا باشد الحاجة اليه وهو الدفاع ضد روسيا ، ثم المطالبة بالتأييد في موضوع اسرائيل كمكافأة على تعاونهم ، فقد اتجهوا بدهياً نحو حامل لواء هذه السياسة البارز وهو نوري السعيد في العراق .

وهكذا كان هناك انطباع ظاهري في خريف عام ١٩٥٤ وشتاء ١٩٥٤ — ١٩٥٥ ، يوحي بأن ثمة تسوية لموضوع اسرائيل في الطريق ، وانه ، على ضوء هذا الانفراج في التوتر فان البلاد العربية وبينها مصر ، سترى جدوى من الانضمام الى حلف مع الانكليز والامريكيين مع كل ما يحمله هذا الحلف من فوائد وثمار . كان هذا هو الظاهر ، أما في الباطن ، فقد سارت التيارات المتعارضة بقوة وعنف . فهل يحطم نوري السعيد الجبهة العربية بالانضمام الى حلف غربي قبل ان يدفع الغرب ثمن هذا الانضمام في موضوع اسرائيل ؟ وهل يتغلب الفريق الداعي للحرب في اسرائيل ويجعل الوصول الى حل وسط ، أمراً مستحيلاً ؟ واذا انضم نوري السعيد الى الحلف فهل تتبعه جماهير العرب أو انها تنقلب الى الجانب الوطني المعارض ، الذي كان عبد الناصر قد بدأ يتولى قيادته ؟

ولم تكن العلائم في العراق نفسه مرضية كل الرضا . فقد عاد نوري السعيد الى الحكم في شهر ايلول بعد صيف عاصف في الحياة السياسية في عام ١٩٥٤ ، مدعوماً بانتخابات آمن الجميع بتزييفها لتمكينه من السيطرة البرلمانية . وأعلن

نوري حل الاحزاب السياسية في البلاد ونزع منها صفة الشرعية . وكمت افواه المعارضة فاغلقت صحفها . وبدا انه لا يستطيع الركون الى تأييد شعبي اصيل ، اذا كان يخطط لادخال العراق في تحالف جديد ، يحل محل معاهدة عام ١٩٣٢ التي كان من المقرر ان تنتهي في عام ١٩٥٧ أي بعد عامين . وكانت هناك قضية اساسية ،وهي هل يستطيع نوري والعهد كله البقاء اذا اختفى العون البريطاني؟.

ولقد كان التدخل البريطاني العسكري في عام ١٩٤١ هو الذي مكن العهد ونوري السعيد من التغلب على ثورة رشيد عالي . فاذا انتهت المعاهدة وانسحبت القوات البريطانية ، فقد كان هناك الكثيرون من العراقيين يترصدون لاخراج نوري ، ان لم نقل للاطاحة بالعهد كله ، ولاستخدام الاستقلال الكامل بطريقة قوميـــة صحيحة تماماً كما فعل المصريون . والشيء الوحيد ، الذي كان هؤلاء يهملونه او يسقطونه من حساباتهم هو انه لو كان نوري السعيد على حق في اعتقاده بان تحدي الانكليز والامريكان سيدفع بهؤلاء الى العطف على اسرائيل وتأييدها ضد العرب ، فان اسرائيل هي التي ستربح في هذه الحالة ، وان العرب هم الذين يخسرون . وكان نوري وجماعته يحسون احساساً قوياً بمشكلة اسرائيل ، وكان خلافهم في موضوعها على الاساليب لا الغايات .

ومضى نوري السعيد في طريق التحالف . وادى هذا الى تجزئة العالم العربي . وعاد بن غوريون الى الحكم في اسرائيل ، وفي شباط عام ١٩٥٥ شنت اسرائيل على المصريين في قطاع غزة ، ما اسمته لجنة الهدنة المشتركة التابعة للأمم المتحدة ، « هجوماً مرتباً من قبل ، ومحكم التخطيط » . وكتبت صحيفة التايمس اللندنية في مقالها الافتتاحي تقول :

« ... وكانت النتيجة أن مرارات العرب عادت الى التركز على اسرائيل ، في نفس الوقت الذي كانت الدول العربية منقسمة في موضوع الخطط الدفاعية الواسعة للحلف العراقي التركي ، وقد استهوت هـــذه الخطط بعضها ... والشيء الثابت والمؤكد هو ان آمال الغرب في قيام علاقات افضل بين مصر واسرائيل قد تهاوت وتحطمت »[1] .

---

(١) صحيفة التايمس اللندنية – عدد ٢ آذار ١٩٥٥ .

ولم يكن قول التايمس مبالغة ابداً . فقد اقتنع العرب الآن ان اسرائيل قد حزمت امرها على عدم التساهل او القبول بالحلول الوسط ، وان الصهيونية الداعية للحرب ، قد تولت الأمر ، واخذت تستعد لجولة جديدة تقتطع فيها جزءاً آخر لنفسها مما تسميه « ارض اسرائيل » . وبدأت جماعات الفدائيين العرب تنشط بعد ان نظمتها مصر ، وهذا أعطى للصهيونيين ذريعة للادعاء بنوايا العرب المحاربة . ووقعت سلسلة من الهجمات العسكرية الاسرائيلية المنظمة على البلاد العربية المجاورة ،قبل ان يطرق عبد الناصر ابواب الروس طلباً للسلاح بعد ان عجز عن الحصول عليه من بريطانيا،مما اعطى اسرائيل ذريعة ثانية لاتهام مصر بالنوايا العدوانية .

وفي هذه الاشهر الحاسمة من ربيع عام ١٩٥٥ ، عندما كان جميع الفرقاء المعنيين يتأهبون للساعة الفاصلة ، قام الدكتور ايلمر بيرغر ، المدير التنفيذي للمجلس اليهودي الامريكي – وهو مؤسسة غير صهيونية – بجولة في العواصم العربية واسرائيل ووجه رسائل الى رئيس المجلس نشرت في آب عام ١٩٥٥ [٢] . ولعل فيما كتبه عن الجو المسيطر على العرب والاسرائيليين اهمية خاصة .

فقد كتب في الخامس من حزيران عام ١٩٥٥ يقول :

« ترفض البلاد العربيـــة التفاوض مع هيئة سياسية في اسرائيل ، تعتبر نفسها ، كما يعتبرها اليهود غير الاسرائيليين،رأس الحربة في مطامح اليهود القومية في الشرق الاوسط . وقد عدت مقتنعاً تمام الاقتناع ، بان ثمة املاً في مفاوضات سلمية حول القضايا البارزة ، اذا اقتنعت الدول العربية ان الطرَف الثاني ، لا يعدو دولة اخرى عادية في المنطقة مستعدة للاسهام في تقلبات المنطقة والمشاركة في تطورها على اساس من الاحترام والمساواة » .

وكتب في نفس التاريخ يقول :

« شرع احد الاشخاص الذين تحدثت اليهم في رومه عن انطباعاتي ، في

---

(٢) الدكتور ايلمر بيرغر – « على من يعرف افضل ان يقول ما يعرفه » .

عرض بعض الآراء التي ارى سردها مشفعاً اياها بما تستحقه من مشاعري.
فهو يرى ان اسرائيل تود الحصول على صلح الآن ، ولكنه ليس بالصلح الدائم . وهو يعتقد ان هـذه الغارات التي تقوم بها اسرائيل على الحدود وهذا التوتر العسكري المستمر ضمن سياسة « الثـأر » يستهدفان بعث الفزع في الدول العربية بصورة فردية املاً منها في حمل احداها او اكثر على الدخول في تسوية معهـا . وتستطيع اسرائيل آنذاك ، عن طريق الصهيونية ، كما فعلت في الماضي ، ان تقول انها حققت الصلح بقوتها وانها تبعاً لذلك ليست ملتزمة بأي التزام دولي ، حتى تجـاه أي من الدول الكبرى ، لاحترام السلام في الوقت الذي ترى فيه اسرائيل ان من مصلحتها نسيان هذا السلام . وهـذا الرجل مقتنع كل الاقتناع ، بان اسرائيل تريد قبل كل شيء ، تجنب صلح للشرق الاوسط يحظى بضمانة دولية ، وهذا هو السبب الذي يدفعها الآن الى معارضة لجان الهدنـة التابعة للأمم المتحدة اشد المعارضة . وكان هذا الشعور قوياً في الشرق الاوسط بين رجال وكالة الاغاثة الدولية وموظفي الأمم المتحدة الذين اجتمعنا اليهم هناك .

« واشار هذا الرجل الذي يعمل في السلك الخارجي ايضاً الى ان الحكومة الاسرائيلية واقعة تحت رحمـة المتطرفين، تماماً كبعض الدول العربيـة .

« ولعل خير ما يعبر عن منطق الصهيونيين بجـلاء ووضوح هو ما تكتبه حيروت (الصحيفة الاصلاحية) ، وهذا ما اثبته الماضي ايضاً. فقد كان جابوتنسكي اقرب الى الواقع من وايزمن . وبن غوريون هو الواجهة « المحترمة » لهذا الموقف . والوقت يمر سراعاً باسرائيل . فبعد عشر سنوات على اكثر تقدير ستكون مصر والعراق دولتين قويتين بمعايير الشرق الاوسط ومقاييسه ، ولن يجدي عون الولايات المتحدة والصهيونية العالميـة ، امام الوضع المتبدّل بسرعة في الشرق الاوسط

نفسه . ولهذا فالاصلاحيون يرون ، اما الآن واما ضياع الأمل . وهذا ما يحمل هذا الرجل على الاعتقاد بان القيادة الاسرائلية ، طبقاً لما تفعله الدول العقائدية ، قد تقامر بكل شيء في محاولة يائسة للانتصار على سباق الزمن .

« ونحن جميعاً متفقون على ان الضحايا الحقيقيين المساكين لكل هذا هم اللاجئون العرب ورجل الشارع في اسرائيل . وهذا بدوره شيء ليس بالمستغرب او المستهجن. فاذا استمرت الاتجاهات الراهنة، فسنرى هؤلاء التعساء مرة ثانية ضحية للشقاء وللافتقار الى المأوى .

« وسيكون اليهودي الامريكي، بين الضحايا ايضاً ، وهذ شيء متفق عليه . فقد يستطيع الانسان ادعاء البراءة امداً طويلاً ، وقد يستطيع آخر، طلب الظروف المخففة بسبب الاعمال المتطرفة التي ارتكبها زمناً طويلاً ايضاً . ولكن شكل اسرائيل غدا الآن دولة ذات سيادة ومسؤولية ملموسة ، وهي لا تخفي « اشتراكها » مع جميع اليهود . فاذا قبض على « الشراكة » متلبسة بجريمة القيام باعمال تتنافى مع الدين والخلق ، فمن الصعب على احد الشركاء ان يحرر نفسه من الجريمة ، بادعاء جهله حقيقة ما يقع داخل الشراكة .

« واني اكتب كل هذا ، لأنني اعتقد ان عليكم جميعاً ان تعرفوا انني بعد ان اعدت النظر مرتين وثلاثاً ، في كل ما فكرت به اثناء الايام الخمسة التى اقمتها في اسرائيل ، وبعد ان قارنت ملاحظاتي بملاحظات مراقبين واسعي الخبرة والاطلاع ، واعدت هذه المقارنة ، ارى ان لا مبرر لي مطلقاً في تبديل آرائي الاساسية . وانه ليسرني ان ادرك ، ان تجاربي الشخصية غير السعيدة ، لم تبعدني عن الحقيقة . واني لآسف من الناحية الثانية اسفاً شديداً على ان ملاحظاتي الكئيبة العادلة ، تقف وجهاً لوجه امام التحقيقات التي قام بها هذان الرجلان » .

وكتب في الثامن والعشرين من ايار يقول :

« انني ارى ما ارى ، وقلبي مفعم بالاسى ، إذ ان المأساة تخيم على اجواء هذا المكان وعلى ارضه ، اذا كان ما اعرفه عن القوى السياسية والاجتماعية صحيحاً، وقد تشمل المأساة يهود العالم كلهم، لأنهم قد سمحوا لهذه الدولة ، ووكلائها الصهيونيين ، بان تنشأ ، وان تخلق هذا الارتباك بين « يهوديتهم الصحيحة » وبين هذه « اليهودية العلمانية » الممثلة في هذه الدولة ذات السيادة السياسية .

« يا الهي ! هل صحيح ان « على اليهود ان يختاروا » ، وانهم لا يستطيعون ان يتخلصوا الى الابد من التعقيدات التي يحيونها هنا على اسس من البراءة والخير في الوقت الذي لا ينظر فيه بمثل هذه النظرة من الخير الى الشعوب الاخرى غير اليهودية .

« آه لقد كنا على حق دائماً ، وما زلنا ، فزيت الديانة اليهودية العالمية لا يمكن ان يمتزج بهذا الماء من اسرائيل القومية .

« وانا واثق من كل ما قلته ، واشعر بالعرفان بالجميل رغم ما احسست به من قلق في هذه الايام ، لأولئك الذين اصروا على مجيئي الى هنا ، اذا كنت ارغب في القيام بهذه الرحلة . ولقد كان تفهماً رائعاً من العرب الذين تحدثت اليهم ، ان يوافقوا على مجيئي الى هنا لأرى الأمور بنفسي . وما زال العرب بعيدين عن الكمال ، ولم اتردد عن الافضاء لهم برأيي هذا ، ولكنهم يعرفون الحقائق ، وان الحقائق تتحدث بفصاحة عن نفسها ، وان الاسرائيليين يخشون ان تسمع الحقائق كما تتحدث عن نفسها ، دون ان ترافقها تفاسيرهم الفارهة ».

وانضمت بريطانيا الى حلف بغداد في نيسان عام ١٩٥٥ ، كما وقعت معاهدة جديدة مع العراق . وعلى الرغم من انها كانت معاهدة مخففة بالنسبة الى سابقتها الا انها كانت كافية لاقناع المعارضة الوطنية بان الاستقلال الكامل الذي كانوا يتطلعون اليه بانتهاء المعاهدة السابقة قد حُرِّم عليهم ، وان اللعبة القديمة عادت الى « الشنشنة التي عرفناها من أخزم » .

وظل البيان الثلاثي الذي وقعته امريكا وبريطانيا وفرنسا ، ضماناً من الناحية النظرية ضد اية محاولة قد تقوم بها اسرائيل لاغتصاب اراضٍ جديدة بقـــوة السلاح . وكان الوطنيون العرب ، يرون ان امريكا بين هــذه الدول الثلاث هي التي تموّن اسرائيل بالمال ، وان بريطانيا هي التي جزّأت العالم العربي عن طريق حلف بغداد ، وان فرنسا ، كما نقلت الانباء ، تتفاوض مع اسرائيل لتزويدهـا بطائرات « ميستير » النفاثة ، المقاتلة ، وهي تمثل طرازاً من الطائرات ، احدث عهداً من اية طائرات يمكن للعرب ان يحلموا بالحصول عليها من بريطانيا وامريكا . وها هي القوات المصرية المسلحة ، بعد اربع سنوات من حظر بريطانيـا السلاح اليها تقف في وضع مؤلم ، بينما تسير اسرائيل في طريقها . وكانت فرصـة نوري السعيد الوحيدة ، ان يدفع البريطانيون والامريكيون له ، جائزته السياسية في موضوع اسرائيل .

ولم يتفجر الصراع الذي قدر له ان ينفجر فيما بعد ، بقوة كاملة في صيف عام ١٩٥٥ . وكان البريطانيون يأملون في دخـول الاردن في حلف بغداد ، وفي دخول لبنان بعد الاردن . ومن المحتمل ان تنضم سوريا ومصر فيما بعد ، وكانت بريطانيا قد رفعت الحظر الذي فرضته على الاسلحة الى مصر والبلاد العربيـة الاخرى اثنـــاء فترة الانفراج التي جاءت عقب توقيـــع المعاهـدة المصرية ـ الانكليزية في عام ١٩٥٤ . وتوافر الأمل لعبد الناصر الآن على الأقل في الحصول على الاسلحة الكافية للدفاع في وجه أي هجوم اسرائيلي . واوفـد رئيس اركان حرب قواته الجوية الى انكلترا في بعثة لعقد صفقة طائرات . ويقول المصريون ان الحكومة البريطانية قد افهمته بانها ستسمح له بالشراء . وبالطبـع لم يكن من مصلحة الغرب ، السماح لاسرائيل بأن تقوى وتبني نفسها عسكرياً بمساعدة فرنسا ، بينما يضن على العرب بكل شيء . وكان البريطانيون والامريكيون في حاجة ظاهرة الى تعاون المصريين والعرب عامة . ومن المحتمل ، حتى في هذ الوقت ، وبعد ان حطم نوري السعيدالجبهة العربية المتحدة ان يتم شيء في سبيل تحقيق هذا التعاون . وكان المحك ، هل يسمح البريطانيون لعبد الناصر بالحصو

على السلاح الذي يحتاج اليه .

وهكذا فعلى الرغم من ان الفرقاء في الصراع قد بدأوا يتشابكون في صيف عام ١٩٥٥ ، الا ان القتال الحقيقي لم يكن قد بدأ بعد . وكانت هناك فرصة لا تزال ماثلة . ولكن قوة القومية العربية كانت قد بدأت تركز حملاتها واستنكارها على حلف بغداد وعلى نوري السعيد . ومضى عبد الناصر الى مؤتمر الدول الافريقية — الآسيوية في باندونغ الذي كان له اثر بالغ الاهمية في ضم الرأي العام في الكتلة الافريقية — الآسيوية وفي تقوية مركز عبد الناصر في تصميمه على الحياد،وهو أمر لم تدرك انكلترا اهميته البالغة في ذلك الحين.وها قد وصلنا الى عتبة ثلاث سنوات من الصراع قدر لها ان تنتهي بتلك الثورة في العراق.وفي هذا الانفجار الأخير ، انطلقت قوى اجتماعية كانت مكبوتة منذ امد طويل من عقالها . وعلينا ان ننتقل الى العراق لنرى حقيقة ما كان يدور فيه آنذاك .

القلق في العراق

كانت الاجراءات الداخلية الصارمة التي اضطر نوري السعيد الى اتخاذها عندما عاد إلى الحكم في خريف عام ١٩٥٤ دليلاً كافياً على وجود توتر شديد في البلاد، كان قد قوي امره الى حد كبير حتى قبل الخلافات التي اثارها حلف بغداد. وكان ثمة انقسام حاد بين افراد جيل نوري السعيد على موضوع التعاون مع بريطانيا عن طريق المعاهدة. وكان هؤلاء الذين يعارضون نوري، من نفس طبقته الاجتماعيــة، ومن اصحاب الاملاك والاموال، الذين يمكن للشانئين من افراد الجناح اليساري تسميتهم بالاقطاعيين. وكانت معارضتهم لنوري قائمة على اساس سياسته الخارجية لا على اساس السياسة الداخلية. وكان هؤلاء قد وصلوا مرحلة نضوجهم في العهد العثماني ايضاً تماماً كنوري السعيد، ولذا فقد كانت مطامح الجيل الاصغر سناً الاجتماعية غريبة كل الغرابة بالنسبة اليهم.

أما الجيل الاصغر، وقــد تثقف مهنياً في الغرب وتطعّم بالآراء التقدمية المصبوغة احياناً بالفكر الاشتراكي، واحياناً اخرى بآراء متطرفة، فكان يمثل معارضة من نوع آخر. وكان افراد هــذا الجيل بصورة خاصة يبدون علائم مزعجة من التململ والسخط، على سير المشاريع الاقتصادية التي كان مجلس الاعمار العراقي يتولى تنفيذها بالأموال المتوافرة لديه من عائدات الزيت.

وكانت هناك ميزانيــة كبيرة للاشغال في العراق منذ عشرين عاماً أي منذ بدأت عائدات الزيت المتواضعة ترد الى الخزينة العراقية من شركة بترول العراق

في عام ١٩٣٦ . ولكن الحكومة العراقية وقد اصبحت تتوقع مبالغ اضخم من المال من هذه العائدات ، انشأت مجلس الاعمار ليكون مسؤولاً بصورة مباشرة عن ادارة برنامج للمشاريع الضخمة الرامية الى التنمية الاقتصادية .

وكانت هناك مشاريع معينة يحتاج اليها العراق حتماً ، بعد ان توافرت له الاموال ، واهمها مشاريع تخفيف خطر الفيضان وبناء خزانات لميـــاه الري ، ومشاريع للري ، وطرق وجسور ومحطات لتوليد القوى الكهربائية وبنــاء مدارس ومستشفيات ، ومشاريع صناعية . وتتطلب مثل هذه المشاريع كلها الكثير من الوقت . فاعمال المسح والدراسات يجب ان تتم ، ثم توضع المخططات والشروط ، وتوجه الدعوات للاشتراك في المناقصات وتدرس المناقصات ، ثم يشرع في الانشاء . وكان أي مشروع ضخم يتطلب منذ بدايته حتى نهايته اربع سنوات او خمس على اقل تقدير . فالبرنامج الذي وضع في النصف الثاني من عام ١٩٥٠ وفي عام ١٩٥١ والذي يشتمل على عدد من المشاريع الكبيرة ، ما كان من المنتظر ان يبدي نتائج كاملة ملموسة قبل عام ١٩٥٥ . ولا ريب في ان النتائج الاقتصادية للاشغال الضخمة الطويلة الأجل التي هي من هـــذا النوع ، ستتطلب بحكم الضرورة وقتاً اطول لكي تنضج وتصبح جاهزة .

وعلى الرغم من سلامة القرار باستثمار عائدات الزيت في المشاريع الضخمة ، الا انه بالنسبة الى النتائج الفورية ،إذا استثنينا بعض المـــال الذي كان ينفق في عمليات الانشاء الفعلية ، تبدو فوائده للشعب بعيدة وآجلة . وبلغت عائدات النفط في عام ١٩٥٤ نحواً من خمسين مليون دينار في السنة مع احتمال مضاعفة هـــذا المبلغ في المستقبل القريب . وكان عدد سكان العراق يبلغ نحواً من ستة ملايين مجموع دخلهم القومي، اذا استثنينا عائدات الزيت ، أقل من مائتي مليون دينار في السنة. واذا أخذنا الارقام بصورة نسبية كانت عائدات الزيت مصدراً كبيراً من مصادر الثراء . فاين كانت تذهب هذه العائدات ؟

وكان ظهور الانتقاد من السكان الفقراء الذين يتطلعون الى حصتهم والذين لا لا يفهمون شيئاً عن استثمارات الرساميل الطويلة الأجل ، أمراً لا مناص منه .

وكان الاكثر ازعاجاً ان البرنامج بدا مثقلا للغاية بالمشاريع الضخمة التي لا يتجاوز عددها الآحاد ، دون اهتمام بالحشد الكبير من اعمال الاصلاح الصغيرة التي تحتاج اليها القرى والارياف في طول البلاد وعرضها ، وكذلك المدن الصغيرة والأحياء الحقيرة في المدن الكبيرة ، وهي اعمال يمكن ان تؤدي الى منافع فورية يحتاج اليها الشعب في مجموعه أمس حاجة . وكانت مظاهر السخط المتزايدة دليلا كافياً على ان الثروة المفاجئة لاتكون اكثر ضماناً لسعادة الشعوب من الافراد .

وعينت الحكومة العراقية اللورد سولتر في ربيع عام ١٩٥٤ لمدة سنة واحدة ليتولى دراسة البرامج الاقتصادية كلها وليقدم تقريره . وقد قدم « خطته العملية » الى مجلس الاعمار في ربيع عام ١٩٥٥ [1] . وكان هذا الموعد ، هو الوقت الذي انضممت فيه الى المجلس كعضو دائم فيه اعطيه كل وقتي .

وكان سولتر قد عمل معظم ايام السنة في بغداد ، يحضر اجتماعات مجلس الاعمار ويجمع المعلومات اللازمة . وقد نبعت نصيحته عن بعض نقاط النقد الأساسية التي توجه الى برنامج المجلس القائم والى سياساته ، وقال في تقريره ان « الاهتمام قد اولي بشكل كبير الى الخزانات والسدود ومشاريع المياه بينما اغفلت اشكال التطوير الأخرى ، وتركت دون درس او مباشرة بصورة فعالة » . ولم تكن هناك خطة موضوعة لاستعمال المياه التي ستجمع في هذه الخزانات الضخمة التي تقرر انشاؤها . ولم تبذل الا جهود واموال ضئيلة للغاية لمشاريع انمائية تضمن الحصول على نتائج سريعة . ومضى تقرير اللورد يقول .. « وكان الاسكان ، وهو اكثر مشاريع المجلس التي تستطيع تحقيق نتائج سريعة ومرئية بصورة مباشرة تمثل امام الرجل العادي وضوحاً ، لا يلقى اية عناية الا على نطاق لا يكاد يذكر . ولم تبذل الا جهود قليلة بصورة تدعو الى الاسف لتحسين احوال الزراعة وتنميتها » . واعرب عن اعتقاده بان « المجلس قد فكر في واجبه في حدود المفاهيم المادية ليس الا ». ويبدو ان المجلس لم يتأثر « بالحجج المنطقية القائلة بان هناك رأسمال انسانياً ،بالاضافة الى رأس المال المادي ، وان

١ – اللورد سولتر – تطوير العراق – ١٩٥٥ .

استثمار الرساميل ، قـد يمكن ان يستخدم بصورة اكثر صلاحاً وجدوى في تحسين صورة الطاقـة البشرية » . وكان من الحري بالمجلس تماماً ان يعني مثلاً باتخاذ اجراءات ذات طبيعة واسعة لمعالجة الأمراض المستوطنة كالبلهارسيا مثلاً، والقيام باجراءات اخرى للعناية «بصحة البيئة» ، وكانت مياه الشرب والخدمات العامة الاخرى في حاجة الى العناية . وستكون نتيجة التركيز على هذا النحو الشديد على مشاريع طويلة الأجل وضخمة ان الزيادة الناجمة في الانتـاج ، وبالتالي في الرخاء العام ، لن تتحقق الا بعد سنوات طوال .

واشار سولتر الى التذمر العام فقال « ان خطورته لا تقل لانه لا يجد تعبيراً كافياً نسبياً عنه في البرلمان » ، واوضح النقد العام الموجه الى سياسة الري التي يتبعها المجلس وقال : « ان الأهداف الفورية للسياسة في بلاد تضم مثل هـذا العدد الصغير من السكان (ستة ملايين) ، يجب ان لا تكون في فتح اراض جديدة (عن طريق مشاريع الري الجديـدة) ، وانما في مساعدة المزارعين الموجودين فعلاً ، لضمان ان ما يزرع حاليـاً من الارض ، يستخدم باحسن السبل الممكنة ، لتحقيق احسن الفوائد ، ولتأمين ما يحتاج اليه لتحقيق هذا الغرض . والقيام بمثل هذا العمل اهم بكثير واكثر ضرورة من تأمين الري للأراضي الـتي يحتمل زراعتها » . ولكن سياسة المجلس تكاد تكون عكس هـذا تماماً ، وكانت خطة الري تستهدف اولاً وقبـل كل شيء بناء عدد من وسائل الري الجديدة لاستصلاح الاراضي العذراء . ولم يكن ثمة الا مـكان ضيق في البرنامج الحالي لمشاريع تحسين جهاز اقنية الري الموجودة وزيادتها . وقد وضعت مشاريع لتصريف المياه من الاراضي المروية حالياً وادرجت في بنـود البرنامج ، ولكن شيئاً كبيراً في هذا الاتجاه لم يتخذ أو يقرر .

وانهى اللورد سولتر تقريره قائلاً ان العيب في السياسة قائم في « الافتقار الى نظام اداري فعال يقوم بتنفيذ الاعمار وتنسيق مشـاريعه » . واری لزاماً علي اقتباس تعليقه كاملاً اذ قال :

« وارى من الواجب انهاء كل دراسة مستقلة لمشاريع المجلس الاعمارية

ونواحي سياسته الرامية الى التطوير ، بهذا التأكيد على الافتقار الى الادارة الفعالة ، تماماً كما أظهرت في الفصول المتلاحقة من هذا التقرير...

وبدون هذه الادارة هناك خطر كما رأينا في بناء خزانات عظيمة وسدود ، تخزن المياه التي لا يمكن استعمالها و (بعد اخراج المزارعين الحاليين العاملين فوق اراضي الخزانات من بيوتهم) ستجري هذه المياه الى البحر دون ان يستعملها احد ، تماماً كما كان يحدث من قبل ، وقبل ان تبنى هذه الخزانات. وهكذا فان المياه التي تختزنها الخزانات والتي تصبح متوافرة ، ستظل ضائعة سنوات طويلة لأن الاقنية المتصلة بها ، لم تبن في الوقت المناسب ، وحتى لو انشئت هذه الاقنية ، لتعذر استخدامها ، لعدم وجود نظام لتصريف المياه بعد استعمالها ، قد اعد او بني مع اقنية الري أو قبلها ، وحتى لو افترضنا عدم وجود خطأ في توقيت وتنسيق انشاء الخزانات واقنية الري والتصريف ،فان الترتيبات لم تتخذ في الوقت المناسب لاختيار المزارعين الجدد واسكانهم ،واقامة المجتمعات الجديدة بصورة عامة في الاراضي التي استصلحت حديثاً للزراعة، وإن توسيع الانتاج الزراعي وزيادة الرخاء في الاراضي القديمة والمستصلحة حديثاً ، سيهملان في الوقت الذي يمكن فيه بمجرد انفاق القليل من المال الحصول على نتائج نافعة لا تتناسب مع النفقات، كما ان الافتقار إلى الادارة يؤدي الى انشاء طرق سيارات تزدوج مع الخطوط الحديدية القائمة بدلاً من ان تكون مكملة لها ، والى ان بعضها قد ينشأ ثم يدمر نتيجة الافتقار الى تأمين الصيانة العادية أو الى منع السيارات ذات الزنة المعينة التي لم تنشأ هذه الطرق لتسير عليها هذه السيارات ، من المرور فوقها . وكذلك فان ما يحدث اثر تبدل الحكومات من تغييرات في صفوف الموظفين ، يجعل السياسة والادارة معاً مفتقرتين الى عنصري الثبات والفاعلية ، كما يؤدي فشل توقيت المشاريع الرئيسية وتحديد مواقعها بحيث يخلق المنافسة في نفس الموارد المحدودة من الايدي العاملة

والمهارة والمواد ، الى التضخم والى الحاق المتاعب العظيمة بفئات كثيرة من السكان كما يؤدي الى تأخير في تنفيذ مشاريع المجلس نفسه وزيادة نفقاتها . وسيؤدي التذمر العام الذي احدثه الفشل في تخصيص اجزاء هامة من الموارد العامة الناجمة عن الزيت لتحقيق منافع عاجلة وواسعة ومرئية للناس ، الى زيادة عدم الاستقرار السياسي .

« وتنجم جميع هذه الاخطار المحتملة التي اعدت هنا موجزها ، بالنسبة إلى ما سبق لي سرده ، عن العيوب الموجودة في الادارة ، والتي توجد في درجات متفاوتة في الادارات الحكومية الأخرى في مختلف البلاد . وقد اكدت على هذه العيوب هنا لانها تعرقل عمل الادارة — داخل المجلس وخارجه — وهو العمل الذي يتوقف عليه نجاح سياسة الاعمار في العراق ، ولان الفرصة العظيمة والفريدة المتاحة الآن في العراق عن طريق الاتحاد بين الفرصة المستثمرة ، وبين موارد الاستثمار تجعل الفشل او العجز خطيرين الى حد كبير ، بل باعثين على المآسي . »

وكانت في التقرير نغمة التحذير والانذار ، فقد قال اللورد سولتر « ان الشعب ، قد تتوافر له القوة العظيمة التي لا تتناسب مطلقاً مع ما له من تمثيل راهن في البرلمان ، ومن قدرة على التأثير على التشريع بالطرق الدستورية . ولا ريب في ان المفارقة بين القوة السياسية المتوقعة ، والقوة السياسية الآنية ، هي التي تؤلف الخطر ، وتكون الصعوبة في المشكلة نفسها » .

وقد حلل سولتر الاخطاء القائمة واوضح بشيء من التفصيل والاسهاب ، ما يجب ان يعمل لاصلاح هذه الاخطاء . وكان لعمله وتأثيره في المنطقة وعن طريق التقرير فعل عظيم . فقد شرع المجلس في عام ١٩٥٥ في برنامج اسكان واسع يشمل البلاد كلها ، وخصص له مبالغ ضخمة من المال .

ولعل النقطة الجوهرية جداً التي اشار اليها سولتر في تقريره الشامل الذي اقتبست منه المهم من فقراته العامة ، تتعلق بخطر نقل الفكر والمشاريع بالجملة ، من تجارب البلاد الأخرى المتطورة تطوراً عظيماً ، وذات الاقتصاد والمنظمات

المركبة ، دون الاهتمام الكافي بصلاح هذه الفكر والمشاريع لظروف العراق واوضاعه . وارى لزاماً علي من جديد ان انقل ملاحظاته في هذا الصدد كاملة غير منقوصة :

« ان العراق ناجٍ لحسن الحظ من الصعوبات الرئيسية التي توجد في البلاد المتخلفة والفقيرة في آن واحد أو البلاد التي تحتاج الى اعادة البناء بعد حرب مدمرة ومخربة (وهو مسرح اكتسبت فيه شخصياً خبرة عظيمة)، كالافتقار الى الرساميل اللازمة للاستثمار العام ، وعدم استقرار النقد ، وزيادة النفقات زيادة كبيرة على الدخل المتوافر ، وعدم وجود توازن بين المدفوعات ، ووجود نقد يفتقر الى التنظيم أو منخفض الى حد بخس . وفي مثل هذه الاحوال تكون مهمة التخطيط مخالفة تماماً واكثر سهولة . ويجب ان يركز الاهتمام على اهداف قليلة معينة . وتقيد الحدود الضيقة للأموال المتوافرة ، بحكم الضرورة التطوير الجديد لرأس المال ، ضمن الحدود التي تبدو قوتها الانتاجية بشكل واضح . وليس ثمة في هذه الحالة الا مجال ضئيل للاختيار ، وهذا المجال الضيق سهل في حد ذاته . ويعني هذا التحديد في العادة عدم وجود صعوبة ناجمة عن ازمة في اليد العاملة ، وان التعديلات التي يجب ادخالها ، نتيجة التطور الجديدة في الجهاز الاداري او في غيره من مجالات النشاط ، قليلة وبسيطة .

« وقد لا يفطن المرء دائماً الى ان التجربة التي مرت بها بلاد اخرى تقف في الناحية الاخرى من ميدان التطور ، قد تكون مضللة ايضاً . ففي بلاد صناعية عظيمة يمكن القيام بمشاريع ضخمة جداً كمشروع وادي تنيسي مثلاً ، عندما يثبت صلاح المشروع من الناحية التقنيّة ، وعندما يتوافر المال اللازم ، دون خشية او قلق من المتاعب الثانوية او النتائج . فالثراء الضخم في العمال الفنيّين والمهرة ، الذين يمكن نقلهم من مكان الى آخر ، يؤدي الى عدم ظهور حاجة الى اصلاحات تلوية في النظام التعليمي العام أو في اساليب التدريب وطرقه ، بالاضافة الى ان

البيئة المتطورة تطوراً كاملاً في حقل الادارة العامـة وفي الخدمات الصحية الفعّالة ، قائمة فعلاً منذ امد بعيد . واذا لم نرغب في ان تؤدي التطويرات المقترحة في العراق الى كارثة ، فمن الواجب اتخـاذ ترتيبات خاصة للتدريب ، وخلق خدمات عامة جديـدة كشيء لا بد منه . وهكذا فالاحكام المبتسرة القـائمة على تجارب بلاد أخرى متقدمة في ميدان التطور ، قد تكون موجهـاً مضللاً ، وغير صحيح للسياسة في بلاد كالعراق » .

وكانت انطباعات السياسات التي انتقدها سولتر ، قد اكسبت اعمال مجلس الاعمار زخماً ، لم يكن من السهل استجابتـه بسرعة الى أي تغيير في السياسة . واحداث تعديلات فعّالة في برنامج مشاريـع ضخمة يعمل على اساس فترة خمس سنوات ، يتطلب وقتاً طويلاً . وليست القضية موضوع الشروع في طراز جديد من الاعمال ، فجميع الموظفين والخبراء ، كانوا قـد عينوا على اساس البرنامج الذي سبق تقرير سولتر . وكانت التبدلات التي نحتاجها ، تتطلب عدداً اضافياً من الرجال ذوي الخبرة الخاصة ، قبل ان نتمكن من اعداد فكر جديدة ان لم نقل تنفيذها . وهكذا كان هناك عمل جبار امامنا .

وكان نوري السعيد شديد الاهتمام باعمال المجلس . ولم يحدث قط ان تأخر عن حضور الجلسة التي يعقدها المجلس مساء كل يوم سبت الا اذا كان خارج البلاد . واذا حدث واضطرته اعمال الدولة الى التغيب عن الاجتماع ، وهذا أمر نادر ، فقد كان يطلب تأجيله ، حتى يتمكن من حضوره . وقرر اقـامة مجلس يضم رؤسـاء الوزارات السـابقين لدراسة تقرير اللورد سولتر . لكن هذه الدراسة لم تؤد الى اية نتيجة . وعلى الرغم من حيويته ، لم يكن يجد الوقت الكافي لإدخال اصلاحات غدت تزداد يوماً بعد يوم في الحاحها وضرورتها . وانا لا اعني بقولي هذا اصلاحات كالاصلاح الزراعي مثلاً النـاجم عن افكار التقدم الاشتراكي فحسب ، بل ذلك الطراز من الاجراءات العملية التي كانت البلاد في أمس الحاجة اليها لوضع جميع هذه المشاريـع الجديدة التي كنا نقوم ببنائها تحت جهاز اداري

فعّال . واني لأشك كل الشك فيما اذا كان نوري السعيد قد فهم تماماً ضرورة هذه الاصلاحات . وكان اشتباك القضايا الناجم عن هذا التوسع الاقتصادي المفاجىء ، يتطلب مجالاً من الخبرة لم يكن متوافراً له ، كما كان يتطلب تركيزاً في الفكر والجهود لم يكن في وقته ما يسمح له به . لقد كان كل ما يبحث عنه هو النتائج ، النتائج المحدودة والمشاريع التي تم تنفيذها والتي يستطيع عرضها كدليل على التقدم الاقتصادي . اما الاشياء الاخرى فلا تهمه .

وكان شيئاً يشبه المعجزة ، ان تتمكن الادارة من التوسع ، لتماشي هذا التضخم في الانفاق والنشاط ، وتستطيع الصمود معه . وكان هذا يعني اتساعاً مفاجئاً في الخدمة المدنية ، وهو ينطوي بحكم الضرورة والواقع ، على تهاون في الكيف لتحقيق الكم . ونجم عن هذا ، انه مع تضخم العبء وازدياده أخذت كفاية جهاز الخدمة المدنية تضعف ، وفقاً للمعايير المطلقة . وتحتم علينا في مثل هذه الظروف ان نكيف برنامجنا ، بحيث يصبح في امكانه ان يستخدم الى اقصى حدود الفعالية الجهاز الاداري ، محولاً الواجبات التنفيذية ، الى كل جهة ممكنة من جهات السلطة التنفيذية ، وان نتجنب المشاريع التي تخلق حاجة الى اعباء ادارية اضافية ، الا اذا كانت هذه المشاريع ، ضرورة ملحة لا يمكن تخطيها.

وادى هذا المبدأ الرئيسي ، والتوجيه الشامل الذي صدر عن اللورد سولتر الى تزويد البعض منا ، ممن يعملون في مجلس الاعمار ، بنقطة انطلاق واضحة لكن البعض الآخر من اعضاء المجلس ، لم يكونوا ينظرون بعين العطف لا الى افكار اللورد سولتر ولا الى افكارنا . وكان لا بد للتبدلات التي نريدها في السياسة ان تثير سخط اولئك الذين ركزوا مصالحهم على السياسات التي كانت قائمة من قبل ، سواء اكانوا من العراقيين المعنيين مباشرة أو من الاجانب .

وعندما حل خريف عام ١٩٥٥ ، كان هناك ميل الى طريقة تفكير اللورد سولتر ، ولكن كان ثمة افتقار الى وسائل تنفيذ تلك الافكار ، كما ان المجلس بدوره لم يكن متحداً في طريقة تفكيره . ولم يكن الخبراء والمستشارون الاجانب الذين يعملون معنا من المدربين او الفاهمين لفن خلق المجموعات الضخمة

من المشاريع الصغيرة ، حتى ولا العدد القليل من المشاريع الكبيرة . وكانت الادارة سائرة في طريق الضعف ، بينما كانت ادارة مشاريع المجلس السابقة تضيف اعباء ادارية متزايدة . وسأتحدث عن كل هذه المواضيع في فصل لاحق . وكان كل ما نحتاج اليه قيادة قوية من جانب نوري السعيد ، ولكنه كان مثقلا باعباء سياسته الخارجية ،ولم يكن من النوع الذي يعهد بصلاحياته الى وزرائه . وكنا اذا تمكنا من اثارة اهتمامه باحد المشاريع التي تتطلب العمل ، فان هذا العمل يقع فعلاً . وقد وقع هذا بالفعل في مشاريع الاسكان ، وسرعان ما وضعت سياسة عامة تضمنت برنامجاً شاملاً للبلاد كلها في صيف عام ١٩٥٥ . أما بالنسبة الى المشاريع الباقية ، فقد كان نوري السعيد يلح علينا طالباً القرارات للبدء بمشاريع جديدة . ولكن العناصر المهمة في النجاح وهي التخطيط الاداري والتشريع والاصلاحات ، كانت مفقودة تماماً .

التوتر يشتد

اخذ التوتر بين القاهرة وبغداد يشتد خلال صيف عام ١٩٥٥ ، كما اشتد بين الدول العربية واسرائيل . وقد تلت هجوم اسرائيل المعد والمخطط له على قطاع غزة في شهر شباط عام ١٩٥٥ ، هجمات اخرى . فماذا يفعل البريطان والامريكيون ؟ لقد غلّ نوري العراق يديه بانضمامه الى حلف بغداد . أما عبد الناصر مصر فما زال مطلق اليدين . وكان البريطانيون قد وافقوا من ناحية المبدأ على تزويده بالسلاح لاغراض الدفاع ، ولكن « اللولب » السياسي ، كان قد خرج على السيطرة . فقد رفعت بريطانيا الحظر الذي فرضته على تصدير الاسلحة الى مصر اثناء فترة جو الانفراج السياسي النسبي في خريف عام ١٩٥٤. اما الآن ، فان مصر تهاجم حلف بغداد علنا ، وتذيع دعاية معادية لبريطانيا وفرنسا تنشرها في آسيا وافريقيا . وقد ساعد عبد الناصر على احباط الجهود التي بذلناها لإشراك الاردن في حلف بغداد ، وتشير جميع الدلائل إلى انه يتأهب لمعركة مع اسرائيل ، بعد ان نشطت قوات الفدائيين واخذت الصحف البريطانية تستغل حوادثهم الى اقصى حدود الاستغلال ضد مصر . واصبح من الصعب على أي وزير بريطاني ان يقف في مجلس العموم علناً وان يبرر اعطاء الاسلحة لعبد الناصر . فحزب العمال البريطاني سيستشيط غضباً لأن مصر تهدد اسرائيل وحزب المحافظين ستثور ثائرته لأن عبد الناصر يهاجم حلف بغداد .

فهل تقوم الحكومة البريطانية بتزويد مصر بالاسلحة التي وعدتها بها ام لا تقوم ؟ هذا هو السؤال الذي كان له طابع سياسي بارز . فليس في وسع الحكومة البريطانية ان تتجاهل ضعف مصر العسكري ، اذا انقضت سنوات اربع دون ان تحصل مصر على طائرة واحدة او قطعة من سلاح . ولا يمكن ان تكون الحكومة البريطانية ليست على علم بالمفاوضات الدائرة بين فرنسا واسرائيل حتى تتولى الأولى تزويد الاخيرة بالطائرات النفاثة المقاتلة من طراز ميستير ، ولا بالدلائل التي تشير الى ان اسرائيل عازمة على الهجوم . فاذا رفضت بريطانيا ان تعطي مصر السلاح ، فان رفضها لا يعني في نظر العرب الا شيئاً واحداً ، وهو ان الحكومة البريطانية تعتزم مساندة اسرائيل ضد العرب ، تماماً كما تنوي فرنسا ان تفعل . وكانت دعايات عبد الناصر المناهضة لبريطانيا وفرنسا ، تحول بسرعة الرأي العام البريطاني والغربي ضد العرب ، تماماً كما كان الرأي الوطني العربي يتجه ضد الغرب . وكان العرب يرون ان اسرائيل تستفز عبد الناصر ، بقصد الهاب الرأي العام البريطاني ضد العرب ، واعداد العدة لغزو جديد تحت ستار الدفاع عن النفس .

واستمرت هجمات اسرائيل العسكرية على الدول العربية المجاورة . ومضت بريطانيا في حرمانها مصر من السلاح . واتجه عبد الناصر الى روسيا في شهر آب عام ١٩٥٥ .

وبدا للعرب ان من الطبيعي بالنسبة لعبد الناصر ان يصافح ايدي رجال الكرملين في عدائه لخصمه اسرائيل ، تماماً كما فعل روزفلت وتشرشل اثناء الحرب لمواجهة عدوتهم المانيا النازية . ولم يكونوا ليصدقوا ان هذه المصافحة تعني ادخال الشيوعية ، كما ان مصافحة تشرشل وروزفلت لم تدخل الشيوعية الى بلادهما ابان الحرب . وروسيا دولة عظمى لها نفوذها العالمي العظيم . ومن قبيل الصدفة انها دولة شيوعية ، فنفوذها ليس مستمداً من شيوعيتها بل من قوتها . وكان كل ما يريده عبد الناصر هو تأييد قوتها لا تأييد شيوعيتها ، اذ لم يكن ثمة شك لدى العرب في ان اسرائيل تعد العدة للهجوم عليهم ان عاجلا

وان آجلاً . واذا كانت فرنسا ستقف الى جـانب اسرائيل ، و«ذا» بريطانيـا ستقف نفس الموقف ان لم تقف في الظلال ، فماذا ينتظر من العرب ان يفعلوا سوى الحصول على العون من جهة اخرى ؟ ان اسرائيـــل تفعل تماماً ما كان ينتظره العرب . انها تنخز وتستفز الى ان يقوم متطرف بين العرب فيتـــولى قيادتهم . وهنا ينقسم العرب فالمتطرفون يتهمون المعتدلين بانهم عملاء للمستعمرين البريطانيين والمعتدلون يتهمون المتطرفين بانهم يغضبون البريطان اصدقاء العرب الوحيدين . وهنا تأتي الدولة العظمى الثانية ، وهي خصم بريطانيـا ، فتدخل الى المسرح وتدعم المتطرفين . وقد مثلت هذه الادوار من قبل المفتي والمعتدلين والايطاليين في فلسطين قبل الحرب الكونية الثانية، ومن رشـــيد عالي ونوري السعيد والالمان في العراق في عام ١٩٤١ ، ومن عبد النـــاصر ونوري السعيد والروس الآن .

ولم يكن الشعب البريطاني يـــدرك ان التهديـد الروسي الخارجي للشرق الأوسط يختلف في نوعيته عن التهديدين النازي والفـــاشي . فالفلسفة السياسية النازية والفاشية ، اذا صح تسميتها بهذا الاسم ، كانت قـــائمة على الدم والعرق . ولضم بلاد اخرى الى سيطرتها ، كان من الضروري ، اللجوء اولاً الى الفتـح الفعلي . وعلى الالمان أو الايطاليين ان يعبروا الحدود بالدبابات والطائرات وان يخضعوا العدو ويفرضوا عليه ارادتهم وحكمهم .

أما الطريقة الروسية فمختلفة تماماً . فالشيوعية ليست فلسفة قائمة على الدم والعنصر ، وانما هي نظام فكري وطريقة في الحياة ، في وسع أي انسان من أي لون وعنصر ان يتعلمها وان يعتنقها. وطريقة التوسع الخارجي تكون اولاً في العقل لا في الهيكل. والعرب ، اذا استثنينا قلة قليلة كانت لا تزال خاضعة للنفوذ الغربي ، لم يكونوا ليبحثوا عن الشيوعية كعقيدة ، ولكنهم في الوقت نفسه مـا كانوا يخشون الاحتلال العســكري الروسي كما خشوا في الماضي من احتـــلال الألمان والطليان .

وكان قرار روسيا بالتدخل صراحة في سياسات اصطراع القوى في الشرق

الأوسط تبدلا مفاجئاً . وكان الروس منذ انتهاء الحرب ، يتبعون بطريقة لا حماس كبيراً فيها اسلوبهم التقليدي في تهديم الشرق الأوسط عن طريق الشيوعية . ولم تفلح هذه الطريقة لان البلاد العربية لم تكن تضم منظمات للقوى الداخلية جاهزة ، كالنقابات مثلاً ، تتمكن من تحدي الدولة من داخلها . وكان الجيش في الشرق الاوسط هو الدعامة الاساسية للدولة ، وكانت الجيوش قومية بفضل تدريبها وتركيبها ، ولا تصلح مطلقاً لان تصبح ادوات لتحقيق الاهداف الشيوعية . ولم تكن القومية العربية مدينة بشيء للشيوعية ، لا سيا وانها كانت تمثل حركة بورجوازية بصورة رئيسية . ولم يكن في وسع روسيا بوصفها رأس رمح الشيوعية ، ان تؤثر على الملوك والزعماء ، ولا على غيرهم باستثناء قلة من الرجال ذوي العقيدة والمدربين تدريباً شيوعياً . وعندما بدلت روسيا سياستها ، واضفت على هذا التحول اعترافاً علنياً بتقديمها السلاح الى عبد الناصر ، بدت فجأة في عيون القوميين العرب في صورة مغايرة تماماً لصورتها السابقة . ولقد كان البريطانيون والامريكيون منذ سنوات طويلة يحذرون العرب من انهم سيتعرضون الى الغزو الروسي الا اذا قبلوا احلاف الغرب ومساعداته . لكن القوميين العرب يرون ان اسرائيل هي التي ستغزوهم ، بموافقة فرنسا وبريطانيا الضمنية ان لم يكن بمساعدتها . وها هم الروس على استعداد الآن لمساعدة العرب. وبدلا من ان يظهروا بمظهر الذي يريد غزو العرب . وها هم الروس يبدون في هيئة الذي يريد حمايتهم من الغزو . وهكذا اتجه خط الدعاية البريطانية اتجاهاً معاكساً .

كان العرب يقولون .. اذا كانت نية بريطانيا صادقة في وقف اسرائيل عن محاولة التوسع ثانية ، فلماذا لا توضح نيتها هذه بصراحة وجلاء ? ولقد حاول نوري مدة طويلة العمل مع بريطانيا ، ولعلها اطول من اللزوم ، فلم يحقق شيئاً . وكان يقول للبريطانيين « ساعدوا اصدقاءكم » ، فيتلقى الكثير من الوعود والتطمين ، ولكن عندما تحين الفرصة ، كان الصهيونيون يتغلبون عليه دائماً . ومن الحق ان يقال ، ان بريطانيا كانت ملتزمة بحماية العرب من اسرائيل،

بقدر التزامها بحماية اسرائيل من العرب . ولـكن مجرد ان اسرائيل حصلت من العرب على اكثر مما كانت اية حكومة بريطانية قد تعهدت به او وافقت عليه ، كان دليلاً كافياً للعرب على ان حماية بريطانيا لاسرائيل كانت سارية المفعول ، بينما لم تكن حمايتها للعرب نافذة ابداً . وكانت ثمة مواد جديـدة تستعمل في الدعاية ضد نوري السعيد ، فهو الذي حطم الجبهة العربية بتوقيعه حلف بغداد ، آملاً في المكافأة ، وكان جزاؤه ان اسرائيل تستغل الخلاف بـين العرب ، وتؤلب بريطانيا وفرنسا على العرب وراءها . وكان العرب يسألون انفسهم ... اذن ، هل كان في وسع عبد الناصر ان يفعل شيئاً سوى الحصول على السلاح من الروس عندمـا عرضوه عليه ؟ ثم ما هو العون الذي يحصل عليه نوري السعيد من بريطانيـا ؟

ولكن كانت لا تزال بقية من أمل في تشرين الثاني عام ١٩٥٥ . فلربما ادت يد المعونة الصديقة الصدوقة ، في موضـوع خزان اسوان (السد العالي) الى اقناع عبد الناصر ، اننا نقدر التعاون معه حق التقدير واننا نريد هذا التعاون . وكانت بريطانيا وامريـكا قـد تعاونتا مع البنك الدولي ، في العزم على مساعدة مصر مالياً في تحقيق هذا المشروع . وبدا ان ايدن قد فهم حقيقة مخاوف العرب من توسع اسرائيل ، فاغتنم فرصة العشاء السنوي الذي يقام في « غيلدهول » في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٥٥ ليعرض وساطته . وتحدث عن التوتر النامي في الشرق الأوسط، متهماً روسـيا بالنوايا السوداء في تزويدها مصر بالسلاح وقـال :

« ان اخطار الوضع الحادة تحتم علينا ان نحاول ثانية . فالوضع يقوم في ان العرب يستندون في موقفهم على قرار عام ١٩٤٧ وغيره من القرارات ، وقـد اعربوا عن استعدادهم لبحث شروط الصلح على هذا الاساس. اما الاسرائيليون، فيرون انفسهم من الناحية الثانية ، مستندين الى اتفاقيات الهدنة لعام ١٩٤٩ ، والى الاراضي الحالية التي يحتلونها . وبين هذين الموقفين بالطبع هوة عميقة يصعب اجتيازها ، ولكن هل

هي من الاتساع بحيث يتعذر اجتيازها عن طريق المفاوضات ؟ ليس من الحق ان نتجاهل قرار الأمم المتحدة ، ولكن من الناحية الأخرى ، أيمكن القول إن قرارت الأمم المتحدة حول قضية فلسطين ، يمكن الآن تنفيذها على الشكل الذي هي فيه ؟ » [١] .

وفي اليوم التالي ، اعلنت وزيرة خارجية اسرائيل من نيويورك ما يلي [٢] :

« ليس ثمة من امل في حمل اسرائيل على الموافقة على أي شيء يمكن ان يعتبر تنازلاً اقليمياً . ومجرد قيام دولة كبرى بتشجيع مثل هذا الاقتراح يبعث خيالات واوهاماً عند بعض الناس ويثير شهيات لا يمكن اشباعها قط . ولا استطيع من ناحيتي الا استنكار بيان السير انتوني » .

وهناك الآن ثلاث نقاط خاصة في كلمات ايدن اولاها ان ايدن نفسه يعتقد بان من العدل والانصاف ايجاد حل وسط بين حدود الهدنة الحالية وبين الوضع كما اوصت به الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧ . والنقطة الثانية ان لدى ايدن ما يحمله على الاعتقاد بان العرب مستعدون للتفاوض على هذا الأساس . اما النقطة الثالثة فهي ان القضية تعتمد على ما اذا كانت اسرائيل مستعدة لاتخاذ نفس الموقف ، مع الايحاء بان ايدن يعتقد بان على اسرائيل ان تستجيب في في هذا المعنى .

وقدم سفير اسرائيل في لندن في الثاني عشر من تشرين الثاني رد حكومته على هذا العرض ، وكان رداً سلبياً واضحاً [٣] فقد جاء فيه :

« ان اسرائيل لا تعترف بأية مطالب للعرب ، سواء تقدموا بها وحدهم او دعمتهم في تقديمها دول اخرى ، وذلك بالنسبة الى الاراضي التي تمتلكها اسرائيل » .

وهكذا انتهت محاولة ايدن التوسط . فايهما اقوى : رئيس وزراء انكلترا أم رئيس وزراء اسرائيل ؟ ومن الحق ان يقال ان ايدن لم يفعل اكثر من مجرد

---

١ – التايمس – ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٥ .
٢ – التايمس – ١١ تشرين الثاني ١٩٥٥ .
٣ – التايمس – ١٢ تشرين الثاني ١٩٥٥ .

وضع سؤال ، ولكن كلماته اوحت بان السؤال موجه الى اسرائيل ، ذلك لأنه قام بنفسه بالاجابة عن العرب ، وكانت كلماته توحي بأن على اسرائيل ان ترد كما رد العرب وهو انها على استعداد للتفاوض . ولقد اعرب رئيس وزراء انكلترا عن رأيه ، فقام رئيس وزراء اسرائيل باستنكار هذا الرأي وتراجع رئيس وزراء انكلترا .

ويجب ان لا يغيب عن بالنا ، ان ايماءة ايدن بالرغبة في تأييد الخط العربي في موضوع اسرائيل ، جاءت عقب تحول عبد الناصر نحو روسيا . وسواء أكانت هذه الايماءة استجابة لتهديدات عبد الناصر أو مساعدة لتقوية موقف نوري السعيد فان الرد السلبي القاطع من جانب اسرائيل ، قد اضعف نوري ، وقوّى عبد الناصر. وكان الوضع الذي نجم، اسوأ مما لو لم يقل ايدن شيئاً على الاطلاق. فالتظاهر بمظهر المؤيد لكل ما يعرفه الناس بانه سياسة نوري ، ثم التراجع في وجه بيانات اسرائيلية باتة ، عمل ان دل على شيء في رأي العرب ، فعلى انه مهما ارادت الحكومة البريطانية ان تعطي لنوري السعيد العون الذي يحتاج اليه بصورة يائسة ، فان في وسع الصهيونيين ان يوقفوه ، ذلك لأنهم يملكون الوسائل لوقفه . وكان القوميون يقولون ان سياسة التعاون مع بريطانيا لا تعني الا فتح الباب للصهيونيين ليدخلوا منه . وقد تؤدي سياسة التحدي الى تحول عواطف البريطانيين والامريكيين نحو الصهيونيين وضد العرب ، ولكن الروس دخلوا الآن الى الميدان ، وهم الى جانب العرب . وكان العرب قد حذروا بريطانيا طويلا من ان ليس في وسعها ان تؤيد الصهيونية التوسعية وان تحتفظ بصداقة العرب وتعاونهم في آن واحد. واذا كان الصهيونيون قد ضمنوا بريطانيا وامريكا الى جانبهم ضد العرب ، فمن البدهي ان يبحث العرب عن العون في مكان آخر ليحفظوا التوازن .

وهكذا غدت قضية اسرائيل تمثل اهمية خاصة لنوري السعيد واصدقائه . ولم تكن القضية مجرد وجود اسرائيل والخسائر التي لحقت بالعرب من خلفها. انها ليست مجرد رغبة في الثأر ، ولا مجرد نزعة مسيطرة على عقولهم ضد اليهود .

وكانت الصحف البريطانية تعكس جميع هذه النواحي، ولكنها تبعد كثيراً عن النقاط الحساسة . فاسرائيل تمثل لنوري السعيد قضية المحك لسياسته في صداقة بريطانيا. ولقد كانت كذلك في عام ١٩٤٠ وخسر نوري السعيد القضية آنذاك. وكان تخلي بريطانيا عن السلطة في فلسطين في عام ١٩٤٨ قضية محك ايضاً ، وقد خسرها نوري من جديد . وها هي القيمة الحقيقية لصداقة بريطانيا وتأييدها لنوري السعيد توضع في موضع الاختبار ثانيــة في تشرين الثاني عام ١٩٥٥ ، فيخسر نوري السعيد من جديد . وكان من المقدر ان يحدث ذلك ثالثة ورابعة وان تكون الخسارة من نصيبه في كل مرة ، وان يكون الصهيونيون الرابحين دائماً . وكان في وسع اعدائه ان يشيروا اليه باصابعهم في كل مرة قائلين ... اية قيمة لاصدقائك البريطانيين ؟ انهم يتخلون عنك دائماً ، وسيتخلون عنك في كل مرة . والطريقة الوحيدة ، هي ان نستخلص استقلالنا بايدينا ، وان نتخلص من المعاهدات غير المتكافئة ، ثم نقف على ارجلنا ، ولن نكون آنذاك في حاجة الى الخشية من اسرائيل .

واذا كان يراد لسياسة نوري في الصداقة البدهية مع بريطانيا ان تؤمن تأييد العرب ، فمن الواجب ان يتوافر له ما يعرضه كدليل على صحتها ، بالنسبة الى هذه القضية البالغة الاهمية ، وهي قضية اسرائيل . ويختلف الناس في الغرب في عواطفهم فبعضهم يؤيد العرب والبعض الآخر يؤيد الصهيونيين . واتضح الآن ان العرب في مجموعهم اذا اقتنعوا بوجهة نظر مصر في ان اسرائيل تعتزم التوسع، وان البريطانيين والامريكان لن يوقفوها ، فانهم سيسيرون وراءها في سياستها ، ويتطلعون الى روسيا بحثاً عن العون . ولا يمكن لهذا الاعتقاد ان يسفر عن أي شيء سوى ذلك ، فالضعف الذي تمثل في ايماءة ايدن نحو وجهة النظر العربية ، ورد فعل اسرائيل الذي ينطوي على القطع الذي يحمل معنى الزراية والاستخفاف، والصمت الذي قابل به ايدن هذا الرد ، كلها عوامل ادت الى تقوية وجهة نظر عبد الناصر .

وبدا أن نوري السعيد ومؤيديه كانوا على استعداد ، لوضع جميع طاقاتهم في

تحقيق حل وسط ، شريطة ان تدعمه بريطانيا ، وليس ثمة من شك في الاهمية القصوى التي كان نوري يعلقها على هــذه القضية . وكان من شأن الدعاية الصهيونية ، وهذا أمر بدهي ، ان تحاول اقناعنا بان القضية الفلسطينية لم تعد الا مجرد وسيلة انتهاز لاشعال الحماس عند الجماهير وتحويل افكارهم عن معارضة الباشوات والشيوخ . أما بالنسبة الى نوري واصدقائه فقـد كانت القضية التي يرتكز عليها نجاح سياسته او فشلها . وكانت هذه القضية بالذات ، نقطة ضعف كبيرة تعرضه لهجمات عبد الناصر . واذا كان نوري وتأييده لحلف بغداد امرين جوهريين لنجاح السياسة البريطانية ، فقد كان رفض اسرائيل القاطع ، مخرباً لمصالح بريطانيا بقدر تخريبه لمصالح نوري السعيد .

ولقيت آراء عبد الناصر في الاشهر الأولى من عام ١٩٥٦ نجاحاً عظيماً في العراق ، فقد تخلص من المعاهدة غير المتكافئة مع بريطانيـا بتوقيعه معاهدة جديدة معها ضمنت جلاء القوات البريطانية عن الاراضي المصرية ، بينما وقـع نوري السعيد حلف بغداد الذي ترك البريطانيين يمسكون بنفس جوهر النفوذ الذي كان في ايديهم دائماً . وقد اتبع عبد الناصر سياسة الحيـاد التي جعلت روسيا تسرع الى مساعدتـه ضد اسرائيل وضـد الاستعمار البريطاني في الوقت الذي لا تطلب فيه احلافاً غير متكافئة او مقيدة ، او قواعد عسكرية ، وفي الوقت الذي لم يكن العرب قد رأوا قط او يحتمل ان يروا جنودها الا كمدربين، اما نوري فما زال مقيداً الى الحكومة البريطانية الـتي خيبت آماله دائماً في موضوع الصهيونية . وقد اتضح ان اسرائيل عازمة على مغامرة اخرى ، وان فرنسا ستؤيدها في ذلك ، واعتقد العرب ، انه مهما قـالت بريطانيا وامريكا ، ومهما ادعتا العزم على منع أي فريق من العدوان ، فسيختلف الموقـف تماماً ، عندما يبدأ القتال . وكانوا يرون ان هذ الموقف ، سيتبـدل بحكم الضرورة ، ذلك لأن اسرائيل توقت دائماً ضربتها عندما يكون الرأي العام الغربي مكهرباً ضد العرب ، بحيث تجبر الحكومات الغربية على اتخاذ موقـف العطف تجاه اسرائيـل .

وقد يضطر نوري السعيد الى الوثوق من جديد بالتأكيدات البريطانية ، ولكن القوميين يرون ان نوري في التزامه بتأييد بريطانيا قد بلغ حداً يجعله عاجزاً عن البقاء دون عون بريطانيا ، وهو لهذا مرغم على دفع الثمن . وكانوا يعتقدون انه لولا التأييد البريطاني ولولا القوة الخفية النابعة من قواعد بريطانيا العسكرية في العراق ، وهي القوة التي اعادت العهد الملكي في عام ١٩٤١ وارجعت نوري الى الحكم ، وابقت عليهما منذ ذلك الحين ، فان نوري سيسقط سقوطاً نهائياً . وسقوط نوري يعني سقوط السياسة البريطانية اذ انهما مترابطان في البقاء والزوال . وكان الشيء الوحيد الذي يمكن له ان يساعده ، هو ان تؤيده بريطانيا في سياسة تجاه اسرائيل . ولا ريب في ان تخلي بريطانيا التي يصادقها هذه الصداقة القوية عن مساعدته في الشيء الوحيد الذي يمكن له ان يساعده ، يقوم دليلاً واضحاً على ارتباطه . فبريطانيا تأخذ منه ما تشاء دون ان تدفع الثمن ، وهذا ما استطاع اعداؤه ان يقولوه .

انها قائمة طويلة ومخربة من الاتهامات ، والأسوأ من كل هذا ان الصحافة البريطانية لم تكن تعكس حقائق الورطة التي وجد نوري السعيد نفسه فيها . ولم يستطع الشعب البريطاني ايضاً ان يرى الحقيقة التي دفعت بعبد الناصر لطلب السلاح من روسيا ، ولا ان يفهم اعتقاده بان اسرائيل تعتزم الغزو ، ذلك لأن العقيدة الراسخة عند البريطانيين كانت تقوم على اساس ان اسرائيل لا تنوي التوسع ، وهكذا تولدت عنده الفكرة التي تقبلها ، وهي ان مصر قد غدت من الدول التابعة للشيوعية وانها تستخدم القضية الاسرائيلية مجرد ستار . ولم يكن في وسع هذا الشعب ايضاً ان يتفهم حقيقة سياسية اخرى ، وهي ان عبد الناصر اصبح يتولى قيادة حركة قومية قوية تلتف حوله ، ذلك لأن الاربعين سنة الماضية من السيادة على العرب ، قد حتمت قيام عقيدة اخرى عند البريطانيين ، وهي تقضي بعدم وجود حركة قومية حقيقية عند العرب ، وان كل ما يحدث ، اضطرابات آنية ، يثيرها عملاء مأجورون للدول المعادية لنا ، ويمكن القضاء عليها بمجرد طرد زعمائها او نفيهم او اعتقالهم . ولم يكن في وسع

البريطانيين كذلك ان يفهموا ان العرب لا يخشون غزواً روسيا ، ذلك لأن الرأي العام البريطاني قد افهم ، بأن هذا الغزو هو ما تبغيه روسيا ، ولهذا فان العرب الذين لا يرون هذا الرأي انما هم من المطّعمين بالشيوعية. وكان من العسير على البريطانيين ان يفهموا أيضاً ان المطالبة بالتحرر عن النفوذ البريطاني كانت تعني شيئاً حقيقياً ، ذلك لأنهم يرون ان العراق قد اصبح دولة مستقلة كاملة السيادة منذ سنوات طويلة ، وان العرب كانوا ينادون بزوال جهاز من الإشراف ، كان من المفروض عدم وجوده . وكان من العسير عليهم ان يفهموا ان العرب قد يقفون ضدهم ، ذلك لأنهم – أي البريطانيين – كانوا يعتقدون ان العرب يهربون اذا ما رأوا القوة امامهم . ولم يستطيعوا ان يفهموا ان العرب قد يحتملون الخسارة الاقتصادية في سبيل قضية قومية ، لأن العرب في رأيهم ينفذون كل ما يطلب اليهم ، اذا كان الدفع سخياً . وفوق هذا كله لم يستطع البريطانيون ان يفهموا ان جيلاً جديداً من العرب ، قد اخذ يرتقي مدارج الحكم والسلطان ، ذلك لأن السياسة البريطانية الفت تقليدياً العمل عن طريق اصدقائها المختارين الذين تحتفظ بهم في الحكم ، وتعتمد عليهم في الابقاء على صوت المعارضة خافتاً .

واخذت اشهر الصيف تنقضي ، وبدأت أزمة السويس تدنو . وكان نوري السعيد ، يفقد الارض تلو الارض ، في معركته ، بين العرب عامة ، وحتى عند العراقيين . وغدت اسرائيل وحلف بغداد نقطتي الارتكاز في الهجمات التي يشنها القوميون العرب على نوري السعيد وبريطانيا . أما الرأي العام البريطاني فكان سادراً في جهله المطبق لحقائق الوضع السياسي وما يدور في خلد العرب ، واسبابها .

ازمة السويس

أعلنت الولايات المتحدة قرارها بالغاء المساعدة التي وعدت بهـا لإنشاء السد العالي في الثامن عشر من حزيران عـام ١٩٥٦ . وسرعان ما حذت بريطانيـا حذوها فوراً . وأحس عبد الناصر بالاساءة فـرد في السادس والعشرين من تموز بتأميم شركة قناة السويس . وأعلن رئيس الوزراء وزعيم المعارضة ، أي ايـدن وغيتسكيل ، في مجلس العموم استنكارهما هـذه الخطوة التي خطتها مصر في السابع والعشرين من تموز . واحتجت فرنسا بلهجة لا تقل شدة وعنفـاً . ولما كنت قد عدت آنذاك الى انكلترا لقضاء اجازة بضعة اسابيع ،أحمل انطباعات جديدة عن الوضع في بغداد ، فقد اتجهت افـكاري بصورة طبيعية الى أثر هذه الاحـداث ، في العراق ، وعلى نوري السعيد ، والى ما قـد تعمله الحكومة البريطانية ازاءها .

وكتبت في رسالة بعثت بهـا في الواحد والثلاثين من تمـوز اقول ...

« ... يجب ان ينظر الى حادث السويس على انه حلقة واحدة في سلسلة ، تؤلف فيها اسرائيل العامل الفعّال . ولقد كان العرب منذ سنوات يقولون عنّا ان ليس في وسعنا ان نـؤيد العرب والصهيونيين في وقت واحد . ولقد كنا نجلس في موقف المتذبذب بين العرب واسرائيـل منذ اربعين عاماً حتى اليوم . ولكن هذا السياج الذي نتأرجح عليه ، سرعان مـا قصر بصورة مستمرة ، وقام الروس في العام الماضي بهدم ما تبقى منه ،

ولكننا ما زلنا في نفس الوضع ، معلقين في وسط الهواء ، وكأننا نكاد نطير بقوة مغناطيسية تلقائية . وسيفسر كل عربي نكوصنا في موضوع السد العالي ، كدليل على اننا رحنا قلباً وقالباً مع الصهيونيين . وسيرى العرب في كل مكان، في رد فعل عبد الناصر مظهراً من مظاهر الاحتجاج. وسيضعف موقف نوري السعيد حتماً ، وسيتزايد الضغط في العراق ضد حلف بغداد . ونوري هو الشخص الوحيد الذي يملك القوة والارادة على وقف اندفاع العراق في تيار الناصرية . وقد سلمنا مركزنا الى ذلك الرجل الوحيد . وليس ثمة من يستطيع ان يخلفه . ولذا فعلينا ان نجد مرسى جديداً ، وهذا المرسى يجب ان يكون سياسة ، جديدة في كل شيء . وما لم تنطو تلك السياسة على معارضة لا هوادة فيها للصهيونية التوسعية (لا لليهودية) ، فانها لن تكون مقبولة من العرب ، وستستمر قصة الاضطراب أمداً آخر . ولا يجدينا فتيلاً ، ان « نشخط » بالغضب ، وان نتحدث عن البوارج التي تطلق مدافعها والمظليين الذين يهبطون من الجو ... » .

ولكن الأمزجة كانت تغذ السير بعيداً عن كل سيطرة . واخذ البريطانيون المسؤولون يقولون ان عبد الناصر لم يكتف بعرقلة محاولاتنا لسوق الشرق الأوسط كالانعام الى الاحلاف الموالية للغرب ضد الخطر الروسي فحسب ، بل انه يخطو خطوات خطرة في محاولاته جر الشرق الأوسط الى الحياد ، ان لم يكن الى الانحياز الى الكتلة الروسية . وقد غدا العراق وهو قلعتنا الحقيقية الاخيرة ، مطوقاً من الناحية السياسية . ونوري السعيد هو آخر زعيم عربي ذي اهمية موال لبريطانيا . فان سقط نوري السعيد فان حلف بغداد سيسقط بالنسبة الى العرب ، والحلف هو عماد السياسة البريطانية .

وكانت موالاة نوري السعيد لبريطانيا وموقفه كحجر الزاوية في قنطرة السياسة البريطانية وكالحارس العربي لحلف بغداد ، هي النقاط عينها التي اعتمدت عليها دعاية عبد الناصر في مهاجمة حلف بغداد . ولم يكن عبد الناصر في حاجة

الى الاختلاق لإقامة الدليل على هــذه الدعاية ، فالصحافــة البريطانية نفسها تؤكدها وتعلنها. وكانت هذه الصحف تصف عراق نوري بانه « موال » للافكار البريطانية النافعة للعرب . وكانت تصف نوري بانــه « من الميالين لبريطانيا » ، وكذلك الملك وولي عهده . وكان « الميل لبريطانيـــا » يعني في رأي القوميين العرب التــعاون مع المستعمرين . وكان « الولاء » في المفهوم الذي تستخدمه صحف بريطانيــا وساستها ، يعني الولاء للمصالح البريطانية وللتغلغل الصهيوني فيها ، لا الولاء للمصالح العربية . وكانت دعايات القوميين العرب ، تمضي قدماً في نشر هذه الآراء منذ عدة اشهر .

وكان هنــاك من الناحية الاخرى عدد لا بأس بـــه من العرب في العراق وغيرها ، وحتى في مصر ، يخشون من ان تؤدي جرأة عبد النـــاصر الى الحاق الضرر بالقضية اكثر من النفع الذي يمكن ان تجنيه ، ولم يكن هؤلاء يعارضون اهداف عبد الناصر في الاستقلال ومكافحة الصهيونية ، فهذه اهداف مشتركة . واذا ما استثنينا قلة قليلة من الرجال الفاسدين الذين اثروا عن طريق علاقــاتهم ببريطانيا ، فلم يكن هناك عرب ، حتى ولو كانوا من اكثر الناس ولاء للغرب ، يستطيعون ان ينكروا ذلك الشعور بالاعتزاز ، بان الشعب العربي قد انجب اخيراً رجلاً يستطيع ان يقف امـــام الدول الكبيرة وان يتحداها كما فعل عبد الناصر . ولم يستطع حتى نوري السعيد نفسه ان يهاجم علناً عمل عبـــد الناصر في طلب المساعدة من روسيا لمواجهة خطر الصهيونية . وكان نــوري وانصاره يخشون من هذا الخطر ، وينذرون من ان فتح الباب للروس كروس ، سيؤدي الى تسلل الشيوعية ايضاً ، ولم يكن في وسع احد ان ينكر وجود هذا الخطر . ولكن الصهيونية هي الخصم الاكبر والفــوري ، واذا كانت اسرائيــل ستجد عوناً عسكرياً من فرنسا ، بينما ترفض الدول الغربية تزويد مصر بالسلاح، فليس هناك عربي واحد يستطيع ان ينكر على عبد الناصر عمله في طلب السلاح من روسيا . ولكن هذه القلة كانت تخشى ان يغرق عبد الناصر في التزامه حاملاً معه القضية العربية ، فيثير غضب الدول الغربية الى الحد الذي لا يمـكن اصلاحه ،

والذي يغدو فيه الحياد مستحيلاً ، فيعجز العرب عن ملء الفراغ بانفسهم ، وستدخل روسيا فعلاً اليه .

انها عين قصة الصراع القديم بين المتطرفين العرب والمعتدلين ، فالمتطرفون يتهمون المعتدلين ببيع انفسهم والانحياز الى الدولة التي تحمي التوسعية الصهيونية ، والمعتدلون يتهمون المتطرفين باكتساب عداء الدول الغربية التي تستطيع وحدها وقف التوسع الصهيوني .

وكانت هناك فئة من العرب اعتقدت ان عبد الناصر ، قد تجاوز الحد بشكل خطر . وكان افراد هذه الفئة يشتركون مع البريطانيين في مخاوفهم ولكن بطريقتهم الخاصة ودفاعاً عن مصالحهم . ولم يكن هناك دولة في العالم كله تقريباً ، تستطيع ان تقف موقف عدم الاكتراث من قضية السويس . ولم تكن القضية مهمة بالنسبة للدول البحرية التي تملك السفن فحسب ، بل كانت مهمة ايضاً للدول التي تحمل السفن شحنات انتاجها . ولهذا فقد رأت هذه الدول سبباً ومبرراً للقلق ، وكان يحق لها ان تشارك بريطانيا مخاوفها .

ومن القواعد المرعية في أي بلاد أن اية احتكارات خاصة ، يجب ان تخضع اما الى تنظيم عام أو يعهد بها الى اشراف عام. ومثل هذا الرأي قد يصح ويجب ان يصح بالنسبة الى مصلحة ذات نفع دولي عام كقناة السويس (كذا). وهذا الواقع في وجود مصلحة دولية اصيلة ، وقلق دولي ، كان في الامكان استخدامه كاساس لسياسة تلقى تأييداً في الرأي العام العالمي . والدول العربية المنتجة للزيت وايران بين هذه الدول التي تجد نفسها في هذا الوضع ، لديها من الاسباب ما يحملها على القلق من سيطرة احتكارية على الطرق التي يمر بها زيتها الى اسواقه العالمية . واعتقدت ان التهديد بالقوة واستخدامها ، سيؤديان الى تأليب الرأي العام العالمي ضدنا ، وسيوحد الرأي العام العربي كله وراء عبد الناصر ، ورأيت ان اتخاذ الموقف الآخر على اساس موزون ومدروس ، اكثر املاً وامكاناً في النجاح . فنوع من النفوذ الدولي يجب ان يوجد . ولكن ثمة طرقاً كثيرة لإيجاد هذا النفوذ ، وكان من الواجب إيلاء الاعتبار الاول لأية طريقة نختارها وتحوز

أحسن الفرص لكسب تأييد عالمي شامل .

وكتبت في احدى رسائلي في الثامن من آب اقول ...

«ماذا كان علينا ان نعمل لنرد على عبدالناصر؟ كان علينا اولاً ان نتحلى بالجرأة الكافية وان لا نظهر عن طريق الصراخ والتهديد ، اننا فزعون خائفون . وكان علينا بعد ذلك ان نتحرك لنختبر ما في العمل الذي قام به من شرعية . وفي الوقت نفسه كان علينا ان نعدد البلاد التي تشترك معنا في مصلحة معقولة في المحافظة على القناة وان ندرجها في قائمة ، ثم ندرس هذه القائمة بعناية متزايدة ، وان نقيد انفسنا بشرط لا نتخطاه ، وهو ان لا نقول شيئاً او نفعله ، قد يؤثر على وحدة المصلحة بين هذه الدول ، بل نقول ونفعل ، كل ما يمكن ان يؤدي الى توثيق هذه الوحدة . وكان مثل هذا العمل سيؤدي بنا عن طريق التفكير الذي لا مناص منه ، الى مشروع تأليف شيء يسمى بالاتحاد الدولي للمنتفعين من القناة . وكان في وسعنا ان نقول ، إنه لما كانت القناة ستصبح احتكاراً على الحكومة المصرية ، ولما كان ثمة احتمال بأن لا تحترم الحكومة المصرية اهميتها الدولية فان هذا الاتحاد سيعمل لمصلحة المنتفعين في جميع الاتجاهات المتعلقة بالموضوع . وعندما يتألف هذا الاتحاد كان في وسعه ان يختار مجلساً لإدارته من ممثلين عن الدول الاعضاء ، ويتقدم بصورة جماعية الى الحكومة المصرية على هذا الاساس . ولا ريب في ان عبد الناصر ، سيسمح في هذه الفترة بمرور البواخر في القناة بحرية ودون اية عراقيل ، اذ ان من اوراقه الرابحة ان يكسب الرأي العام العالمي الى صفه عن هذا السبيل . ومتى تم تأليف المجلس ، كان في وسعه ان يقيم علاقات عاملة مع مصر . وان ينشىء له مكتباً يكون له أمين عام وموظفون وما شابه ذلك . وفي الامكان عن طريق هذا الاتحاد ، بحث كافة القضايا المتعلقة بادارة القناة من تقنية ومالية وغيرها . وفي وسعه ايضاً ان يصبح وسيلة

لتقديم العون التقني والمالي الى مصر ، لتحسين القناة خدمة للمصالح المشتركة بين مصر والمنتفعين من القناة . واخيراً اذا شاءت مصر ان تسلك طريقاً وعراً فإن جميع المنتفعين بالقناة ، سيكونون وفقاً لطبيعة الامور في نفس المركب ، فيبذلون ضغطهم بصورة مشتركة .

« وسيكون مثل هذا الاتحاد خطوة كبيرة في طريق بناء نظام جديد من المنظمات الدولية ، يستطيع العالم الاعتماد عليه ، اذا اراد ان يتجنب الحرب كوسيلة لتسوية الخلافات . ففي داخل الدول نفسها تقوم النقابات واتحادات اصحاب العمل وما شابه ذلك ، وقد اقيمت كلها لتجاري الحاجات النامية لحضارتنا المعقدة . وعلينا ان نسير من الناحية الدولية في نفس هذا الاتجاه . وهل في وسع شعب رائد كشعبنا ان يحقق هدفاً اروع من هذا الهدف عن طريق اضاءة السبيل لهذه الاهداف ؟ وفي وسعنا هنا في اتحاد المنتفعين بالقناة ، ان نجد فرصة لخلق سابقة قيمة ، منظمة دولية ، تؤدي في شكلها واهدافها الى قيم متبادلة ومتحددة تشمل جميع الفرقاء المعنيين . ومثل هذه المنظمة تتبين الحقيقة الحيوية بصورة فطرية ، وهي الحقيقة التي يتجاهلها دعاة فكرة استخدام البوارج . ان هناك اليوم رأياً عاماً عالمياً قوياً . ان هذا الرأي العالمي موجود حالياً ، وان كنا ما زلنا نتسكع في طريق اعطائه الوسائل الصحيحة للتعبير عن نفسه . ولم يتمكن جهاز منظماتنا الدولية حتى الآن من اللحاق بالتسهيلات التي توفرها الاذاعة والسينما والصحافة والرحلات الجوية السريعة وزوال الأمية وانتشار التعليم ، لتوجيه النداءات الى عواطف الشعوب . ونحن في هذه البلاد ، الذين نعتز بمنظماتنا ، يجب ان نتولى قيادة الرواد في هذا الحقل الفسيح من التقدم ، وعن طريق الريادة نستطيع ان نكسب السمعة الحسنة والاحترام . وقد قمنا بدور الرواد في تفتح العالم وفي زرع انظمة حكمنا وراء البحار . وقمنا بدور الرواد في الثورة الصناعية . وها هو الآن

ميدان فسيح ينتظر رواده ، وامامنا تماماً في مشكلة السويس ، تلوح الفرصة المثالية لاستخدام عقولنا وشجاعتنا وجرأتنا ، لنخطو خطوة كبيرة الى الامام ، فنرفع من اسمنا ومن سمعتنا . واذا اعوزتنا الشجاعة لانتهاز الفرصة ، واذا لجأنا الى اسهل الطرق واكثرها جبناً واقلها شجاعة ، طريقة اظهار الشجاعة وقد حمل الرجل بندقيته ليواجه رجلاً اعزل ... » .

وكان في وسع الحكومة البريطانية لو تولت دور القيادة بهذه الطريقة ان تخلق لنفسها طابعاً صحيحاً يتفق بوضوح مع مصلحة مجموعة الشعوب ويكون دقيقاً ثابتاً بحيث تستطيع ان تجند وراءها فيه تأييد الشعب البريطاني كله ، وشعوب جامعة الشعوب البريطانية بل وشعوب العالم ، باستثناء اولئك الذين لا يريدون الخير . وقد قدم فعلاً مشروع لانشاء اتحاد للمنتفعين بالقناة ، ولكن هذا المشروع قدم بطريقة تضمن فشلها .

وبدا ان الكلمة الاخيرة قد قيلت . ويقول اللورد بيردوود في كتابه الذي وضعه عن حياة نوري السعيد ، ان وزارة الخارجية البريطانية ، كانت قد قررت سياستها حتى قبل الغاء عرض المساعدة لمشروع السد العالي ، على وجوب الاطاحة بعبد الناصر [1] . واذا صح هذا القول ، كان في وسعنا ان نفترض تبعاً لذلك ، ان هذه السياسة هي التي املت على الحكومة البريطانية اعمالها ، وان هذا الاملاء لم ينجم عن رغبتها في ايجاد تسوية سلمية للخلاف المعين الذي نشأ على موضوع قناة السويس ، وان كل ما وقع بعد ذلك ينسجم تماماً مع هذا الافتراض . على أي حال ، اعلنت الحكومتان البريطانية والفرنسية التعبئة العامة في الثاني من آب ، وبدأت الحركات لحشد القوات المسلحة التابعة للدولتين في جزيرة قبرص . وكان كل عربي عارف ببواطن الأمور ، يدرك ان قاعدة قبرص موجهة ضد الشرق الاوسط بقدر ما هي موجهة ضد روسيا ، وان الشرق الأوسط يعني على هذا الصعيد مصر وجميع الدول العربية ، مع اضفاء

١ – اللورد بيردوود – نوري السعيد – ١٩٥٩ .

عين الحماية والرعاية على اسرائيل .

وكان من الواضح ان الرأي العام العربي سيتصلب الآن . وعاد نوري السعيد في السادس من شهر آب الى العراق وافضى ببيان الى مراسل صحيفة « التايمس » اللندنية . فاشار اشارة قلقة الى محاولات اسرائيل استغلال النزاع في موضوع السويس لمصلحتها ، واكد ان قلق العرب في قضية السويس يجب ان لا يصرفهم عن الخطر الصهيوني ، واضاف ان التأميم قد غدا من حقوق الدول ذات السيادة . وليس ثمة من شك في ان العراق في موضوع حق عبد الناصر في تأميم شركة قناة السويس يقف الى جانب عبد الناصر ضد ايدن . وكان ايدن بسخريته من أي افتراض بان لمصر حقاً مشروعاً في التأميم ، قد جعل من المستحيل على نوري السعيد او غيره من العرب ، ان يفعلوا شيئاً سوى معارضته .

وبعثت في الثامن من آب برسالة اقتطف منها ما يلي :

« ... كان في وسع الانسان ان يقول قبل اسبوعين ، انه على الرغم من اتحاد الدول العربية اتحاداً تاماً ضد الصهيونية ، فان مصر وحدها — ولعل معها سوريا والمملكة العربية السعودية — تقف موقف العداء الصريح من بريطانيا ، وكان في وسعه ان يقول ايضاً ان العراق يريد البقاء معنا ، وان عبد الناصر نفسه يحاول تحسين علاقاته بنا . أما الآن ، فكيف اصبح الوضع ؟ لقد اتحد جميع العرب وراء مصر في هذه القضية . وفي العراق ، كان من الواضح ، ان الحكومة لم تنتقل بعد الى مرحلة الانحياز الكامل ضد بريطانيا والى جانب مصر ، ولكن هذا الموضوع لم يعد الا قضية وقت ، لا سيما اذا واصلنا اتخاذ موقف الذي يريد الحرب ... فالعداء للصهيونية الذي يجمع العرب ، يتطور الآن وبسرعة لكي يمتزج بشعور من العداء للاستعمار ولبريطانيا . ولقد غدت الصهيونية وبريطانيا في عيون العرب شيئاً واحداً ..

« ... وليست هناك من سياسة يقدر لها النجاح مع العرب ، الا اذا انطوت بشكل جلي صريح ، على معارضة اصيلة للصهيونية

التوسعية ، وما لم نقم بتبني مثل هذه السياسة بسرعة ، فان العراق سيسير في طريق مصر ...

« ... ومن المحتمل ان يتسامح العرب بوجود دولة يهودية تعيش على التجارة ودون اية مطامح اقليمية (كذا !) ولكنهم لا يمكن ان يتسامحوا بوجود دولة تحمل مطامع في استخدام السياسات الدولية لضمان توسعها ونموها على حساب العرب ...

« واذا واصلنا سياسة تهديد مصر ، فهناك كل احتمال ممكن ، بأن يقوم العراقيون بتجميد حلف بغداد ، واقامة حكومة جديدة تكرس نفسها لاعادة وحدة الصف العربي على اساس المعارضة الكلية للاستعمار الانكليزي – الصهيوني » .

وكان في الامكان من الناحية النظرية ، الوصول الى حل عسكري عنيف . اذا كان في الامكان السير بهذا الحل الى نتائجه العسكرية النهائية . ولو كان ايدن في موقف القادر على اعادة احتلال مصر وبصورة كاملة بقوة السلاح . واقامة مركز من « مراكز القوة » يستطيع منه ان يملي الحل الذي يريده ، لقلنا انه نجح عسكرياً. ولكن في مثل الظروف القائمة آنذاك،لم يكن مثل هذا العمل العسكري الا ذريعة لغاية سياسية ، سيكون مصيرها الهزيمة حتماً . فلا الرأي العام البريطاني ، ولا الرأي العام الامريكي ، ولا الرأي العام العالمي كان يمكن ان تقبل كلها بعمل استعماري مباشر كاعادة احتلال مصر . وليس لدي من دليل ، لا في ذلك الحين ، ولا اليوم ، على ان الحكومة البريطانية قد فكرت فعلا تفكيراً جدياً بمثل هذا الاتجاه .

ولعل من المؤكد ايضاً ، انه لم تكن هناك نية حتى في اطالة امد احتلال منطقة القناة نفسها . واذا قدر لقواتنا ان تدخل الى مصر ، فقد كان هناك عزم على سحبها في الوقت الذي نختاره نحن . وكان الشرط الاساسي لنجاح مثل هذه العملية ، هو ان تكون اللحظة التي نختارها للانسحاب ، هي عين اللحظة التي نحقق فيها الظروف السياسية المرضية لنا .

ولهذا فإن استخدام القوة او مجرد التهديد باستخدامها ، لم يكن يستهدف الا وسيلة لخلق الظروف السياسية المواتية الـــتي تضمن النتيجة التي نرغب في الوصول اليهـــا . وهذه الظروف السياسية يجب ان تنطوي بحكم الضرورة على عناصر معينة حاسمة وهي زوال عهد عبد الناصر ، وقيام نوري السعيد بتـولي القيادة العربية ، وفتح الطريق لاعادة تنظيم جهاز الاحلاف الغربية مع الدول العربيــة على ان يرتكز او يرتبط بحلف بغداد . وكان سقوط عبد الناصر ضرورياً لنجاح السياسة البريطانية ، لانه اذا بقي عـاد الى مهمته في القضاء على نفوذ نوري السعيد الذي يعني تهديد حلف بغداد ، وهو ما يهدد بدوره اسس السياسةالبريطانية .

وكانت مقامرة خطرة ، فاذا لم يكن ايدن مستعداً وقادراً من الناحية السياسية على الدفع بتهديده العسكري الى نتيجة عسكرية،تبعد عبد الناصر عن الحكم ، فان الفشل سيكون نصيبه ، اذا حافظ عبد الناصر على مركزه . واذا كان ايدن يقوم بمجرد دور من « يبلف » في مقامرته فان عبد الناصر سيربح حتماً. أما اذا لم يكن « يبلف »،ومضى عبد الناصر في لعبته، فان ايدن سيخسر حتماً ، الا اذا مضى فوراً الى اقصى الحدود العسكرية . ولم يكن ثمة دليل على انه مستعد لذلك كل الاستعداد، واثارت الصحف بعض الشكوك في ان هذا هو ما تعتزم الحكومة فعله ، ولكن الحكومة سارعت الى نفيه ساخطة . ولم يتعد ايدن حدود القول ، بان استخدام القوة لا يمكن استبعاده كاحتمال ، وهو بذلك ينفي ضمناً وجود الاصرار على استخدامها . وهكذا عرض الضعف السياسي في لعبته العسكرية ، قبل ان يأتي دور عبد الناصر ليقول كلمته .

ولم يترك التشبيه « المشؤوم » بهتلر ، وهو ما صدر عن ايدن وما تبعته فيه بعض الصحف ، مجالاً للشك في ان كل ما تريده بريطانيا هو الاطاحة بشخص عبد الناصر ، وان النزاع على قناة السويس قد استخدم ذريعة لذلك . فقد كال ايدن وانصاره الاتهامات لعبد الناصر ، فهو في رأيهم حاكم مطلق، يريد ان يقيم امبراطورية عربية بقوة السلاح وان يخضع العالم العربي الى طغيانه الذي فرضه

على مصر . وهو في رأيهم مثل هتلر ، لا يقيم وزناً للمعاهدات ، ولا يمكن الوثوق به . ولقد مرت فترة في حياة هتلر السياسية كان العمل الصارم كافياً عندها لوقفه عند حده لو اتخذ . ولكن بريطانيا اضاعتها آنذاك ، ويجب ان لا تضيعها ثانية الآن ، وقد ظهر هتلر جديد .

وكان التسلسل المنطقي بالنسبة الى هؤلاء الذين يفكرون بان من الواجب تقرير ما يجب ان يعمل في مصر عام ١٩٥٦ على ضوء ما كان يجب ان يعمل في المانيا في عام ١٩٣٥ ، بسيطاً ، ولكنه مؤد الى نتائج مضللة وجالبة للكوارث . فهم يقولون ان المصريين يعانون الآن ما كان يعانيه الألمان وسيمتد هذا العناء الى العرب اذا سمح لفتوحات عبد الناصر بالامتداد . وكما كان الألمان سيشكروننا حتماً لو تدخلنا عام ١٩٣٥ ضد هتلر ، فان المصريين والعرب عموماً سيشكروننا اذا تخلينا عن سياسة الترضية والمهادنة واتخذنا عملاً حازماً .

وكانت ثمة اصداء اخرى ومختلفة تتردد في العقل العربي من الناحية الاخرى. ولقد سبق للمذكرة البريطانية التي وجهت الى الحكومة المصرية في عام ١٩٢١ ان قالت « ان العالم يعاني الآن في كثير من انحائه ، من عقيدة هي من النوع المتعصب والمزق ، وهي عقيدة القوميـــة ، وان حكومة جلالته عازمة على مواجهتها بقوة في مصر كما في غيرها . أما اولئك الذين يستكينون لهـا ، فانهم يخلقون لها بعض الضرورة ، ويطيلون في الحفاظ على تلك العقوبات الاجنبية التي يستنكرونها ».وكان في وسع العرب ان يحسوا في موقف الحكومة البريطانية في عام ١٩٥٦ غريزة « الحارس الذي يحمل الصولجان في يده ليملي ارادته » ، وقد عادت اليها قوية كالسيل الجارف ، وهي غريزة كانت كافية وحدها لإلهاب عداء العرب ضد بريطانيا ، لإنهم يرون فيها افتراضاً متعالياً بحقها وواجبها في ان تجعل من المصالح العربية بصورة آلية ، شيئاً واحداً مع مصالحها ، وان تعامل أي عربي لا يكون موالياً لطريقة تفكيرها على اساس انه معاد لها .

وضمت الدعاية الصهيونية جميع العناصر التي في وسعهـا ان ترغم الرأى العام البريطاني بصورة فعـّالة على قبول ضرورة القيام بعمل صارم ، مدعوم بالتأييـد

الادبي للقضية الصهيونية ضد العرب . ومن المحتوم على جميع المستعمرين للاراضي ، وبينهم الصهيونيون، ان يشتبكوا في صراع مع اولئك الذين يريدون ان يحلوا محلهم . والصدامات العنيفة امر لا منـاص منه مطلقاً . فالمستعمر ، بوصفه انساناً ، يجب ان يحارب دفاعاً عن حياته وعن الارض التي استعمرها ، واولئك الذين اجلوا عن ارضهم بوصفهم بشراً أيضاً ، يجب ان يقاوموا توسعه وان يحاولوا استعادة الارض التي خسروها . وعلى المستعمر ان يخلق قضية ادبية لنفسه ، وان يزعم انه اجدر بالحيـاة من اولئك الذين اجلاهم عن ديارهم لان الطبيعة البشرية تقضي ببقاء الأقوى وزوال الضعيف .

وفي السلسلة الطويلة من الخطوات التي اتخذت لتحويل تلك الكلمات القليلة التي كتبت على قصاصة من الورق في عام ١٩١٧ (وعد بلفور) الى دولة في عام ١٩٤٨ ، والى دولة تريد ان تتوسع من جديد في عام ١٩٥٦ ، كان هناك دائماً خطان مسيطران من الحجج والدعاية ، وهي انـه اذا قاوم العرب فهم من الوحوش الذين يستحقون كل ما وقـع لهم ، واذا استكانوا فهم من العاجزين الجبناء الذين يجب ان يفسحوا المجال لمن يفضلونهم . فالمقـاومة تثير الغضب ، والاستكانة تثير الامتهان .

وكانت الغرائز البريطانية الاستعمارية والامبراطورية ، التي ضعفت وان كانت ما زالت قائمة وحية ، والتي استفزها عبد الناصر الآن ، قد استهوتهـا في هذا الوقت الفكرة التي كانت تتعهدها الحركة الصهيونية بعنـاية ، وهي ان وجود جيش اسرائيلي قوي وفعّال، سيكون صديقاً عند الحاجة وفي وضع استراتيجي قريب من قناة السويس . واثارت هذه الدولة الصغيرة المخلوقـة حديثاً باحوالها الغرائز الانسانية والاجتماعية عند البريطانيين الذين رأوا في الاسرائيليين شعباً مجداً يريد استغلال الصحراء التي اهملها العرب . ففي اليمين ، سخط على هـذه الدولة الناشئة وامتهان لغرورها العسكري، وفي اليسار غضب على اولئك الذين يريدون ان يهدموا ما بنـاه الاسرائيليون وازدراء لاولئك الذين لا يستطيعون ان يبنوا كما بنوا . وفي هذه العقول التي حجّرها الغضب والامتهـان ، لم يكن

هناك مجال للواقع ، ولادراك ما يبيته الصهيونيون من خطط لاغتصاب اراض عربية جديدة واستعمارها . كانت هذه هي الحقيقة البسيطة القاسية التي واجهت العرب والتي وقفت حائلاً بينهم وبين البريطانيين ، لأنها الحقيقة الوحيدة التي لا تعترف بها اية حكومة بريطانية جهاراً ، ولا يمكن ان تتسرب الى الصحف البريطانية .

ولم يكن العرب يرون الا اسوأ ما كانت تفعله الحكومات البريطانية وشعبها وقد عني الروس عناية فائقة بتحويل انظارهم عن كل ما هو خير في اعمالها . ولم يكن البريطانيون ليرون الا اسوأ ما يفعله القوميون العرب وقد عني الصهيونيون عناية بالغة في تحويل انظارهم عن كل ما هو طيب في اعمالهم . وكان الروس يحرضون العرب ضد البريطانيين بينما كان الصهيونيون يحرضون البريطانيين ضد العرب . وكانت للروس والصهيونيين اهداف معينة وملموسة ومحدودة ، فالروس يريدون موطىء قدم في الشرق الاوسط ، والصهيونيون يريدون اراضي جديدة . وكانت الحكومة البريطانية تبحث عن غاية على الرغم من اصالتها من ناحية عنايتها بمصلحة العرب في الشرق الاوسط وبمصلحة العالم كله ، هي قضية سياسية ، بل قضية مواقف عقلية ، لا قضية تملك اقليمي . وكان اهتمامها بالعرب نابع من تلك الحقب الطويلة من الوصاية الابوية التي كانت لها عليهم ، ومن هنا نشأت الغريزة التقليدية في ان تعمل كحارسة على هذه المصالح ، وهنا لاحت فرصة اخرى من تلك الفرص العديدة في الماضي ، عندما كان الحارس يضطر الى أخذ القُصّر الواقعين تحت وصايته بيد الحزم والشدة والصرامة مع الحنان الابوي . ولكن الوقت قد انقضى على قبول العرب بشدة بريطانيا المرتدية زي الوصي ، مهما كانت روح الوصاية اصيلة . وكانت الوسائل التي اختارت الحكومة البريطانية اتباعها، لا تحقق لها هذا الهدف الذي تسعى اليه ، بل تحقق الهدف لأولئك الآخرين الذين كانت حقيقة الصراع نفسه شرطاً اساسياً لنجاحهم ، والذين لا يتقربون من بريطانيا الا عندما تقوم بدور الوصي ، وعندما يضطر هذا الوصي الى اشهار سلاحه .

ولم يكن ايدن مخطئاً كل الخطأ ، عند تمثيله دور الحارس لمصالح العرب ، في اعتقاده بان ثمة بعض العرب الذين يرون في القوات البريطانية التي قـد تقوم بعمل عسكري ، منقذة لهم . فـلم يكن هناك في العالم كله ، من يأمل ويبتهل الى الله لسقوط عبد الناصر اكثر من نوري السعيد نفسه . ولم يكن في وسعه اخفاء هذا الأمل وتلك الرغبة . وهو اعجز من ان يقوم بنفسه باسقاط عبدالناصر ، فالتيار العربي يسير في اتجاه عبد الناصر ، وضد اتجاهه . وكان امله معلقاً في شيء واحد ، وهو ان تقتحم بريطانيا المسرح ، وان تتولى هذا العمل .

وكانت ثمة شروط اضافية ، فقد سجل اللورد بيردوود ، مؤرخ حياة نوري السعيد في كتابه ما يلي : « كان هناك شعور نام في وزارة الخارجية البريطانية بان عبد الناصر ، يجب في وقت ما ، وبطريقة ما ، ان يوقف عند حده ، وان تفرض عليه العزلة ثم ينزع من سلطانه ، وقد يتم هذا عن طريق شعبه واخطائه. وقد تحول هذا الشعور والتفهم بعد موقفه من حلف بغداد الى سياسة مقررة . ويبدو ان من المعقول ان يفترض الانسان ان الحكومة البريطانية كانت تطلع رئيس وزراء العراق على كل تطور وكل خطوة تخطوها عند وقوعها . ولكن مهما كان شكل العملية النهائية التي ستقوم بها ، وسواء أكان سياسياً او عسكرياً أو كليهما معاً ، ففي وسع الانسان ان يفترض نوري وقـد اقترح شروطاً معينة كاساس جوهري لاعتبـار زوال عبد الناصر عامـلاً فعـّالاً في الشرق الاوسط . ولن يفيد الغرب شيئاً ، اذا كان في اعادته فرض سيطرته على قنـاة السويس بشكل يرضى عنه المنتفعون من القناة ، سيفرّط فيما تبقى من تلك الصداقة وذلك التعاون في العالم العربي . لكن الشروط لن تكون ايجابيـة او مرهقة ، فاسرائيل اولاً يجب ان لا تقحم في أية سياسة أو عمل يقترح القيام بها . وثانياً ، ان دعوة فرنسا الى التعاون في هذا العمل ستكون مجلبة للكوارث . واخيراً بان اي اقتراح سديمي خيالي ، بأن تقوم بريطانيا أو الدول الغربية باغتصاب القناة لنفسها يجب ان يهمل ، وان ترفض مثل هذه التهمة فوراً وبصورة فعالة » .

ويستحيل علينا الشك ، بعد ان رأينا نوري السعيد يرتبط هذا الارتبـاط

الوثيق مع ايدن ، في انه لم يستخدم كل ما اوتي من بلاغة القول وفصاحته لاقناع رئيس وزراء بريطانيا بأنه اذا ازال عبد الناصر من الميدان فان الامور ستسير على ما يرام في العالم العربي كله . وكان في وسعه ان يقول عن ثقة وايمان ، بأنه اذا ظل عبد الناصر ، فإنه هو – أي نوري – والعهد كله في العراق سيزولان ، وسيزول معهما الأمل الوحيد الباقي في اجتذاب العالم العربي من جديد الى المعسكر الغربي ، كما سيزول الأمل الوحيد في انقاذ الشرق الأوسط من التطويق الروسي . ولم يكن ثمة شك أيضاً ، في ان هناك عدداً من العرب ، كانوا في الميدان وكانوا يقولون لبريطانيا ان المصريين ليسوا حقاً من العرب ، وان بين المصريين والعرب شيئاً من النفور . وان العرب الحقيقيين يشاطرون نوري السعيد اعتقاده بان عبد الناصر يؤلف خطراً على العرب ، وان معاملته بالشدة والصرامة ستضمن لبريطانيا الاحترام والتأييد .

ولكن ما لم يستطع ايدن ولا نوري تحقيقه ، هي الشروط التي وضعها نوري نفسه . فأي تهديد او عمل عسكري ضد مصر من جانب بريطانيا لا يمكن ان يعتبر في نظر جماهير العرب ، الا مجرد محاولة لإعادة فرض « النفوذ البريطاني » الذي كان العرب يحاولون الخلاص منه منذ عهد بعيد . ولم يكن هناك امكان في ابعاد الفرنسيين عن المسرح لسبب واحد وهو انهم موجودون فيه فعلاً ، مع الاسرائيليين ، وهذا ما كان يعرفه كل عربي مطلع على بواطن الأمور منذ اشهر عدة ، تبدأ في خريف عام ١٩٥٤ . عندما شرع في مفاوضات لتزويد اسرائيل بالطائرات النفاثة المقاتلة الحديثة . ولم يكن هناك امكان في ابقاء اسرائيل خارج النزاع ، اذ منذ وقع « الهجوم العسكري المعد له والمخطط » على غزة في شباط عام ١٩٥٥ ، كان من الواضح ان اسرائيل تعمل للخطة التي تريد فيها ان « تعلم العرب درساً آخر » .

ولم يكن هناك امكان ايضاً في اخفاء اشتراك نوري في خطة ايدن ، وهو الاشتراك الذي سجله اللورد بيردوود عن ثقة ومعرفة ، عن انظار شعبه أو حتى أعدائه . ولم يكن هناك شك ايضاً في ان بعض الافراد من حلقة نوري السعيد

الشخصية الذين كانوا مخلصين له كل الاخلاص، كما كانوا مخلصين لبلادهم وشعبهم، قد رجوا منه ، ان لا يتخذ هذه الخطوة المميتة ، وقد اصابهم الذعر كل الذعر عندما رأوه يستخف بآرائهم واحتجاجاتهم.وهكذا وقعت الواقعة ، وانتشرت الانباء بصورة لا بد منها في العالم العربي . وقد قال ايدن في مجلس العموم فيما بعد ، « ليس صحيحاً ما يقال ابداً ، من ان جميع البلاد العربية تتمنى النجاح لعبد الناصر » . ومن المحتمل ان تكون هذه الكلمات قد شجعت الشعب البريطاني ، ولكنها في العالم العربي اكدت الاعتقاد القائل ، بان ايدن ونوري السعيد شريكان ضد عبد الناصر [١] . واخذ اعداء نوري السعيد يجدون من يصدقهم ، عندما يقولون ان نورى السعيد يدعم بريطانيا في محاولاتها اسقاط حكومة هي دولة عضو في الجامعة العربية، بقصد اعادة النفوذ البريطاني الى الشرق الاوسط من جديد . وكان النفوذ البريطاني يعني للعرب في هذا الوقت اول ما يعني حماية اسرائيل وتغطية روحها التوسعية . وكانوا لا يرون في بريطانيا الا شخص الوصي الذي يحمل صولجانه ، اما الاعتقاد بان هذا الوصي حارس امين للمصالح العربية فقد تبخر نهائياً في عام ١٩٤٨ عندما اقام اليهود دولتهم في فلسطين واضطر ثلاثة ارباع مليون لاجيء عربي الى مغادرة بيوتهم وممتلكاتهم . وعندما واجهت ايدن الحاجة الماسة لتبني سياسة تؤدي الى اضعاف مركز عبد الناصر السياسي عند العرب ، وتقوية مركز ايدن ، قام ايدن باتباع سياسة ادت الى العكس تماماً .

وكان في وسع الرأى العام البريطاني ان يتأثر بسهولة بالدعاية الرامية الى تصوير عبد الناصر بصورة هتلر . ولكن ايدن ونوري لم يكونا بحاجة الى تأييد جماهير الناخبين البريطانيين بل الى تأييد جماهير العرب التي هي صاحبة الحق في ان تقرر في رأيها ، ما اذا كانت تريد ان تسير وراء عبد الناصر او وراء نوري السعيد ، فقد كان من الواضح ان الجماهير اذا اتجهت ضد نوري ادى اتجاهها الى سقوطه ، الذي يعني سقوط حلف بغداد وبالتالي سقوط السياسة البريطانية

---

١ – هانسارد – المجلد ٥٥٨ . العمود ٣٠٠ – ٣٠١ .

معه ، واذا ما سقطت السياسة البريطانية اصبح المجال فسيحاً لدخول الروس . وكانت الجماهير العربية ترى ان البريطانيين والفرنسيين هم الذين يهددون بالغزو العسكري لا عبد الناصر ولا روسيا . وكان عبد الناصر ، مدعوماً بالروس ، هو الذين يقف في وجه الهجوم العسكري على العرب لا ايدن ونوري . والكاسبون من سياسة ايدن هم المستعمرون والصهيونيون لا المصريين او العرب عامة .

وهكذا اتجه ايدن في ندائه الى الجهة الخاطئة من المقترعين . ولم يكن هذا الاتجاه عسيراً على الفهم ابداً . اذ لم يسبق لحكومة بريطانية ان اهتمت في قليل او كثير بالرأي العام العربي . ذلك لأنه في نظرها كلها ، لم يكن بالشيء المهم . فاذا كان هذا الرأي الى جانبنا ، فالخير في ذلك ، اما اذا كان معادياً لنا ، فهو معاد بحكم المنطق للحكومات والعهود « الملتزمة » لنا ، وهي تقوم بكل ما هو ضروري لمواجهة ذلك . وما دام ان الحكومات العربية تؤمن تحت النفوذ البريطاني شكل التأييد المطلوب ، فان الرأي العام العربي ، على حقيقة حاله ، شيء لا اهمية له . ولم يكن البريطانيون قد فهموا بعد اهمية الخلل الذى طرأ على جهاز النفوذ البريطاني عن طريق ثورة مصر . كما لم يكونوا قد لاحظوا وجود قوة جديدة تمثل الرأي العام العالمي ، وان عبد الناصر من الذكاء بحيث اتقن استخدام هذا الرأي واستغلاله . وظل الاعتقاد سائداً بريطانيا بانه اذا توافر للحكومة البريطانية تأييد الرأي العام في بلادها ، فان عرضاً صلباً للقوة كفيل بأن يؤدي الغرض « لا سيما وان كل ما يفهمه المصريون هو القوة » .

واللغة الانكليزية عاجزة ، اذ أن كلمتي « الجرأة » و « الكفاية » تستعملان لوصف الأعمال الخيّرة والشريرة على حد سواء . فليست هناك كلمات خاصة لأعمال الشر مثلاً . ولما غدا من المستحيل سياسياً في انكلترا استخدام كلمات لوصف عبد الناصر يمكن ان تفهم على انها تصف نواحي الخير فيه ، توقف المسؤولون في انكلترا عن استعمال كلمتي « الجرأة » و « الكفاية » عند الحديث عنه . وهكذا فان لغة الغضب ومحاولة الامتهان ، التي سيطرت سياسياً واجتماعياً على انكلترا ، ارادت ان تبعد عن عقول الجماهير في البلاد ، تفهم

الحقيقة الواقعة وهي ان عبد الناصر رجل يمتاز فعلا بالجرأة العظيمة ، والكفاية النادرة . ولما كانت عملية تثقيف الشعب البريطاني على الاعتقاد بان عبد النـاصر كهتلر ، وانه سينتقل من عمل استفزازي الى آخر ، الا اذا اوقـف عند حده باجراء عسكري صلب ، كما كان في الوسع إيقاف هتلر في بداية امره بعمل مماثل لو طبق ، تجري باستمرار ، ليل نهار ، فـإن الشعب البريطاني عجز عن ادراك الحقيقة الواقعة وهي ان عبد الناصر يختلف تماماً عن هتلر ، في انه لا يقوم بلعبة عسكرية بل بلعبة سياسية . وبعد بيانه الأول الغاضب الذي أمم فيه شركة قناة السويس ، اظهرت كل خطوة خطاها على ان الغضب لم يكن هو الذي يوجهه ، بل العقل والتفكير البالغ الذكاء .

كان هتلر يحكم شعباً ذا مزايا وغرائز عسكرية عظيمة ، يقف في طليعة التقدم الصناعي والتقني ولديه طاقات انتاجية كافية تلقائياً . وكان يعرض بصورة محددة خطراً عسكرياً ، معتمداً على ثقته بقوته نفسها ، ولا يقيم وزنـاً للرأي العام العالمي . أما عبد الناصر ، فيقود شـعباً ليست له اطماع عسكرية ، وطاقاتـه الصناعية وامكاناته التقنية لا تكاد تذكر ، يعتمد في قوتـه على السلاح المستورد . وكان في وسع المانية هتلر ، ان تغدو ، وقـد غدت بالفعل ، قوة عسكرية من الطراز الأول . ولم يكن في وسع مصر ان تصبح عسكرياً شيئاً يذكر ، اذا قورنت ببريطانيا وحدها ، فكيف اذا واجهت بريطانيـا وفرنسا واسرائيـل مجتمعة .

ولهذا ، فقد كانت لعبة عبد الناصر ، كما يجب ان تكون سياسية . انه يريد تأييد العرب ، والافريقيين–الآسيويين ، والعالم باسره . ويجب ان يظهر والحالة هذه ، كبلد صغير متحرر حديثاً يهدده عمالقة المستعمرين بصورة لا عدل فيها . وكان عليه ليضمن النجاح في خطته هذه ، ان يتجنب القيـام بأي عمل استفزازي ، وان يبقي القناة مفتوحة للملاحة ، وان يعلن كل تصميم على احترام ميثاق قناة السويس لعام ١٨٨٨ ، مع الاصرار على فرض الحصار على اسرائيل ، التي يحمل ضدها قضية قانونية قوية قابلة للنقاش . وكان عليه ، بالاختصار ، ان

يرد على تكهنات الجناح اليميني في بريطانيا ، الواثقة من انـه سيتـدخل في الملاحة ، ويخلق الفوضى في القناة ، ولا يقيم وزناً لميثاقها ، بالاكتفـاء بأن لا يحقق شيئاً من هذه التكهنات ليظهر زيفها . وكانت بيده اوراق رابحة اخرى ، يستطيع استخدامها والتأثير بها على جميع العرب . ففي وسعه ان يقول ، انـه اذا ضعف أو استكان ، ونجح التهديد الانكليزي - الفرنسي ، فان اسرائيل ستكون اول من يكسب . وفي امكانه ان يقول ان اليد الصهيونية ، تقوم وراء هذا التهديد كله وتحركه مثيرة حملة من الكراهية ضد العرب ، بالطريقة القديمـة المألوفة . منتظرة الفرصة المناسبة لتنهش قطعة اخرى من الارض العربية . وكان في امكانه ان يقـول ايضاً ، ان نوري السعيد ، كان يحقق للصهيونيين كما للاستعماريين لعبتهم .

وهكذ بينا كانت الحكومة البريطانيـة تعمل على خلق حالة من الغضب والامتهان عند شعبها متوقعة قيام عبد النـاصر بأي عمل استفزازي ، تتخذه ذريعة للتدخل العسكري ، خاسرة بذلك المعركة السياسية التي كانت في الحقيقة هي اهم شيء ، كان عبد الناصر حريصاً كل الحرص ،على ان يتجنب أي استفزاز ، وكان يكسب العون السياسي الذي كان في حاجة اليه . واذا حكمنـا على ضوء الرعود القاصفة من الوعيد التي كانت تظهر في صحف الجناح اليميني في انكلترا ، قلنا ان نجاح عبد الناصر في الابقاء على القناة مفتوحة للملاحة العالمية ، وتجنبه التدخل في شؤونها ، كان يعتبر في حد ذاته استفزازاً . فالمفـروض في المصريين عندهم ، ان يفزعوا ويهربوا اذا قرعت لهم قرعة داوية ، لا ان يقفوا ويصمدوا . والمفروض في المصريين ان يعجزوا عن ادارة القناة .

وكانت النتيجة عند العرب ، ما كان محتوماً ان يقع ، وهو ان يزداد عبـد الناصر قوة ونوري السعيد ضعفاً .

وكتبت في الخامس والعشرين من آب ، رسالة اقول فيها :

« يعتقد الكثيرون من العراقيين ان نوري السعيد جلب البلاء الى نفسـه ، لأنه سمح للغرب بأن يقوده الى حلف بغداد وان يمزق الجامعة

العربية . وجميعهم يردون التسلسل في الاحداث الى اسرائيل . فالخوف من ان تسجل اسرائيل اهدافاً جديدة يسيطر على كل انسان . ولا يركن الى الشك في قدرة المصريين على ادارة القناة ، أو على اعطاء التأكيدات المرضية بادارتها بصورة صحيحة الا نفر قليل . وهم يعتبرون القناة جزءاً من الارض المصرية التي تملك عليها حق السيادة ، بشكل لا يتطرق اليه شك .

« ولو تحركنا عسكرياً ، فان عبد الناصر ، سيطلب الى الجامعة العربية مساعدته ، وتتضمن هذه المساعدة وقف الزيت . وهل في مكنة أي من الدول العربية المنتجة للزيت ان تبعث بالزيت اللازم لقاذفات القنابل والدبابات والبوارج لقوة غازية ، ارسلت لتغتصب ارضاً من دولة عربية شقيقة هي عضو في الجامعة العربية ؟ ولا ارى بي حاجة الى القول ، بأن نوري السعيد او اي خليفة له يصل الحكم بطريقة دستورية ، سيحاول التملص من ذلك ، ولكنه لن ينجح . وسيقف الزيت حتماً . وحتى لو لم يوقفه العراقيون فان السوريين سيوقفونه قطعاً ، وليس في امكاني ان ارى العراق يدخل الى الميدان لابساً زي الدولة الحليفة للغرب ، ليرغم السوريين على ابقاء خط الانابيب مفتوحاً مساعداً بذلك القوات المسلحة الاستعمارية التي تسفك الدم العربي في دلتا مصر .

« وكان الشيء الوحيد الذي في مكنته تبديل سير الاوضاع ، ان يتعجل عبد الناصر الأمور ، وان يضيع القناة . ولكنني لم اعتقد لحظة واحدة بأنه سيخطىء . فهو يمتاز بالمكر والدهاء الشرقيين ، وهو يريد ان يضمن تأييد الكتلة الافريقية الاسيوية ، وتأييد القسم الاكبر من الرأي العام في الغرب ، الذي لا يمكن ان يؤيد استخدام القوة ضد خطر افتراضي من تدخل المصريين في سير الملاحة في القناة . واستطيع ان اتصور ان الروس قد طلبوا ثمناً لتأييدهم لعبد الناصر ، وهذا الثمن ، ان

يكون حكيماً في تصرفاته وان لا يعمل شيئاً يستفز التدخل المسلح من جانب الغرب ، اذ لا شك عندي ان الروس كغيرهم حريصون على تجنب حرب عالمية . وهكذا فانني اتكهن بأن عبد الناصر سيكون ليناً في اجراءاته من غير ضعف ، وانه سيعرض قضيته على ان الاعتراض الوحيد هو الاعتقاد الشائع بعجز مصر عن ادارة القناة وسيظهر القضية الى الدول الافريقية على انها مؤامرة استعمارية تؤيدها الصهيونية ، رغبة منها في تحطيم الحصار الاقتصادي ، واذلال الشعوب غير الغربية .»

وكتبت في رسالة ثانية في السادس والعشرين من آب اقول ...

« ... وماذا يجب ان نعمل ؟ علينا ان نرخي قبضاتنا ، ونزيل العصائب عن اعيننا ، ونفكر بعض التفكير . علينا ان نفتح عيوننا وان ندرك ان هناك رأياً عالمياً عاماً ، لا تجدي معه البنادق والغدارات ، وان هذا الجهاز من الرأي العام العالمي ، قد خلق ، وقد منحته الاذاعة ووسائل المواصلات الحديثة كل قوة فعّالة ، وان افراد الجيل الناشيء من جميع الشعوب ، يطوفون انحاء العالم في اسرع طائرات قمنا نحن في الغرب بتزويدها ، وقد تعلموا ما في لعبة السياسات الدولية من حيل والاعيب ، وادركوا كيف تستغل الدول العظمى « مراكز القوة » التي تملكها ، ولم يروا سبباً يحول بينهم وبين اتباع نفس الطريق سواء اكان هذا السبب عملياً او ادبياً .

« ولعل من الأهم لنا ، ان يكون الرأي العام العالمي وراءنا في اية اجراءات قد نتخذها في موضوع السويس ، بدلاً من ان تسعى الدول الغربية الى الاحتفاظ بسيطرتها على القناة . والوصول الى نتيجة تدعمها جميع الدول المنتفعة بالقناة ، وبينها الدول المنشقة حالياً ، والتأييد الأصيل من دول مثل ايران والعراق – واعني بكلمة اصيل ، ان ينطلق هذا التأييد دون أي خطر بمهاجمته على اعتبار انه ذيل من ذيول الغرب – خير ، واكثر قوة وفاعلية ، من حل يفرض بطريق القوة أو

العقوبات ، ويستهل جولة جديـــدة من المرارة الساخطة ، التي تصلح لاستغلال روسيا الدائم .

« هذا هو الخط الايجابي الذي في وسعنا ان نتـخذه او نتخذ شيئاً شبيهاً بـه . والا فسنجد انفسنا في ورطة لا نستطيع الخروج منهـا ، بينما يجول عبد الناصر ، بابتسامته الساحرة ، طائفاً بها حول العالم الذي خسرنا فيه سمعتنا وكرامتنـــا . وقد نستطيع ان نلوح بالعصا ، مثل ذلك الاستاذ الذي فقد حب طلابه ، فلجأ الى عصاه ، معتقداً عن خطأ وضلال ، انها مصدر السلطة ، وناسياً في سورة غضبه انهـا مجرد رمز ، بل مجرد وسيلة تعبر عن سلطة يجب ان تكون قائمة ، ومقبولة ومحترمة في حد ذاتها قبل ان تشرع العصا في العمل .

« هذه هي الخطيئة الكبرى التي وقعت فيها حكومة جلالته ، انها خطيئة الاعتقاد بان النفوذ الدولي يقاس في هذا العالم المتغير ، بقـــوة الدولة العسكرية ، وباستعدادها لاستعمالهـــا ، وبان هدف تهديدنا سيستكين ويذعن ، وان غيره من الشعوب الصغيرة ، سيرى ، ويتخذ من ذلك عظة وعبرة ، وينفذ تبعاً لذلك ما نشاء ونهوى ، والا ؛ لا ، ان القضية لا تجري على هذا النحو . وليس السبب في ذلك ، ان روحنا غدت ضعيفة ، او اننا الفنا النعومة . بل السبب ، ان هناك عدداً كافياً من الشعوب في العالم ، قد غدا يرى وسائل وطرقاً اخـرى ، افضل من هذه الطريقة لتسوية الخلافات ، وان هذه الشعوب مصممة على ان تجعل من كل حادث دولي فرصة للتقدم في طريق بناء منظمات قوية تتـــولى تنظيم الشؤون العالمية ، ذلك لأن العلم قد وفر لنـــا الوسائل لتحقيق ذلك ، بما امنه لنا من تسهيلات في المواصـلات والسفر السريـع ، غدونا نتمتـع بها كل التمتـع ، ولان التشابك في شؤون العالم من جراء هـــذا التقدم ، قد جعل حل مشاكله بالاساليب الجديدة ضرورة ملحة . وما زلنا في مرحلة دقيقة لأن هذه المنظمات ما فتئت في سن طفولتهـــا

الباكرة ، وتفتقر الى الكثير من الفاعلية ، والتأثير . ويقـــول انصار استخدام البوارج ، ان علينا ان نتصلب ، وان نتحلى بالجرأة لإظهـــار قوتنا . ونحن من دعاة الرأي الآخر ، نقول ... حقاً يجب ان نكون صلبين ، ولكن صلابة من نوع آخر ، فعلينـــا ان نتحلى بالشجاعة ، للتمسك باعتقادنا بان الوسائل اكثر اهمية من الغايات ، وان الغاية لا تبرر الواسطة ، بل ان الواسطة في قضايا كهذه ، هي التي تـكيف الغاية ، وان طريقنا للنفوذ والقوة في الشؤون العالمية يقوم في ريادتنـــا في عالم التنظيم الجديد بين الدول » .

وعدت الى العراق في السابع من شهر ايلول . وانتهت محادثات منزيس في القاهرة الى نهاية فاشلة في التاسع من ايلول ، واصدر عبد النـاصر ، ما يسمى في عرفنا بالكتاب الابيض . وقد اعلن فيـه تمسكه بميثاق عام ١٨٨٨ وبنـــوده المتعلقة بحرية المرور في القناة مقترحاً عقد مؤتمر دولي . وقد ترك هذا البيان اثراً عظيماً في الرأي العام العراقي ، ولم يكن في استطاعة حتى اكثر العراقيين ولاء لبريطانيا ، الا ان يروا في هذا البيان ، انـــه على الرغم من تفريطه بشيء امام الوعيد ، قد افسح المجال ، عن طريق المفاوضات الدولية الصحيحة للخروج من المأزق ، وان ليس في وسع الحكومتين البريطانية والفرنسية اذا كانتـا حقـاً ترغبان ، كما تدعيان جهاراً ، في الوصول الى تسوية تنطوي على ضمانات دوليـة اصيلة ، ان ترفضا هذا العرض . ورحب العراقيون بهذه المبادرة ، لأن آخر ما كانوا يرغبون فيه ، مهما كان رأي بعضهم او امله ، أن يصـــار الى اي نوع من العمل ، من اي فريق كان ، خشية ان يؤدي هذا العمل الى اضرام النـــار في المشاعل المنتشرة في الشرق الاوسط ، والتي كان العراقيـون يحسون بوجودهـا احساساً ينطوي على الألم . وكانت معرفتهم باشتراك نوري السعيد مع ايدن ، قد حطت من شأنه امامهم الى حد خطر .

وكان ما طرأ على موقف عبد الناصر العام من ضعف في الدول العربيـة من جزاء بعث الأمل في الوصول الى حل سلمي ينزع عنه صورة « الاستشهاد » ، من

حظ نوري السعيد . وبدا ان الممالك والمشيخات المنتجة للزيت تقترب بعضها من بعض وتقارن بين المذكرات التي تبعث بها .وكانت هذه الممالك قد وجدت نفسها مرغمة على اعلان نفسها الى جانب عبد الناصر بكل ما لديها من قـوة ، ضد أي تهديد من الدول المستعمرة السابقة ، أما الآن فاذا سحبت هـــذه التهديدات ، وأمكن الوصول الى حل سلمي ، ففي وسع هذه الممالك والمشيخات ان تسترخي وان تعود الى الاهتمام بمصالحها ، ولم تكن هذه المصالح بالطبع لتنطوي على شيء يشبه قبولها بسيطرة مصر .

ودارت جـولة من الزيارات بين فيصل ملك العراق وحسين ملك الاردن وسعود ملك العربية السعودية وشيخ الكويت ، وشكري القوتلي رئيس جمهورية سوريا . وكانت هناك دلائل واضحة على ان الملوك كانوا يفـكرون بان التضامن مع عبد النـــاصر ضد التهديد الاستعماري ، يجب ان لا ينطوي على التسليم بمصالحهم في سبيله . ولو ادركت الحكومات البريطانية والفرنسية آ نذاك ان الوصول الى تسوية دولية سيؤدي الى اضعاف لفوز عبد النـاصر على الرأي العام العربي ، وان بقاءهما في وضع المهدد بالقوة العسكرية سيقوي هذا النفوذ ، لكان في امكانها اصلاح الخطأ .

وكان ايدن في عمله ، يقيم الصعوبات في طريق اولئك الذين لم يكونوا يرغبون في ان يتبعوا مصر ، وعارض دالاس في قيام اتحاد المنتفعين بالقناة في مطلع شهر ايلول بينما ايده ايدن ، على ان يكون هذا الاتحاد وسيلة لفرض التهديد على مصر لا اداة للتفاوض والتسوية ، وهو ما كان في الامكان ان يجدي ويفيـــد . وعلق فرنسي على تأسيس الاتحاد فقـــال ان الاتحاد المذكور كان اشبه بالسفـّود الذي يفتقر الى الرأس المدبب ، بينما الحقيقة ، هي ان هذا السفود قـــد اعطي رأساً مدبباً اكثر من اللزوم لنخز مصر ، وان ايدن لجأ الى استخدام هــذا الرأس . وهكذا كان من المقرر ان يفشل هذا المشروع منذ ولادته . ففي وسعك ان تأمر الآخرين بطاعتك او تدعوهم للتعاون معك ، ولكن ليس في وسعك ان تأمرهم بالتعاون وان تدعوهم الى الطاعة . واذا دعوت الى الطاعة كما فعلت لجنة

الثاني عشرة دولة عن طريق بعثة منزيس ، كان مصيرك الى الفشل . واذا أمرت بالتعاون كما اخذ ايدن يفعل الآن في موضوع اتحاد المنتفعين بالقنـــاة ، فان مصيرك الى الفشل ايضاً .

وصدرت عبارات عن ايدن في مجلس العموم ، هزت اوصال ، حتى اكثر العراقيين ولاء لبريطانيا والغرب . فقد سخر من ملاحظة غيتسكيل بان حركات جنودنا أخذت تؤلب العرب ضدنا قائلاً « ليس صحيحاً ان جميع البلاد العربيـة تتمنى النجاح لعبد الناصر » [١] . وقد اظهر هذا القول الخطأ في تفكير ايدن . ولو انشقت الأرض وابتلعت عبد الناصر ، لفرح بذلك بعض العرب ، ولا ريب في ان ايدن كان يفكر بنوري السعيد عندما قال هذا القـــول ، ولكنه ألحق بنوري ضرراً كبيراً من جراء قوله هذا . أما ان تتمنى بريطانيـا المستعمرة ، وفرنسا الغاصبة واسرائيل الصهيونية لعبد الناصر الزوال ، فشيء آخر يختلف كل الاختلاف . وكان هناك عدد من العرب يؤيدون الغاية التي يسعى اليها ايدن ولكنهم كانوا يعارضون معارضة شديدة في الطريقة العسـكرية الحمقاء الـــتي اختار اتباعها .

وشرع ايدن يتحدث الآن عن اندفاع العرب الى ركوب عربة جوقة عبـد الناصر ، اذا سمحنا له ، بأن يخلص بقناة السويس كما يريد [٢] . ولـكن هـــذه العربة بجوقتها كانت موجودة ، حتى قبل ان يظهر عبد الناصر ، وكانت تعزف لحني الاستقلال من النفوذ البريطاني ، ومقاومة الصهيونية . وكان عبد النـاصر ، هو الذي استقل هذه العربة ، فساط جيادها ، وشدد من عزائم العازفين وحملهم على ان يعزفوا بحماس ، وها هي الآن غطرسة ايدن ، وتهديداتـه العسكرية ، تجيء ، كشيء ناخز ، يهمز جياد العربة ، وافراد الجوقة ، وتـدفع بالعرب الى اللحاق بها والسير في ركابها . وجاء الأمل بامكان الوصول الى تسوية دولية سلمية يهدىء من سرعة الجياد ومن حماس الجوقة ومن يتبعها . وكان العرب الذين خافوا

---

١ - اللورد بيردوود - نوري السعيد - ١٩٥٩ .
٢ - هانسارد - المجلد ٥٥٨ عمود ٣٠٠ - ٣٠١ .

من السرعة التي يغذ بها عبد الناصر سيره ، وقد لاحت لهم الآن تباشير الوصول الى تسوية ، يأملون ، في ان يتمكنوا من اخذ الزمام بايديهم ، ووضع الجوقة تحت سيطرتهم ، وتهدئة الجماهير اللاحقة بها لتشترك معها في الانشاد والنفخ في الابواق .

وكان ايدن نفسه ، هو الذي عاد يدفع بالعربة الى الامام ، ويحفز العرب على امتطائها ، وكانت اشارته الى اسرائيل في مجلس العموم في الرابع عشر من ايلول ، اشد حافز من جميع الحوافز السابقة . ولقد تساءل ايدن في المجلس ... قائلا ، واذا قدر لعبد الناصر ان ينجح ، فكيف يمكن تأمين حماية اسرائيل ؟ وعلى الرغم من انكاره ان اعماله كانت توحد العالم العربي ضدنا ، فقد نطق معبراً عن العاطفة الوحيدة ، وهي تأييد اسرائيل ضد العرب التي يمكن لها ان توحد العالم العربي ضدنا اكثر من أي شيء آخر .

وقررت بريطانيا وفرنسا في الثاني والعشرين من ايلول عرض قضية السويس على مجلس الأمن .واصبح من المؤكد الآن ، بالنسبة لما يتراءى لنا في بغداد ، ان التسوية السلمية اصبحت أمراً واقعاً ، وان العمليات الحربية لن تقع . فقد وصلت القضية الى الأمم المتحدة ، واعلن عبد الناصر التزامه بمبدأ التفاوض الدولي ، ولم يعد ثمة امكان في قيام عمليات حربية بسبب الخلاف على القناة . ولكن قبل الشروع في المناقشة ، التي لم تبدأ فعلاً الا في الخامس من تشرين الاول ، قامت اسرائيل بشن هجوم عسكري على الاردن . فلماذا اختارت اسرائيل هذا الوقت بالذات لشن هذا الهجوم المعين ؟ في وسعنا ان نكون واثقين من شيء واحد ، اذا لم نكن راغبين في التقليل من ذكاء اسرائيل وصلابتها ، وهو ان هذا العمل ، لم يقع من قبيل الخطأ . ولم يكن قد فات انتباه العرب ، انه في مطلع عام ١٩٥٥ ، وكان الجو مواتياً للقيام بحركة في اتجاه تسوية ، ولكن الاسرائيليين شنوا هجومهم الذي خططوا له واعدوا له عسكرياً على قطاع غزة ، وهو الهجوم الذى قدر له ان يكون بداية دوامة الاحداث التي اوصلتنا الى ازمة السويس . ولم يغب عن انتباه العرب ، ان

الهجوم على الاردن في نهاية ايلول عام ١٩٥٦ ، قد جاء في لحظة بدا فيها وكأن تسوية مشكلة السويس غدت امراً محتملاً . فهل قررت اسرائيل الآن ان تشن هجومها العسكري الذى وقع بعد شهر ؟ ولا ريب في ان هذا القرار قد اتخذ قبل وقت كاف ولم يأت عرضاً . وعندما اتخذ هذا القرار ، كان من المهم للغاية ، ان تكون عواطف الحكومات الغربية وشعوبها ، الى جانب اسرائيل بصورة تامة وان تكون ضد عبد الناصر والعرب . واشتداد الخلاف حول القناة ، واتجاه موجة الغضب نحو مصر ، عاملان في صالح اسرائيل .

ولو امكن الوصول الى تسوية دولية سلمية للخلاف على قناة السويس ، فإن العواطف ستهدأ حتماً ، وسيتجه الرأى العام الغربي ضد أى اضطراب جديد ، وعلى ضوء التقديرات العسكرية – السياسية ، لا يمكن لقرار اسرائيل بمهاجمة مصر ، ان ينجح إلا اذا كان التوتر في ذروته ، بينما قد لا يتاح له النجاح ان خف هذا التوتر . وقد جاء الهجوم العسكري على الاردن الآن ، ليضاعف التوتر ويزيد في حدته . واذا ما افترضنا ان وراء كل عمل غاية ، امكننا القول ، ان هذا الهدف ، هو ان تأتي الظروف مؤاتية لشن غزو مسلح .

وقد ظلت اسرائيل عدة اسابيع طويلة بعد بـدء الخلاف على السويس ، بعيدة عن الاضواء ، وكان من سياسة بريطانيا ونوري السعيد ايضاً ، ان يعالج الخلاف على القناة كقضية منفصلة عن قضايا الشرق الاوسط العامة ، ولا علاقة له بالنزاع العربي – الاسرائيلي . وذكر بيان صدر عن وزارة الخارجية البريطانية وتلي في مجلس العموم في الاول من آب عام ١٩٥٦ ، « ان شحنات الاسلحة الى الشرق الأوسط ترتكز الى البيان الثلاثي لعام ١٩٥٠ ، المتعلق بالنزاع العربي – الاسرائيلي . أما تأميم قناة السويس فلا علاقة له البتة بذلك النزاع » [١] .

وكان هذا القول صحيحاً في معناه الحرفي . فقـد كانت وجهة نظر نوري السعيد في هذا الموضوع تصر على ابقاء كل ما يمكن ان يحدث بين بريطانيا ومصر ، في معزل عن شؤون الشرق الاوسط بصورة عامة . فاذا امكن الباس

١ – هانسارد – المجلد ٥٥٧ – عمود ١٣٧٥ .

الخلاف هذه الصورة ، وعلى انه قائم بين عبد الناصر وبريطانيا ، ففي امكان نوري ان يقنع الشرق الاوسط العربي ، ان عبد النـاصر هو الذي سبب لنفسه هذه المشكلة ، ولذا فان خلافه مع بريطانيا يجب ان لا يعتبر على اساس انه قضية عربية عامة ، وهذا يساعد ايضاً على ابقاء اسرائيل خارج الخلاف . وقد بدا من البيان الذى افضى به الى صحيفة التايمس اللندنية فى السادس من آب ، ان نوري كان يخشى ان يؤدي النزاع الى معركة مع اسرائيل على اساس انها نقطة الاحتراق ، وانها ايضاً الوارث المتبقي . وكان قد شدد الضغط على الحكومة البريطانية لاقناعها بالضرورة الملحة في ابقاء اسرائيل خارج النزاع . وكان مثل هذا الاقناع بالاضافـة الى الشروط الاخرى التي سجلها اللورد بيردوود ضرورة ماسة ، اذا اراد ايدن من الخطوات التي سيقوم بها تجاه عبد الناصر ، تقوية نوري السعيد لا اضعافه ، لا سيما وان تقويته امر جوهري بالنسبة الى حلف بغـداد ، والى وصاية نوري السعيد العربية على الحلف ، والى دعم الاسس النهائية للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط بوجه عام .

ولكن اسرائيل بدفقة من قذائف المدافع ، عادت فوضعت نفسها في قلب الميدان .

وعلينا ان نقف عند هذه النقطة لنرقب تسلسل المعركة السياسية وتطورها منذ دوي هدير المدافع في قطاع غزة في شباط عام ١٩٥٥ ، ومنذ ان حطم هذا الدوي كل امل في الوصول الى تسوية ، واثار الصراع على الارض والقوة ، وهو الصراع الذي كان يقترب الآن من مرحلة التصادم الحاسم .

عشية العدوان

يمكن تصوير الوضع في ربيع عام ١٩٥٥ على انه ارتباط بين بريطانيا والعراق قائم على اساس معاهدة التحالف ، بينما كانت مصر واسرائيل مستقلتين تمام الاستقلال وخارجتين عن نطاق الاحلاف الغربية .

ولم تحل نهاية عام ١٩٥٥ ، حتى كانت روسيا قد دخلت الى الميدان عن طريق علاقاتها الجديدة مع مصر ، وكان العراق قد خطا خطوة اكبر في طريق التقارب نحو بريطانيا ، كما كانت اسرائيل ، تدنو شيئاً فشيئاً من بريطانيا . وكانت دعايتها تستهدف مصر مباشرة ، ولكنها صيغت بشكل يجعلها تقف ايضاً بين بريطانيا والعراق ، فلقد كان من الاحتياجات الماسة بالنسبة لها ، ان تبقي على بريطانيا بعيدة الى حد ما عن العرب . وكانت الدعاية الاسرائيلية تعمل ايضاً عن طريق الرأي العام البريطاني ضد مصر .

ولنستعرض الآن الوضع في العراق . فقد اثارت ازمة السويس الخلافات الداخلية الى حد كبير . ووقف الوطنيون من رجال الجيل القديم يعارضون نوري واصدقاءه على أسس سياسية لا تنطوي على اية محتويات متطرفة او اصلاحية ، وانما على قضايا تمس السياسة الخارجية والعلاقات مع بريطانيا . وظهرت معارضة اخرى تضغط على نوري من ناحية ثانية ، وتنبع عن الجيل الصاعد من الشبان المثقفين ثقافة غربية ، ومن الميالين الى اليسار ، والمنادين بالاصلاح ومعظمهم من انصار الجمهورية .

وعندما حل شهر ايلول عام ١٩٥٦ اصبح في وسعنا ان نرى بريطانيـــا ، وقد وقف الى جانبها نوري السعيد ، والعهد في العراق دون بقية الشعب ، أمـا المعارضة العراقية من الشباب فتقف الى جانب مصر ، وجانب عبد النـاصر . وكانت الخطوط الرئيسية للحرب السياسية هي نفس الخطوط السابقة ، باستثناء شيء واحد وهو ان المعارضة العراقية أصبحت تهاجم الآن نوري السعيد .

وغدت مصر متعرضة الآن لنيران دعـاية بريطانيـــا ونوري السعيد واسرائيل . ولم يكن غريباً والحالة هذه اذا ربط المصريون وجميع العرب من انصار عبد الناصر ، بين نوري السعيد وبين الاستعمار والصهيونية . وكان تنظيم المعركة السياسية من ناحية الشكل الآن تكراراً صحيحاً للتنظيم الذي شهدناه في فلسطين قبل الحرب ، واثناء حركة رشيد عالي . وكانت العناصر الخمسة هي كما يلي : مجتمع عربي منقسم على نفسه ، يقف فيه المتطرفون ضد المعتدلين ، وتدعم بريطانيا المعتدلين ، بينما تدعم دولة قوية اخرى المتطرفين ، ويحاول الصهيونيون وهم العنصر الخامس ان يؤلبوا فريقاً على فريق ، وجهـــة على اخـرى . ففي فلسطين كان هناك المفتي ، وجماعة النشاشيبي ، وبريطانيا وايطاليا والصهيونيون. وفي العراق كان هناك في عام ١٩٤٠ ، رشيد عالي ونوري السعيد والبريطانيون والألمان والصهيونيون . والآن وفي عام ١٩٥٦ ، كان هناك عبد الناصر ونوري السعيد والبريطانيون والروس والصهيونيون . وكانت مغامرة بريطانيا في حقبة الثلاثين في فلسطين، وفي عـام ١٩٤٠ في العراق . أما الآن ففي الشرق الاوسط . بكامله .

كان هذا هو تركيب الصراع السياسي ، عندما قررت اسرائيل غزو سيناء . اما وقد اتخذ هذا القرار ، ففي وسعنا الآن ان ننحي جانباً كل نقـاش مطلق ، عمن كان البـــادىء بالعدوان ، وهل هي اسرائيل او مصر ، وعما اذا كانت لاسرائيل نوايا توسعية ، او كانت لها حقوق او تشكو من اجحاف . وقـــد اقتنع العرب منذ عهد بعيد ، ومنذ وقع الهجوم على قطاع غزة في شهر شباط عام ١٩٥٥ ، بان اسرائيل كانت تعمل على خلق الخلافات والعداوات في الشرق

الاوسط ، بقصد استغلالها لتحقيق فتـوحات اقليمية لها . وسواء أكان العرب على حق في اقتناعهم هـــذا او كانوا مخطئين فيه ، فلا يؤثر ذلك مطلقاً على بقية القصة . وكل ما في الامر ان اسرائيل قررت فعلاً ان تغزو سيناء. وكانت الخلافات والعداوات واقعة ، وقد قامت اسرائيل بالغزو وساعدتها الخلافـات والاعمال الحربية الـــتي نجمت عن العداوات ، وحققت اسرائيل مكاسب اقـليمية ، احتفظت بالجزء الحيوي منها . وليس هناك من سبب معقول يحملنـا على الشك في ان اسرائيل عندما قررت غزو سيناء لم تكن قـــد قررت في الوقت نفسه الاحتفاظ باكثر ما يمكنها من ثمار الاحتلال . ولا ينسجم قولي هذا بالطبع مع الصورة التي عرضت على العالم الغربي عندما قيل له « ان اسرائيل الصغيرة وقـد تضايقت من عصابات الفدائيين المصريين ، قـــد قررت ان تبعث بقوة بوليسية لطرد هؤلاء الفدائيين في عملية دفاعية مجردة » . ولـكن من السخف ان نتصور بان حكومة اسرائيل كانت ستساعد اعداءها ، برفع هـذه الصورة من اذهان البريطانيين عن طريق نشر تفاصيل حقيقة نواياها .

وفي وسعنا ان نفترض ان اهم الاهداف الاقليمية التي كانت اسرائيل تسعى لتحقيقها هو ما حصلت عليه بالفعل واحتفظت به . وهو الطريق البحري الذي ضمنت لنفسها الاعتراف الدولي به وهو طريق خليج العقبة الى ميناء ايـلات . ولهذا الطريق اهمية بالغة بالنسبة الى اسرائيل اذ فتـح لهـا منفـذاً الى البـحار الشرقية وخطاً تجارياً الى العالم الافريقي – الآسيوي . وقد اكمل هذا الطريق حلقة الاتصال بين البحرين الابيض والاحمر ، ومكنها من خرق الحصـار الذي تفرضه مصر على مرور بواخرها وشحناتها عبر قنـاة السويس . كما اكمل تجزئة العالم العربي جغرافياً ، الى جزئين احدهما يقع الى الغرب من اسرائيل ، والثاني يقع الى شرقها. وقد أمسكت اسرائيل بالصلة البرية بينهما الممتدة من بحر الى بحر. ومن المحتمل ان تشق قناة في هـذه الصلة البرية ، كما اقترح في اكثر من مرة ومن مناسبة . ومن المحتمل ان يمد فيها انبوب للزيت وان تقـام فيها طرق برية للمواصلات . وفي جميع هذه النواحي ، الملاحة والزيت والطرق ، يمكن اعتبارها

بديلاً عن الصلات الاخرى القائمة للسفن وللزيت وللطرق ، والممتدة في أماكن اخرى من الشرق الاوسط ، وبينها مصر وسوريا ولبنـــان والاردن والعراق والعربية السعودية . واذا ما تطورت هذه الصلة ، فلن يكون هناك أية ضرورة لسلطات احتكارية عربية . ووضعت اسرائيل في سوق المنافســة على الامكانات ضد العرب ، عند بحث الغرب عن الطرق الاستراتيجية الاقتصـادية عبر الشرق الاوسط . وكانت هذه الخطوة تحـــدياً في الامكانيات ، لاحتكارات العرب في الملكية والحيازة

ويعتبر هذا الهدف من ناحية المبدأ قديماً قدم الصهيونية نفسها ، وفقاً لمـــا تظهره يوميات مؤسسها هرتزل ، التي نشرت في عام ١٩٥٩ ، فقد قابل هرتزل في الرابع والعشرين من آذار عام ١٨٩٧ الزعيم الوطني المصري المعروف مصطفى كامل ، عندما كان في «جولة اخرى يطوف بها اوروبا لاستثارة التأييد العالمي لكفاح الشعب المصري في سبيل تحرره من السيطرة البريطانية » . وقد حمل هذا اللقاء هرتزل على التفكير على النحو التالي :

« وعلى الرغم من انني لم اقل له ذلك ، فقد كنت اعتقد ان من الخير لقضيتنا اذا أرغم الانكليز على مغادرة مصر ، فسيضطر الانكليز آنذاك إلى البحث عن طريق آخر الى الهند بدلاً من طريق قناة السويس ، التي ستضيع من يدهم أو تصبح على الاقل ، غير امينة او سليمة . وفي مثل هذه الحالة فإن قيام دولة حديثة في فلسطين تملك سكة حـــديدية تمتد من يافا الى الخليج الفارسي (العربي طبعاً) ، سيحل هذه الصعوبة للإنكليز »[1].

ولم يكن هرتزل يفتقر الى الخيال الواضح في تصور كيف يمكن لدولة اسرائيل ان تعنى بشؤونها في متاهة المنافسات في الشرق الاوسط. وقد اجتمع الى جوزيف تشمبرلين في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٠٣ وسجل في مفكرته الملاحظة التالية . وجه اليه تشمبرلين السؤال التالي :

« ماذا سيؤول اليـــه مصير جاليتكم اليهودية اذا نشب صراع على

---

١ – يوميات تيودور هرتزل ١٩٥٨ .

الشرق الاوسط اشتركت فيه فرنسا والمانيا وروسيا ؟ »

وقد رد هرتزل قائلاً :

« اعتقد ان فرصنا في مثل هذه الاوضاع ستكون أفضل واحسن . فسنقوم بدور الدولة الصغيرة العازلة . وسنتمكن من الحصول على هذا الوضع لا عن طريق حسن نوايا الدول الكبرى ، بل عن طريق ما يقوم بينها من غيرة وخلافات » .

ومن الواضح ان هرتزل لم يتخيل بريطانيا ممثلة دوراً سوى الدور المؤقت ، الذي تكون فيه كالمربي الذي يشرف على تنشئة دولة اسرائيل . ولا ريب في ان الدور الذي كانت اسرائيل تمثله في عام ١٩٥٦ ، لم يكن ليخيب آماله ، لو عاش الى هذه الايام .

وقد أدرجت هذا التحليل ، عند هذه النقطة ، لأهميته في فهم اوضاع التفكير العربي . فحث نوري السعيد الدائم على ضرورة عمل شيء تجاه اسرائيل لا يمت فقط الى النزاع حول الحدود وقضايا اللاجئين ، وهو ما يعرف به كل انسان في الغرب ويستطيع القراءة عنه ، وانما يتعلق أكثر واكثر بالقوة الدنياميكية الخفية الموجودة في دبلوماسية اسرائيل ودعايتها ، وهي الديناميكية التي يقوم عليها دليل في هذه الانقسامات والعادات والاعمال الحربية التي ستعطي لاسرائيل الفرصة للحصول على مكاسب اقليمية تعتزم استغلالها لا في شكل دفاعي بل في صورة فتح وعدوان . وان من مصلحة اسرائيل أن يشتد الخلاف وان تلتهب المنطقة بالاعمال الحربية ، وان ما ستكسبه اسرائيل سيكون قطعاً خسارة لبريطانيا ، اذ سيزرع الالغام في طريق نوري السعيد وحلف بغداد .

ورأى نوري السعيد واصدقاؤه الحكومة البريطانية وقد غدت في قبضة قوى عاطفية قام الصهيونيون بتغذيتها وتشجيعها لمصالحهم الخاصة ، وهي قوى شبت الآن على الطوق ، وخرجت عن سيطرة بريطانيا واشرافها وحتى شمولها . ورأى نوري ورفاقه ، ان الصهيونيين قد نجحوا في خطتهم لإيقاع مصر في الفخ ، وان عبد الناصر قد أثار الرأي العام البريطاني بشكل عنيف ضد القضية العربية

كلها ، وان العرب فقدوا احسن مصدر للعون لهم ضد اسرائيل . ولم يكن ثمة مجال امام نوري السعيد الا ان يناشد الرأي العام البريطاني من جديد . واختار لهذا الغرض كعادته ، مراسل صحيفة التايمس . لقد كانت فرصة تلوح امامه لتقوية مركزه امام العرب ايضاً . فقد رأى نوري ان طريقة عبد الناصر في معارضة البريطانيين جهاراً ، قد سببت النفع للصهيونيين . وبينما كان عبد الناصر يقضي جل وقته في معالجة الخلاف الذي نشب بينه وبين بريطانيا وفرنسا ، وبينما كان يتأهب للدفاع عن بلاده ضدهما ، أهمل – كما رأى نوري السعيد – الحذر من الصهيونيين الذين كانوا أعداء العرب الحقيقيين . ولو دعمت بريطانيا واميركا سياسة نوري القائمة على التفاوض دعماً حقيقياً على اساس قرارات الامم المتحدة في عام ١٩٤٧ ، فانها ستضغطان بتأييدهما هذا على اسرائيل ، وتطفئان حريقاً يكاد يلتهب ، وتقويان مركز نوري السعيد نفسه .

وقد افضى نوري بحديثه الى مراسل التايمس في الثامن من تشرين الاول عام ١٩٥٦ ، أي بعد هجوم جديد شنه الاسرائيليون على الاردن [١] . وقد قال في هـذا الحديث ان الوقت قد حان للوصول الى تسوية دائمة للمشكلة العربية – الاسرائيلية في الشرق الاوسط ، عن طريق اقناع اسرائيل بالتفاوض مع العرب على اساس قرارات الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ . ومضى حديث « التايمس » يقول :

« وقد بين نوري ان اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية كانت قد درست في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ ، الطرق الممكنة الثلاث التي تستطيع دول الشرق الاوسط ان تتبعها . وكانت الطريقة الاولى تقضي بالتعاون مع الكتلة الروسية ، وقد رفضت هذه الطريقة ، الا اذا تحولنا (اي العرب) الى شيوعيين . اما الطريقة الثانية فكانت تقضي بالحياد بين الشرق والغرب وهو ما رفضه الزعماء العرب بالاجماع ايضاً ، على اعتبار اننا لا نملك القوات الكافية للدفاع عن حيادنا . أما الطريقة الثالثة

١ – التايمس – ٨ تشرين الاول ١٩٥٦ .

فكانت تقضي بالتعاون مع الغرب . وأضاف نوري ان هـذا الاتجاه الثالث قد اتخذ بالاجماع ، مع تحفظ من مصر مشروط بالوصول الى تسوية سلمية مع بريطانيا في موضوعي السودان والسويس. اما وقد حلت هاتان المشكلتان الآن ، فقد استنكر نوري ان تظل مشكلة فلسطين بدون حل . وأشار الى ان مؤتمر الدول الافريقية ـ الاسيوية في باندونغ في عام ١٩٥٥ قد ايد وجوب تسوية قضية فلسطين على اساس قرارات الامم المتحدة » .

وكنت قد دونت في اليوم نفسه ملاحظة لخصت فيها زبدة رسالته ، قلت فيها : ان نوري السعيد يقول ... نحن معكم . يا معشر الناس في الغرب . ولكن الكرة هي من جانبكم الآن . لقد توليت زمام المبادرة . ولكن عليكم انتتقدموا لتلتقوا معي في قضية اسرائيل هذه ، وان لا تدعوني اضرب الهواء وحدي . واذا لم تقوموا بحركةحقيقية لحل مشكلتي اسرائيل واللاجئين في الوقت المناسب، وانا لا ازال في الحكم ، واذا تقاعستم عن ان تقدموا لي ما انا في حاجة اليه من عون صريح قبل ان يفوت الأوان فسيضيع كل شيء ، ولا ينفع الندم . »

وركزت الهجمات الاسرائيلية الاخيرة،الاهتمام في هذه اللحظة على الاردن. وكان الملك حسين يواجه اوقاتاً عصيبة في الابقاء على التيار الشعبي في البلاد تحت سيطرته . وكان الشعب وضغط الاحداث قد دفعا به ليصبح الزعيم الوطني في البلاد،فقد الغى المعاهدة الانكليزية الاردنية وطرد الفريق غلوب من البلاد.ووجد نفسه يلتزم بأشياء اكثر من التي كان يود حقاً الالتزام بها . وكان كابني عمه فيصل ملك العراق ، وولي عهده عبد الاله ، معرضاً دائماً وباستمرار،للاتهام بالاغراق في الموالاةلبريطانيا والصداقة للشعب الذى اصدرت حكومته وعد بلفور ، وجاءت بسلسلة الاحداث المتعاقبة التي ادت الى وجود اكثرمن نصف مليون لاجىءعربي في الاردن يتلهفون شوقاً للعودة الى ديارهم .

وشن الاسرائيليون هجوماً آخر على قلقيلية في الاردن بعد يومين من الحديث الذي افضى به نوري السعيد والذي نشرته التايمس اللندنية على العالم . وقتل في

هذا الهجوم ثمانية واربعون عربياً . وانتشرت موجة من السخط في العالم العربي كله . وسارع حسين الى العراق ، طالباً المساعدة العسكرية . ووصل وفد من بغداد الى عمان لبحث خطة ترمي الى المجيء بالقوات العراقية الى الاردن لتثبيت الوضع . واصدرت الحكومة البريطانية انذاراً شديد اللهجة الى اسرائيل في موضوع هجماتها على الاردن ، مشيرة الى وجود التزامات بريطانية تجاه الاردن لا تستطيع تجاهلها في حالة قيام اسرائيل بشن هجوم عليه . وأوضحت انها تؤيد دخول القوات العراقية الى الاردن عن طريق الاتفاق مع الحكومة الاردنية .

ولم يكن ثمة شك في حوافز نوري السعيد . فإذا دخلت القوات العراقية الى الاردن ، بتأييد من بريطانيا وامريكا ، وبتعاون من حسين ، فان هذه الخطوة ستحول دون اتصال بري بين مصر وسوريا يؤدي الى تطويق اسرائيل ، ويقوم كذريعة آنية ، تحتاج اليها اسرائيل لشن غزو على الاردن . كما توجد عنصر استقرار في الاردن نفسه . وكان نوري من الناحية الثانية قد أوضح رغبته الجلية في الوصول الى تسوية حقيقية مع اسرائيل في الحديث الذي افضى به الى التايمس ، ولذا فان وجود القوات العراقية في الاردن ، بدعم من الغرب ، قد يقنع – كما رأى نوري السعيد – الاسرائيليين بأن من الافضل لهم الوصول الى تسوية بدلاً من شن هجوم قد يسفر عن تدخل روسي وحرب ضخمة . واعلن انه على استعداد للقبول بالاشراف الدولي ، في حالة دخول القوات العراقية الى الاردن .

وقال لي صديق عراقي في بغداد ... « انه عام ١٩٤١ يتكرر ثانية » ومضى هذا الصديق يقول :

« لعلك تذكر كيف كان العراق منقسماً على نفسه ، وقد مال رشيد عالي الى الالمان ، وكيف بعث نوري برسالة الى تشرشل يقول فيها ، ان مجرد صدور تأكيد عنه – اي عن تشرشل – للكتاب الابيض الذي صدر عام ١٩٣٩ في موضوع قضية فلسطين ، يمكنه – اي نوري – من حمل العراق ، على الوقوف حليفاً كاملاً لبريطانيا ضد المحور . ولعلك

تذكر كيف خيب تشرشل امله ، فبدا نوري امام الناس ذليلا مهاناً ، مما أدى الى انقسام الوزارة،وتسلم رشيد عالي الحكم ، ومال به الى الالمان . انها القصة عينها ، تتكرر ثانية ، وقد قام عبد الناصر هذه المرة بدور رشيد عالي آنذاك . وقد اضطررتم معشر البريطانيين في عام ١٩٤١ الى التدخل عسكرياً لتستعيدوا بقوة السلاح مركز النفوذ الذي اضعتموه سياسياً ، بموقفكم من صد نوري السعيد . وها نحن في عام ١٩٥٦ نرى ان الانقسام في العالم العربي الناجم عن المشكلة الصهيونية ، قد وصل الى مرتبة الازمة على نفس النحو . فماذا سيعمل ايدن الآن ؟ فهل يدعم نوري او يتراجع تحت ضغط الصهيونيين واحتجاجهم؟ ان ايدن يعقد المقارنات بين عبد الناصر وهتلر ، ويتحدث عن الايقاع بعبد الناصر ، بالشكل الذي كان يجب فيه الايقاع بهتلر . فهل يقدّر لإيدن ان يرى ايضاً ، المقارنة القائمة بين نوري في عام ١٩٤١ وبين نوري في عام ١٩٥٦ ؟ وهل ينفذ لنوري الآن ، ما لم ينفذه تشرشل في عام ١٩٤١ ؟ »

وكان الوضع الآن يشبه تماماً وضع تشرين الاول عام ٩٥٥ عندما القى ايدن خطابه في غيلد هول . فقد كانت هناك الآن فرصة للتسوية على اساس مشروع نوري ، وكان ايدن يدعم هذا المشروع . وكان رد اسرائيل الآن ، كما كان من قبل ، باتاً وقاطعاً . وينطوي على الامتهان والزراية . فقد اعلنت وزيرة خارجية اسرائيل ، ان دخول القوات العراقية الى الاردن سيكون بمثابة « تهديد لأمن اسرائيل . » وعلق مراسل التايمس اللندنية على هذا البيان فقال انه « يعني بعبارات واضحة جلية ، انه اذا تحركت القوات العراقية الى الاردن وفقاً للخطة المقترحة ، فان اسرائيل ستغزو الاردن» . فأي قيمة اكبر ، هل هي قيمة رئيس وزراء بريطانيا او رئيس وزراء اسرائيل ؟ لقد تخلى رئيس وزراء انكلترا عن نوري وتركه يضرب الهواء وحيداً ، تماماً كما فعل في عام ٩٤١ وفي عام ١٩٥٥ وكان نوري لا يزال الزعيم العربي الوحيد الذى تستطيع الحكومة البريطانية ان تضع فيه بعض الامل. وكان لا يزال حامل لواء البريطانيين ، وسيواصلون دعمه

حتى النهاية في كل شيء الا في الشيء الوحيد الذي كان في وسعه ان يجنبه النهاية التي وصل اليها .

ولكن المشروع سرعان ما وضع على الرف بسبب افتقار تأييد ايدن الى الحماسة ، وموقف اسرائيل العنيف ، وعدم اكتراث امريكا ، وبسبب المشاكل التي نشأت بين العراق والاردن في موضوع الخلاف على القيادة . وحان الآن موعد الانتخابات العامة في الاردن . وكانت القصص التي ثارت حول مشروع نوري السعيد لا تزال تتردد اصداؤها ، وكان من المؤكد ان النتيجة ستكون في صالح المؤيدين لسياسة عبد الناصر . وان الاردن سيكمل الحلقة المفقودة في الارتباط القائم بين مصر وسوريا ، لاغلاق الحلقة حول اسرائيل . وهذا ما وقع بالفعل . وتألفت في الرابع والعشرين من تشرين الأول ، القيادة المشتركة لجيوش مصر وسوريا والاردن ، بعد ان تم التوقيع على الاتفاق الخاص بها ، ووضعت جميع الجيوش ، من ناحية نظرية ، تحت قيادة القائد العام المصري .

واتاحت هذه الاحداث لاسرائيل الفرصة للخيار بين اتجاهين . فلو ادخل نوري السعيد قواته العراقية للحيلولة دون ميل الاردن الى جانب عبد الناصر ، ولتثبيت الوضع فيه ، فان اسرائيل ، قد حذرت بانها تعتبر هذا العمل عدائياً لها . واذا لم يتمكن نوري من القيام بهذه الخطوة ، وقام عبد الناصر بها من ناحية اخرى ، فان اسرائيل تعتبر هـذا العمل معادياً لها . ولو كانت غاية اسرائيل من شن هجماتها ضمان الحصول على رد فعـــل ، يجتذب العطف عليهـا في الغرب ، بأي شكل من الاشكال ، فقد جاءت الفرصة الآن مواتية لها تماماً لاتخاذ هذه الخطوة وتوقيتها وتنفيذها . ومن المحتمل ان تكون خطة نوري معرضة للفشل . وكان هو واصدقاؤه يخشون دائماً من ان يؤدي موقف عبد الناصر الى استثارة عداء الرأي العام البريطاني بحيث يعجز ايدن مهما كانت نيته صادقة في تأييد مشروع نوري لايجاد تسوية سلمية لقضية اسرائيل ، عن الحصول على تأييد الرأي العام البريطاني لخطوة قد تعتبر بمثابة ترضية لعبد الناصر .

ولاريب في ان اسرائيل ، كانت في هذا الوقت قد قررت غزو سيناء ، أو

انهـــا كانت على وشك اتخاذ هذا القرار . وكانت الشروط الاساسية لضمان النجاح ، وهي ان تكون الانقسامات والعداوات والحركات الحربية التي اشرنا اليها في مطلع هذا الفصل ، في ذروة نشاطها ، قد توافرت مما يبرر قيام اسرائيل امام الرأي العام الغربي بحرب وقائية . وقد أدى رفض اسرائيل قبول وجود القوات العراقية الذي يخلق الاستقرار في الاردن الى تمهيد الطريق الى انحيـاز الاردن الى جانب عبد الناصر ، وانضمامه الى الحلقـة المعادية لاسرائيل . وكان ملف الدعاية الاسرائيلية محشواً بالاتهامات لعبد النـــاصر . وسرعان ما بدأت التعبئة العامة في اسرائيل بعد بضعة ايام .

العدوان والانسحاب

هجمت القوات الاسرائيلية على سيناء في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٦ . وبالنظر الى وقوع هجمات عسكرية متكررة في السابق ، فان هذا الهجوم بالذات ، لم يترك في بدايته اثراً عميقاً على الرأي العام في بغداد . وجاء الانذار الإنكليزي الفرنسي الذي وجه في اليوم التالي ، بمثابة قنبلة هزت بغداد هزاً عنيفاً . فقد طلب الانذار تراجع القوات المصرية والاسرائيلية مسافة عشرة اميال الى ما وراء قناة السويس ، مما اوحى في الحقيقة بانه يطلب ان تسيطر القوات الاسرائيلية على جميع سيناء ، بينما يرغم المصريين على الانسحاب بعيداً الى داخل بلادهم . ثم قامت بريطانيا باستخدام الفيتو تجاه القرار الامريكي في مجلس الأمن الذي يدعو اسرائيل الى الانسحاب الى ما وراء خطوط الهدنة ، ويدعو الدول الاخرى الى الامتناع عن استخدام القوة او التلويح باستعمالها . وعندما وصلت هذه الانباء ، بدا من الواضح ان نوري السعيد لا يستطيع ان يعمر في الحكم طويلا . فكل ذي اهمية وشأن في البلاد يعرف ما سبق له ان قاله في لندن ، من ان الواجب يدعو الى عدم اشراك الفرنسيين او الاسرائيليين في كل ما يقرره ايدن بصدد السويس ، وان ما قد يعمله يجب ان لا يظهر بمظهر العمل الاستعماري .

وكتبت في يومياتي في الواحد والثلاثين من تشرين الأول عام ١٩٥٦ اقول :
« ... ان احسن تفسير قد اسمعه من عراقي ميال الى الغرب ، هو

ان ايدن واقع تحت سيطرة نزوة شخصية في ان يقضي على عبد الناصر ، بالنار والسيف ، اذا اقتضى الأمر . وقد انتهز هـذه الفرصة التي يلقى فيها العون من الصهيونيين والفرنسيين . وقـد اشار اليه الصهيونيون ، بأنهم سيذعنون الى انذاره ، واضعين انفسهم تحت المظلة البريطانية — الفرنسية في موضوع مصر . أما التفسير الشائع ، الذي قـد أسمعه من جميع العراقيين تقريباً ، فهو ان ايدن بعد ان رأى الاردن ينضم الى عبد الناصر ، ويكمل الحلقـة حول اسرائيل ، ويبرز الوضـع العربي العسكري الى جانب عبد الناصر العدو لا نوري الصديق ، قرر تبعاً لذلك ، ان يدعم اسرائيل ضد العرب . وهو لهذا يتجه الى التحالف العسكري مع اسرائيل ، والى اعادة فرض السيطرة البريطانيـة — الفرنسية العسكرية على الشرق الاوسط للاحتفاظ به الى جانب الغرب ، وابقائه ، مكاناً أميناً للصهيونية » .

وقد بدت الحكومة البريطانية ميالة مرة ثانية الى عمل ما كان يأمل بـه نوري السعيد وينصح به ، ولكن الصهيونيين تمكنوا ثانية من قلب الاوضاع الى صالحهم . وعاد السؤال الملح ، يتلصص بوجوده من جديد ، وهو: من الأقوى، رئيس وزراء انكلترا أو رئيس وزراء اسرائيل ؟ وعنـدما بدأت الطائرات الانكليزية — الفرنسية تقصف المطارات المصرية في الساعات المبكرة من صباح الأول من تشرين الثاني قام الدليل لدى العراقيين بصورة قوية على ان الحكومتين البريطانية والفرنسية تشتركان في عملية واحدة مع اسرائيل لإعـادة احتلال القناة ، ولربما لإعادة احتلال مصر كلها ، ولإبعاد عبد النـاصر بقوة السلاح . وقد ازال « صوت بريطانيا » الذي ينطلق في اذاعاته من قبرص كل شك في هذا الموضوع ، فقد شرعت الاذاعة تتحدث الى المصريين بالعربية وبمنتهى الصلافـة والكبرياء ، بالنيابة عن حكومة جلالتها وشعبها ، بأن عليهم ان لا يسمحوا لجمال عبد الناصر ، بأن يدوس على حقوق الآخرين ، وان عليهم ان لا ينتظروا رحمة ، اذا دفع بهم الحمق الى ايواء جنود عبد النـاصر ودباباته في قراهم ، والى

اجبار طائراتنا على قذفها من الجو .

وطلع نوري السعيد هذه المرة يحمل بعنف وجهاراً على الغزو ، ولا سيما على الدور الذي تلعبه اسرائيل فيه . ولم يكن في وسعه ان يفعل شيئاً اقل من هذا ، وكان عليه ان يدفع غالياً ، لأنه فعل اكثر منه . لقد كانت لحظة من لحظات الخيبة المرة. فقبل بضعة اسابيع بدا له (أي لنوري) ان ايدن قد تفهم قوة حجته في وجوب عمل شيء تجاه اسرائيل، اذا ارادت بريطانيا الاحتفاظ بشيء من مركزها في الشرق الاوسط ، أو تقويته ؛ وانه (اي ايدن) قد ادرك ان نوري وبطانته هم الوحيدون بين العرب ، الذين ظلوا ، ولهم شأن يذكر، على شيء من الولاء والصداقة لبريطانيا. ولكن البريطانيين قد تحولوا الآن كما بدا الى جانب الاسرائيليين . وفي محاولته تحطيم عدوه عبد الناصر ، قام ايدن بجر الارض التي ترتكز اليها اقدام اولئك العرب الذين كانوا هم الاصدقاء الوحيدين الباقين لدعم السياسة البريطانية في الشرق الاوسط .

وقطع نوري علاقاته الدبلوماسية بفرنسا ، وانضم الى الصيحة الداوية ضد الصهيونيين — المستعمرين . ولكن ما موقفه من بريطانيا ؟ فإذا قطع علاقاته بنا فإن حلف بغداد سينهار عملاً ، ان لم يكن مظهراً على الفور . واذا قطع علاقاته الدبلوماسية بنا ، وظل قائماً وحده ، دون اليد البريطانية التي يرتكز اليها ، فإنه لن يستطيع البقاء طويلاً . وبالفعل لم يستطع ان يعمر اكثر من ثمانية عشر شهراً اخرى . ولكن اذا مضى الغزو في طريقه ومضت بريطانيا في محاولة اخضاع مصر بالاشتراك مع فرنسا واسرائيل ، فان أمل نوري السعيد الوحيد بالبقاء ، هو في قطع علاقاته الدبلوماسية ببريطانيا .

وقد يكون من نافلة القول وسخفه ، الادعاء ، بان بريطانيا لو قامت بالعمل وحدها لنجحت فيه ، ولخرج نوري السعيد ، قوياً في زعامته للعرب . فهذا افتراض لا ثمرة منه ولا جدوى . اذ لا شيء يستطيع ان ينزع الحقيقة ، وهي ان اسرائيل كانت مشتركة في العمل ، وان فرنسا كانت فيه ايضاً ، وان نوري كان يشترك مع ايدن في تحمل موجة السخط العربي الغاضب . فاذا استمر

الغزو ، لمصلحة اسرائيل الواضحة طبعاً ، فإن نوري سيسقط حتماً الا اذا قطع علاقاته ببريطانيا ، ولكنه اي نوري لا يستطيع البقاء في الحكم يوماً واحداً بدون مساعدة بريطانيا . أما اذا اوقف الغزو ، فان وقفه يعني انتصار عبد الناصر ، ومع زوال نوري سيتحقق نصر عبد الناصر الكبير في سقوط حلف بغداد وهو الهدف الأول بين اهدافه .

وظلت حكومة نوري السعيد ، طيلة ايام العدوان الاسرائيلي - الانكليزي - الافرنسي - الى جانب عبد الناصر ، في اذاعتها وصحافتها . وهذا يعني ، انها الى جانبه قولاً لا فعلاً . وكان العمل الوحيد الذي قامت به هو قطعها علاقاتها بفرنسا . ولكن لو قدر للقتال ان يستمر ، فان شيئاً آخر سيتحطم في العراق ، ومهما كان هذا الشيء ، فسيأتي بنهاية نوري السعيد وبنهاية حلف بغداد والحفاظ على السياسة البريطانية ، في الشرق الاوسط .

وبينما كان القتال والقصف الجوي مستمرين ، كان نوري السعيد في طهران حيث عقد ممثلو الدول الاسلامية في حلف بغداد اجتماعاً لهم . وقد حيل بين بريطانيا وبين شهود هذا الاجتماع . ويبدو ان نوري السعيد اتخذ دور القيادة في اقتراح المطالبة بطرد بريطانيا من الحلف. ولكن الاعضاء الآخرين اقنعوه بعدم الالحاف في هذا الطلب. ومن المحتمل انه لم يكن في حاجة إلى الكثير من الاقناع في هذا الموضوع بالذات؛ فكل ما كان في حاجة اليه،ان يتسلح بكل ما يستطيع الحصول عليه من اسباب تمكنه من تجنب قطع العلاقات مع بريطانيا .

واضطر نوري الى نوع من تجزئة النفس سياسياً ، فقد كان يضع قدماً له في بغداد ، والقدم الاخرى في داوننغ ستريت . وكان قد وصل الى الحد الاقصى في هذه التجزئة . وقد اغرق في فتح رجليه محاولاً ضبط توازنه ، بحيث تعذر عليه ان ينقل هذه القدم او تلك . فتأييد نوري السعيد كان ضرورياً لداوننغ ستريت ، وكان تأييد داوننغ ستريت ، جوهرياً لنوري .

وكانت أنابيب شركة بترول العراق قد قطعت الآن في سوريا ، وتوقف تدفق الزيت إلى نهاية خطوط الانابيب على ساحل البحر الابيض المتوسط . وكان من

المقرر أن يحدث هذا ، إن في العراق او في سوريا . ولكن عملية تخريب محطة الضخ ، كانت كاملة كما عرفنا بعد قليل . ولم يكن الموضوع قضية عملية وقف وقتية لفرض نوع من الضغط الاقتصادي ، وانما كان انذاراً واضحاً بان العرب مستعدون لمواجهة كل احتمال ، دون ان يبقوا شعرة معاوية قائمة بينهم وبيننا . ولم تكن لديهم القوة العسكرية لمحاربتنا بها ، ولكنهم كانوا يملكون مثل هذا السلاح الذي يستطيعون ان يضربونا به . وكان مصدق قد فتح لهم هذا الطريق ، واتقنوا الآن الدرس خير اتقان . أما رجال لندن وباريس ، فلم يكونوا قد تفهموا الدرس بعد . واذا كانت بريطانيا تريد لنوري السعيد ان يبقى ، فقد كان عليها ان توقف الغزو فوراً وان تشترك مع امريكا في الاصرار على وجوب انسحاب اسرائيل الى ما وراء خطوط الهدنة الاصلية ، أي ان تعود الى المكان الذي كانت فيه قبل التاسع والعشرين من تشرين الاول .

وهكذا اتجه ضغط بغداد على الحكومة البريطانية نفس الاتجاه الذي اتخذه ضغط بلاد اخرى في العالم ، وهو يستهدف وقف اطلاق النار فوراً ، وان يتلو ذلك انسحاب عام . وعلى الرغم من ان الجمعية العامة للأمم المتحدة اتخذت قرارات في الثالث والرابع من تشرين الثاني تقضي بوقف اطلاق النار وتتضمن مشروعاً لإقامة قوة طوارىء دولية تشرف على وقف الأعمال الحربية ، فان العمليات العسكرية استمرت ، ونزلت القوات الانكليزية - الفرنسية في بور سعيد في فجر الخامس من تشرين الثاني . وبدا الآن ان من المستحيل تجنب قطع العلاقات بين العراق وبريطانيا بكل ما ينطوي عليه هذا القطع من نتائج لا يمكن اصلاحها .

وكتبت في الخامس من تشرين الثاني ، في يومياتي اقول :

« ... لقد اصبح تحطم حلف بغداد منتظراً من العراقيين بعد ان رفض ايدن والفرنسيون مشروع قرار الأمم المتحدة بوقف اطلاق النار . ومن المحتمل ان تضمن مثل هذه الخطوة كبح جماح المتطرفين فترة من الزمن ... وبدأ الناس يتساءلون هنا ، ما اذا كان نوري

السعيد سيرضى عن الفكرة القائلة ، بأن دفعة جديدة لاسرائيل في طريق الاتساع ، يمكن ابتلاعها مقابل الخلاص من عبد النـــاصر ومن مصر كقوة عسكرية في الشرق الأوسط . ثم ماذا سيقع فيما بعد ... وماذا سيؤول اليه مصير تجارتنا في الشرق الأوسط ، ومصـير مجلس الاعمار في العراق واعماله ، والخطر في انهيار جهازنا الإداري كله ... انه ثمن باهظ للغاية . وكنت ارى منذ بدأت الازمة في شهر تموز ، دائماً وبصورة مستمرة ، ان الفـــكرة القائلة باتخاذ عمل عسكري سريع ، ينتهي في يوم واحد ، ويطيح بعبد الناصر ، ويعيد حزب الوفد أو أي حزب آخر الى الحكم بعـــد سحبه من الرف وازالة الغبار عنه ، خيال خصب وشديد الخطر . وليس لدي من شك في ان هذا التقييم للاوضاع يقوم على اساس الاعتقاد ، وهو اعتقاد خاطىء ، بان العراقيين سيهللون له ويكبرون ، وبالطبع هناك بعض الأوغاد من العجائز العراقيين الذين هم على استعداد للتضحية بكل شيء ، واغراق كل انسان في النهر للمحافظة على سلامتهم الشخصية وراحتهم ، وهؤلاء يؤيدون بالطبع ايدن في حماقته . اما العراقيون الذين لهم بالفعل وزن يذكر ، فهم اولئك الذين اهتزت ثقتهم بنا اهتزازاً عميقاً ومؤسفاً . وعلى العراق ان يبحث بين هؤلاء عن حكامه في المستقبل عندما يمضي نوري السعيد ، اذ ان أي بديل عن هؤلاء سيلقي بالعراق اما في احضان الاوغاد الذين سيدفعون بالبلاد من جراء اعمالهم الى تيـــار الثورة الاشتراكية او في احضان المتحمسين الذين سيكونون حتماً من اتبـــاع عبد الناصر وانصاره . »

وكان هناك بالتأكيد بعض العرب والعراقيين الذين كانوا يرون في المـــال كل شيء ، وهذا شيء لا يقتصر على العرب وحدهم . وكان هناك عدد كبير من العرب ايضاً بل وعدد متزايد منهم ، كانت مقاييسهم تفرض الاحترام . وهؤلاء الرجال ، هم اجدر الناس بالقيادة ، بل اجدر الناس بتولي المهمة العظيمة في تكييف طرق

الحضارة الميكانيكية الحديثة المعقدة لتتناسب مع الحضارة القديمة التي كانوا يخرجون منها . وكانوا يستحقون كل عون ادبي يمكن لهم ان يحصلوا عليه منا ومن غيرنا من الشعوب التي تعلموا عندها المهن التي يحترفونها ، وامتصاص الفلسفات والاوضاع العقلية التي نربط بينها وبين حرية الجنس البشري وكرامته .

وكان بين العراقيين نفر ما زالوا يتحلون بالايمان والشجاعة لإعلان انفسهم جهاراً بأنهم من انصار بريطانيـة واصدقائها ، وكان أحسن هؤلاء الاصدقاء مقاييس وفقاً لمعايرنا ، هم اولئك الذين يرفضون لكي يكونوا « انصاراً لبريطانيا » ، تأييد كل ما تفعله الحكومة البريطانية . فنحن ننشىء ابناءنا على رفض الاذعان السياسي المفروض ، فكيف يمكن لعربي ان يعتبر من الميالين لبريطانيا اذا كان يقبل مقياساً كهذا ؟ فالميل لبريطانيا كان يعني لهؤلاء اتباع مفاهيم السلوك التي يربطون بينها وبين فلسفاتنا السياسية ، وبين هذه المفاهيم : الولاء لذي القربى والوطنية والحرية من السيطرة الاجنبية ، وهي صفات عقلية وخلقية ، نميـل اليها ونحترمها .

وفي وجه حقب من العداء العربي النامي ضد البريطانيين ، كان رجال من هذا النوع والطراز ، يرون انه مهما حدث في الماضي ، فلم يعد في امكاننا ان نفرض ارادتنا على العرب بقوة السلاح ، وانه مهما كانت مسؤوليتنا عن خلق اسرائيل ، فليس ثمة من اسباب تدعو الى الخوف من ان تقوم حكومة بريطانية في أي يوم باستخدام اسرائيل كسلاح ضد العرب . وقـد غدا الآن جميع هؤلاء الرجال متهمين في نظر العرب . ولم يكن في وسعهم ان يقولوا شيئاً او يفعلوه . ولم يكن هناك ما يأملون فيه الا شيء واحد ، ولا شيء غيره ، وهو ان لا يكون ايدن ، قد اوغل الى الحد الذي اتجه فيه الى تأييد الصهيونية التوسعية ضد العرب . ولو قدر لشيء ان يعيش من هـذا النوع من الميل لبريطانيا ، وان تكون له قيمة حقيقية ودائمة ، فهو هذا الميل الموجود في نفوس هؤلاء .

ومع ذلك ، فقد كان هؤلاء الناس ، يتحدثون الى اي زائر عارض ، بنفس اللهجة القوية التي يستعملها الوطنيون من اعداء بريطانيا ، وذلك عندما يشيرون

الى اعمال ايدن . ولم تكن هناك الا اقلية ضئيلة من النفعيين الذين يقيسون ميلهم الى بريطانيا بمقياس الدفع ، كانوا في تلك الايام ينتحون بالبريطانيين جانباً ، ويسألونهم بقلق وبصوت هامس ، لم تقاعس ايدن عن دخول مصر ، والخلاص من عبد الناصر ؟ وكان مثل هذا العمل من جانب ايدن مجلبة للنفع لهم ، ولا يلحق بهم أي ضرر أو خسارة .

وتمكن نوري السعيد ، باعجوبة من الاحتفاظ بالسيطرة على البلاد ، الى ان تم وقف اطلاق النار في السادس من تشرين الثاني ، فخف التوتر الى حد ما . وتقرر ايفاد قوة الطوارىء الدولية ، التي عهد اليها بتحقيق الاهداف التي انطوى عليها قرار الجمعية العامة الصادر في الثاني من تشرين الثاني والاشراف عليها . ومن المحتمل ان يكون نوري قد استعان في هذه السيطرة بما سيطر على الوضع الفكري في العراق من اضطراب كامل ، وبما امتاز به تسلسل الاحداث من سرعة هائلة . وادرك كل انسان باستثناء بعض المتطرفين ، انه اذا فقد نوري السيطرة في ذلك الحين ، فان الفوضى ستصبح شاملة .

وشرع الآن مختلف اعضاء الحكومة البريطانية يندفعون بتعداد الاسباب التي حملت بريطانيا على القيام بعمليتها ، فقالوا ان هذه العملية استهدفت ابعاد العمليات الحربية عن منطقة قناة السويس ، بينما كانت القوات الانكليزية الفرنسية هي التي بدأت بالعمليات العدوانية في منطقة القناة ، مما ادى مباشرة الى رد فعل عبد الناصر الواضح ، باغلاق القناة . وقالوا ايضاً ان القصد من العملية الفصل بين القوات المصرية والاسرائيليين ، ولكنها بالفعل فصلت بين القوات المصرية نفسها ، تاركة نصفها تواجه القوات الاسرائيلية التي ظلت سليمة على حالها . وقيل ايضاً انها رمت الى منع حرب صغيرة من التحول الى حرب كبيرة ، بينما هي في الحقيقة خلقت حرباً كبيرة من حرب صغيرة . وزعم انها كانت تقصد حماية تموينات الزيت بينما اسفرت عن قطع السوريين لأنابيب زيت العراق ، وعن اغلاق جميع موارد الزيت في الوقت الحاضر . وقيل ايضاً انها مهدت المسرح لتسوية عامة في الشرق الاوسط ، بينما عملت في الحقيقة على نسف

الفرصة التي كانت ماثلة ، والتي بدأت فعلاً لإجراء تسوية . وقيل اخيراً انها رمت الى حث الامم المتحدة على خلق قوة بوليسية دولية في الشرق الاوسط للحفاظ على السلام بينا كانت بريطانيا وفرنسا هما اللتين استخدمتا الفيتو ضد مشروع القرار الامريكي في الثلاثين من تشرين الأول ، وهو القرار الذي كان في وسعه ان يضمن اتخاذ عمل دولي فعال .

هذه نماذج من الأقوال التي قيلت لتبرير العمل البوليسي . أما القول بان العملية بوليسية ، فزعم باطل ، اذ انها كانت عملية حربية مجردة ،بل كانت غزواً جوياً وبحرياً يستهدف احتلال جزء من الارض المصرية بقوة السلاح وانتزاعها من تحت اشراف الحكومة الدستورية في مصر ، والعمل على اسقاط تلك الحكومة نفسها . ولعل هذا الوصف من مخلفات تلك الايام التي كانت للقوات البريطانية فيها مكانة دستورية وعمل تخولها اياه المعاهدة . فقد كانت القوات البريطانية بالاتفاق مع الحكومة المحلية تؤدي واجبات – على الرغم من قيام القوات العسكرية بها ، الا انها كانت من الاجراءات البوليسية من ناحية المبدأ . ومن السهل على المرء ان يتصور ان اناساً الفوا منذ سنوات طويلة هذا الوضع العقلي ، كانوا يرون غريزياً ان هذه الاعمال البوليسية ، من صلاحية قواتهم العسكرية لا من صلاحية الحقوق التعاهدية التي كانت تلك القوات تعمل بموجبها في الماضي .

وكان من الطبيعي ، سياسياً ، ان تقول الحكومة البريطانية كل ما يتراءى لها قوله ، لتغطي ما انتهى الى فشل ذريع . فكل شيء قد سار سيراً خاطئاً . ولم يكن هذا الموقف الامريكي العنيف متوقعاً ، ولم يتسامح احد بتدخل اسرائيل . وقام عبد الناصر بكل ما لم يكن احد يتوقع قيامه به . فقد ظلت القناة تعمل كما كانت تعمل من قبل ، ولم يترك مجالاً لايجاد ذريعة للتدخل . كما تمكن من حشد تأييد سياسي ضخم وراءه يتمثل في العالم قاطبة . واذا اضفنا التحقير الى الضرر ، فقد خيب عبد الناصر آمال بريطانيا في ان يستسلم أو ان يسمح لشعبه بالانقلاب عليه . والعراق ، الحصن المنيع ، الذي كان من المفروض انقاذه وتقويته ، اصبح على شفا جرف هار من الانهيار .

وبينما كانت الاعمال الحربية دائرة على قدم وساق ، رأيت العراقيين من مختلف اتجاهات الرأي العام ، مجمعين على ان عبد الناصر لن يستسلم ، ولن يثور عليه شعبه ، وان بريطانيا لا تستطيع ان تفعل شيئاً ازاءه الا باحتلال القاهرة ومصر كلها احتلالاً عسكرياً مباشراً . وكان المنطق الذي يستندون اليه في الوصول الى هذا الرأي بسيطاً كل البساطة . فعبد الناصر لن يفر ولن يستسلم ، لأنه ليس من ذلك الطراز من الرجال . واذا قدر لرجل من شعبه ان يخرجه من الحكم ، فمن يمكن ان يكون هذا الرجل ، ولماذا يخرجه ؟ طبعاً لن يكون هذا الرجل هو من يسعى الى بذل مقاومة اشد عنفاً ، اذ لا مقاومة يمكن لها ان تفوق مقاومة عبد الناصر . وبالطبع لن يكون هذا الرجل من النوع الذي يستسلم ، اذ انه لن يجد من يؤيده . ولا يستطيع مثل هذا الرجل ان يحكم الا بتأييد الحراب البريطانية ، ولا يستطيع الظهور الا إذا ظهر البريطانيون في القاهرة وسيطروا على العاصمة ، واستعملوا حرابهم في دعمه .

ولم تؤثر أي من هذه الحجج عن « الاجراءات البولسية » أو « حرائق الغابات » على الشعب العراقي . فقد أوضح « صوت بريطانيا » في اذاعاته العربية من قبرص لجميع مستمعيه العرب ان الهدف كان التخلص من عبد الناصر والسيطرة على القناة . وكان البريطانيون والغربيون يستمعون الى مجموعة مخالفة من أسباب الغزو باللغة الانكليزية ، أما الجماهير العربية فكانت تستمع الى صورة ثانية بالعربية ، وكان المثقفون العرب يستمعون الى الصورتين ، فلم يصدقوا اياً منهما .

وكانت هناك حجة اخرى لجأت اليها حكومة ايدن كمبرر لعملها ، قدر لها ان تترك آثاراً مخربة بعيدة المدى . فقد زعمت ان العملية الانكليزية ـ الفرنسية قد احبطت مؤامرة روسية بالتعاون مع عبد الناصر للسيطرة على الشرق الاوسط ونشر الشيوعية فيه ، وان هذه المؤامرة كانت ستقع في الوقت المناسب . ولقد صرح الممثل البريطاني في الامم المتحدة في التاسع من تشرين الثاني ان جميع هذه المشاكل قد نجمت عن المحاولات الروسية للدخول الى الشرق الاوسط .

وكتبت في العاشر من تشرين الثاني في رسالة أقول :

« ... على الحكومة البريطانية على الرغم من انشغالها مع الناخب البريطاني ان لا تتجاهل الملاحظة بأن العرب هم الذين سيقررون ما اذا كانوا يريدون الانضواء تحت الجناح الروسي او لا . وان هذا القرار سيصدر عنهم لا عن السادة القابعين في داوننغ ستريت . ومن الواجب الحكم على الاتجاه البريطاني الراهن ، بأن العمل العسكري في مصر قد أنقذ العرب من روسيا والشيوعية ، من تأثيره على العرب ، لا على الناخب البريطاني .

« وليس في وسع الحكومة البريطانية ان تعلم العرب شيئاً عن الخطر الشيوعي في الشرق الاوسط . فلقد كان العرب على النقيض من ذلك يحاولون منذ سنوات طويلة ، تعليم الحكومة البريطانية ، ولكنها لم تكن تستمع الى تعليمهم ، وانهم كانوا يحاولون اقناعها بأن وضع اسرائيل ومشكلة اللاجئين يؤلفان في نظر العرب باب الدخول الخلفي لروسيا الى الشرق الاوسط ، وكانوا يعملون كل ما وسعهم من جهد لاقناع الغرب ، بأنه اذا لم يحاول المجيء بتسوية عادلة في موضوع اسرائيل ، في الوقت الذي لا يزالون فيه يتسلمون زمام السلطة في الشرق الاوسط ، فان بعض العرب سيفتحون ذلك الباب الخلفي . وكانوا يحاولون ايضاً اقناع الحكومة البريطانية بأن دخول الروس الى الشرق الاوسط ، يعني ضعف مركز الغرب المسيطر ، وآنذاك يثير الصهيونيون المشاعر المعادية للعرب في الغرب ، بحيث يضطر المعتدلون العرب الذين يبحثون عن تسوية عادلة ، الى الاتجاه نحو المتطرفين ، والابتعاد شيئاً فشيئاً عن الغرب .

« وأدى العدوان الانكليزي الفرنسي في مصر الآن الى نسف عدد آخر من الحواجز التي كانت تحول دون التسلل السوفياتي . واخذ ادعاء الحكومة البريطانية ، بأنها منقذة العرب من الشيوعية يثير ابتسامة

السخرية والالم على شفاه اصدقائها العراقيين ، الذين نسفت الارض من تحت اقدامهم من جراء ما كشفته الصحافة عن وجود التواطوء البريطاني الفرنسي مع اسرائيل في الغزو ، والذين هبطت مشاعرهم الى الحضيض عندما رأوا ان بريطانيا قد مالت الى جانب اسرائيل ، والى جانب الصهيونية التوسعية ، باعثة بالعرب الى الجحيم ... وعندما ظهر ان هذه الاهداف الاسرائيلية التوسعية قد غدت ثابتة لا يتطرق اليها شك.

« ولا يرى الاصدقاء العراقيون أي أمل ، اذا كانت الحكومة البريطانية قد مالت فعلاً الى اسرائيل . وما دام ان نوري السعيد في الحكم ، فقد كانت الفرصة متاحة للحكومة البريطانية للخيار بين تأييد جماهير الناخبين البريطانيين لسياسة ايدن ، وبين تأييد العراق لبريطانيا ولكل مايعتقد العراقيون انها تمثله . واذا اختارت الحكومة البريطانية تأييد الناخبين الحزبي خسرت العراق ، واذا خسرت العراق ، فانها ستخسر جميع أسس السياسة البريطانية في الشرق الاوسط . »

وتبرز الحقيقة الواقعة في عدم اقرار الحكومتين البريطانية والامريكية ابداً بوجود قوات توسعية في اسرائيل ، في الخطاب المتعجرف الذي القاه بن غوريون في البرلمان الاسرائيلي (الكنيست) في السادس من تشرين الثاني عام ١٩٥٦ مخاطباً القوات العسكرية الاسرائيلية بقوله : « لقد اعدتمونا الى تلك اللحظة المجيدة والحاسمة في تاريخنا القديم ، والى ذلك المكان الذي نزلت فيه شريعة موسى ، والى المناطق التي امر فيها شعبنا بأن يصبح الشعب المختار . وها نحن نرى ثانية باعيننا كلمات اسفارنا الخالدة ، وكيف جاء اسلافنا الى صحراء سيناء » . وبعد ان شرح العملية العسكرية قال : « ان اسرائيل لن تقبل بأي حال من الاحوال ، ان تأتي قوة اجنبية ، مهما كان اسمها ، وان تتخذ مواقعها لا على اراضي اسرائيل ولا في المناطق التي تحتلها » [١].

فهل هذه هي كلمات رئيس وزراء دولة استفزت لاتخاذ اجراءات انتقامية

---

١ – المانشستر غارديان – ٦ تشرين الثاني ١٩٥٦ .

يائسة للدفاع عن نفسها ضد غارات الفدائيين المصريين ؟ انها تتحدث كاشفة النقاب عن خطة للفتح الاقليمي أعدت منذ عهد بعيد وأكملت الآن . وعندما قامت حكومة ايدن ، بتجاهل كل ذكر للتوسع الصهيوني ، وشنت على العالم الغربي نظرية التآمر الروسي ـ المصري ، اضعفت بعملها هذا من تبقى من اصدقائنا العرب وقوّت خصومنا من انصار روسيا . فاذا كانت بريطانيا تعتبر اسرائيل ناجية من اللوم وبريئة منه وانها الضحية المسكينة للعدوان العربي ، فان اصدقاءنا العرب ، لم يعودوا يجدون اية حجة في ايديهم يبررون بها صداقتنا ، وغدت روسيا المكان الوحيد الذي يستطيع العربي التطلع اليه في طلب التأييد ضد اسرائيل التي يدعمها الغرب .

وسارع ايزنهاور الى العمل فطلب من اسرائيل ان تنسحب ، ووافق بن غوريون على الانسحاب في نفس ذلك اليوم الذي القى فيه خطابه الظافر الذي أشرنا اليه ، وان ارفق موافقته ببعض التحفظات التي سنسمع عنها اكثر واكثر فيما بعد . وكان الرئيس قد حث الاسرائيليين على رفع ايديهم عن الموضوع في الأيام الاخيرة من شهر تشرين الاول ، قبيل الغزو ، بعد ان عرف تماماً بنواياهم . ولا ريب في ان توقيت الغزو ، بحيث يقع في نفس الوقت الذي تجري فيه انتخابات الرئاسة الامريكية ، التي أعيد انتخاب ايزنهاور فيها ، كان يرمي ، كما هو واضح تماماً الى ارباكه وارباك حزبه . وقد شكر العرب لايزنهاور ودالاس موقفهما الذي ساعد نوري السعيد حتماً . لكن نوري ، كان في حاجة الى مساعدة بريطانيا قبل كل شيء في موضوع اسرائيل ، ولم تكن هذه المساعدة موفورة له .

وبدأت قوة الطوارىء الدولية في النزول الى منطقة القناة في الخامس عشر من تشرين الثاني . وعقدت الجامعة العربية في غضون ذلك اجتماعاً لها في بيروت وقررت جميع الدول العربية ، وبينها العراق ، علناً وجهاراً ، بأنه ما لم تنسحب القوات البريطانية والفرنسية من مصر ؛ وتنسحب القوات الاسرائيلية من سيناء فستقطع جميع الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا . وهذ

يعني ان يقطع العراق علاقاته ببريطانيا. وقررت الدول العربية ايضاً ان لا تبدأ عملية تطهير القناة ، ولا اصلاح انابيب الزيت في سوريا الا بعد ان يتم الجلاء . ولنعقد الآن مقارنة بين الوضع في الشرق الاوسط ، وبين اضراب تقوم به السكك الحديدية في انكلترا . فالعمل في مؤسسات الزيت والقناة يعتمد على الشعب الذي يديرهما . وكما يقع احياناً عند نشوب خلاف عمالي ان يلجأ عمال السكك الى الاضراب ، فقد لجأ العرب الى الاضراب ايضاً . وفي حالة وقوع اضراب في انكلترا ، فلا تحلم اية حكومة انكليزية بحل هذا الاضراب عن طريق ارسال قوات عسكرية لقصف دار نقابات النقل . ولكن حكومة ايدن ، اعتقدت انها بقصفها المصريين في القناة ، سترغمهم على العودة الى العمل ، فكانت النتيجة ان اشترك معهم جميع العرب في اضراب تضامني . وكانت وراءهم قوة الرأي العام العالمي ، لا بسبب المشكلة نفسها ، بل بسبب الوسائل التي اختار ايدن اللجوء اليها ، لتسوية هذه المشكلة ، تماماً كما يحدث في انكلترا ، عندما يتحول محور الخلاف العمالي فيها من حقائق الخلاف وجوهره ، الى مظاهره واساليبه في حالة لجوء اصحاب العمل او العمال الى وسائل غير مقبولة من الالزام والاكراه .

أما وقد اشترك نوري السعيد في هذا الاضراب العربي الجماعي ، فقد وضع على الرف الحاجة الفورية الملحة ، الى قيام العرب بتظاهرة محلية للإعراب عن التضامن عن طريق قطع علاقاته ببريطانيا . ولكن لم يكن ثمة سبيل لأن يخطىء الانسان في تفهم موقف العراق. فما لم يكن هناك جلاء شامل ،فان قطع العلاقات يصبح امراً حتمياً لا مناص منه ، وسيستغل المضربون الى اقصى حدود الاستغلال ، السلاح الاقتصادي الذي يملكونه في ايديهم . وكما يحدث عادة في جميع الاضرابات الرئيسية ، فان الذين يتأثرون منه يشملون عدداً كبيراً من الناس ، لم يكونوا فرقاء في الخلاف . فقد غدت اوروبا الغربية بأسرها مفتقرة الى الزيت ، وتعرض العالم كله للاضطراب وللمزيد من النفقات بسبب اغلاق القناة . ولم يعد في وسع القوة العسكرية ان تلعب دوراً مجدياً . وقد تعرضت

العملية لشتى انواع الضغط السياسي التي أضيف اليها الآن التهديد بالمتاعب الاقتصادية . فبقية انحاء العالم تريد الزيت ، وتريد الملاحة عبر القناة ، وهي تريد نهاية للاضراب وتسوية سلمية للخلاف . وقام قرار الأمم المتحدة دليلاً واضحاً على ان المضربين يتمتعون على الأقل بتأييد الرأي العام العالمي الذي يقف الى جانبهم . وترك الهجوم الروسي في المجر اثراً داوياً في الغرب وفي أماكن اخرى، ولكنه لم يحدث أي أثر في العراق . فلقد كنا على حافة هاوية في بلدنا ، وما يحدث في المجر أو في غيرها لا يؤثر علينا بالنسبة لما يهددنا .

وأدى خلق قوة الطوارىء الدولية ، ونشاط الامين العام للامم المتحدة ودبلوماسيته ووساطته الى احراز بعض التقدم والى اتاحة الامل بالنسبة الى المستقبل . وكان ايدن قد غادر انكلترا في التاسع عشر من تشرين الثاني الى جمايكا وتولى بتلر رئاسة الوزارة بالنيابة . وبدا ان الحكومة بدأت تفكر تفكيراً جدياً في موضوع سحب القوات الانكليزية – الفرنسية من بور سعيد ، مشترطة ان يتم الاتفاق على اقامة اشراف دولي على القناة قبل الانسحاب . وكان هذا امراً يمكن فهمه وادراكه على صعيدالسياسات الداخلية . ولكن هناك في الشرق الاوسط ، اصبح هذا المفهوم يواجه جداراً صخرياً صلباً من التصميم العربي . وكان ايدن يزعم قبل اسابيع قليلة فقط ، ان كثيرين من العرب ، سيسوؤهم نجاح عبد الناصر . وكان العرب مجزئين فعلاً . اما الآن فقد غدوا كتلة واحدة . ولم يكن هناك ما يدعو الى الاعتقاد ، بان الموقف الذي اتخذه جميع العرب ، والذي ارغم نوري السعيد على اتخاذه سينهار. فما لم يتم الانسحاب الكامل ، فلن يعاد فتح القناة ، ولن تصلح انابيب الزيت . وقد تمكن عبد الناصر من الصمود للغزو ، وكان الرأي العام العالمي ، يطالب ويلحف بوجوب التفاهم . وسيستمر الاضراب. انها عقوبة سلبية ، بل انها ضن بالتعاون من اناس كان تعاونهم شرطاً لعمل القناة وانابيب الزيت . ومجرد تجديد التهديدباستخدام القوة ، لا يمكن ان يؤدي الى شيء سوى تقوية رفض العرب التعاون في هذا السبيل .

وكشفت الحكومة البريطانية بمحاولتها استخدام مركزها العسكري في بور سعيد لتأمين الاشراف على القناة ، عن دافع آخر من الدوافع التي حفزتها الى التدخل ، والتي كانت تحاول جاهدة حتى الان الكشف عنها . ففي جميع ما سبق لها ان قالته لتبرير تدخلها العسكري ، كانت تحاول تصوير هذا العمل ، وكأنه شيء لا يمت بأية صلة الى موضوع الاشراف الطويل الامد على القناة . وكانت قد عزت لنفسها قبل قليل الفضل في الاتيان « بقوة بوليسية » دولية الى الشرق الأوسط . وها هي القوة يجري الآن تشكيلها . وكان في وسعها الآن ان تلجأ الى شيء « تستر » بواسطته فشلها امام الرأي العام العالمي فتسلم الأمر الى القوة الدولية وتنسحب . ولقد ذكر احد الناس في بغداد ان الطريق اصبح ممهداً الآن ، عن طريق اقوال الحكومة البريطانية السابقة نفسها ، للانسحاب تحت اشراف الأمم المتحدة ، متظاهرة بمظهر المتقبل للنظام ولحقائق الاوضاع . ولكن بدا لنا الآن من بغداد ، وكأن تيار العواطف في انكلترا قد انعكس ، وكأن فكرة الحل العسكري ما زالت عالقة في الاذهان . وعاد نوري السعيد يقترب ثانية من حافة الأزمة .

وكتبت في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٦ رسالة قلت فيها ...

« ... استمعت قبل قليل الى وصف الاذاعة البريطانية للموقف الذي اتخذته الحكومة البريطانية في الأمم المتحدة ... وقد فقد العراقيون كل ثقة لهم في اقوال حكومة جلالتها .. ولم يكن هناك عراقي واحد يشك منذ البداية في ان الهدف الحقيقي كان اعادة احتلال القناة والاطاحة بعبد الناصر ، ويضحك جميع العراقيين ملء اشداقهم من مجرد الاستماع الى اتجاه حكومة جلالتها الجديد في القول بان العمل الذي قامت به ، كان بقصد انقاذ الشرق الاوسط من السيطرة الروسية عن طريق عبد الناصر . وأخذ يتضح الآن بصورة متزايدة ،

ان حكومة جلالتها تريد ان تفرض ارادتها من جديد وانها تكسب تأييداً متزايداً من الرأي العام في بريطانيا ، بينما اخذت الأمور في امريكا تسوء حقاً. وهناك كثيرون يرون في قرار بيروت بقطع العلاقات معنا ومع فرنسا ، عملاً واقعاً حتماً ، ما لم ننسحب من بور سعيد . وتزايد الشكوك سيضعف من موقف نوري السعيد ويقوي من مركز الآخرين. وقد يؤدي الحماس اذا ما تجاوز حداً معيناً ، الى عدم ابصارهم ما ينطوي عليه قطع العلاقات من نتائج » .

وراح عبد الناصر بعد ذلك وفي سلسلة متعاقبة من الاوامر ، يطرد الرعايا البريطانيين من مصر . بينما كانت الصحف البريطانية تتفجر بالقصص المثيرة عن تزايد الاسلحة الروسية في سوريا . وسرعان ما علمنا ، اذ لم يكن هذا سراً من الاسرار ، بان سوريا قد تلقت سلاحاً من روسيا . وكان هذا النبأ قد نشر في الصحف البريطانية قبل اسابيع وحاولت الحكومة البريطانية تسليط الاضواء عليه . وجاءت هذه الحملة الجديدة من لندن عن طريق الصحف والاذاعة ، تحمل كل معاني الحروب السياسية الشرسة ، وغير الموزونة . ولم يكن أي من هذه الانباء صادراً عن سوريا نفسها ، بل كلها منسوبة الى « المحرر الدبلوماسي » . وكنت في بغداد ارقب هذه الانباء يوماً بعد يوم فكنت ارى فيها مجرد «اخبار» تسلم الى الصحف دون اهتمام بما فيها من صحة ، لمجرد تحقيق اهداف تتعلق بالحرب النفسية .

وكتبت في الخامس والعشرين من تشرين الثاني في رسالة أقول ...

« ... هل يقصد من اثارة هذه المخاوف عن حشد الاسلحة وجمعها في سوريا ، ان تكون تماماً كما وقع في مصر ، بل ان تكون تجديداً لنفس المعلومات المدونة منذ عهد بعيد ، بعد اضفاء بعض « البهارات » عليها ، واضفاء بعض الصفات والنعوت التي يقصد منها القاء الفزع في قلوبنا ؟ وهل القصد منها تقوية العراق وتثبيت اقدام نوري وتحويل

الانتباه عن اسرائيل ، وتوحيد العرب وراء بريطانيا والغرب بوصفهما الصديقين الحقيقيين للعرب ضد روسيا ؟ بالطبع ان هذه الاقوال ، ستؤدي الى العكس تماماً ، ولا ريب في انها لعبة خطرة . واضافة الفزع بصورة مقصودة الى الغضب المرير ضد المؤامرة الانكليزية ـ الفرنسية التي تمثل في عيون العرب حملة من الكراهية ضد شعبي مصر وسوريا ، هي خطيئة من اخطاء حزب المحافظين المضطرب مع ذاته ، وقد سارت بالأمور من سيىء الى اسوأ، فالفزع بالاضافة الى الغضب يؤدي الى انهيار في الكوابح المتحضرة في أي انسان . وكان حرياً ان يخلق بين العرب روحاً قوية من الثأر غير المنظم » .

وكان من الطبيعي ان يربط العراقيون بين هذا الارتفاع المفاجىء من التوتر وبين الهدف الرئيسي القائم وراء غزو مصر ، كما فهموه . أما اسرائيل فعلى الرغم من اذعانها لاصرار ايزنهاور على الانسحاب من سيناء ، الا انها كانت تصر على الاحتفاظ بقطاع غزة وعلى ممر بحري عبر خليج العقبة الى إيلات . ولكن ايزنهاور ودالاس وهمرشولد،وقفوا في طريقها، واصروا على الانسحاب الشامل. ولكن على هؤلاء ان يهتموا ايضاً بضغط الرأي العام في بلادهم ، واذا أمكن الهاب الرأي العام في امريكا بالخوف من روسيا ، في نفس الاتجاه الذي حدث في بريطانيا وفرنسا ، وتحويل انظاره عن الصهيونية ، فان اسرائيل قد تتمكن من الاحتفاظ بثمار نصرها . واعتقد العرب ، ان من مصلحة اسرائل ، ان ينتشر الرأي القائل بان مصر تفتح الباب للتسرب الروسي ، وان تشتد الخشية من سيطرة الشيوعية على سوريا .

وكانت اكثر العلائم نذراً بالشر ، امتداد حملة الحرب السياسية الى سوريا الآن .

وكتبت في رسالة بعثت بها في الخامس والعشرين من تشرين الثاني اقول :

« وكانت النتيجة تشويه العلاقات بين سوريا والعراق، الى حد اسرا

مما كانت عليه ، وخلق انطباع بوجود اوضاع مشابهة في سوريا لذلك الانطباع الذي كان قائماً قبل نحو من اسبوعين عن مصر ، والذي قيل عنه ان بريطانيا قد تدخلت لوقف السيطرة الروسية . فقد خلقت إثارة هذا الجو العام من التوتر والقلق الذي يبلغ في بعض العقول مرتبة الفزع، المخاوف بان يتحول الشرق الاوسط الى كوريا جديدة وان تتقاتل الدول الكبرى فيـــه مصطرعة على احتلال اراضيه . ولم تكن اذاعات دار الاذاعة البريطانية الموجهة الى الشرق الاوسط لتنطوي على ما يوحي بالاعتقاد ببزوغ عهد جديد من السلام أو « بتهيئة المسرح لتسوية عامة » تتناول جميع مشاكله . ولكن هـــذه الاذاعات كانت من الناحية الاخرى ، ميالة الى شحن عقول الناس بالمخاوف ، والى تهيئة أسس من التأزم المستمر والمتزايد، الذي يمكن اعتباره وسيلة لتبرير استمرار بقاء القوات البريطانية والفرنسية في بور سعيد . ولقـــد ادعت حكومة جلالتها انها تدخلت لوقف حرب صغيرة عن الانتشار ، لكن ما تبثـه الاذاعة البريطانية من انبـــاء تختارها ومواضيع تعالجها ، كان يحمل طابع نشر ذلك الجو ، الذي يستطيع كل راغب في نشر الحرب ، ان يجد فيه الاعصاب وقد تهيأت تماماً لمغامرته » .

وكانت الطريق ممهدة تمام التمهيد أمام اعداء نوري السعيد . فالجو قد امتلأ بالشائعات بانـــه سمح بفتح انابيب الزيت الممتدة الى اسرائيل والتي كانت قد اغلقت منذ عام ١٩٤٨ ، وانه يساعد الصهيونيين في موقفهم ضد مصر ، وانه قد اوقف الأسلحة المرسلة الى مصر وانه فوق هذا كله ، قـد تحالف مع حكومة ايدن على القيام بحركة « كاشة » ضد سوريا . وبدأت الهمسات ضد نوري السعيد تتحول الى شكل انتقادات علنية .

وكتبت في يومياتي في التاسع والعشرين من تشرين الثاني اقول ...

« ... هناك براهين واضحة الآن ، كما قال صديقي (س) ، وهو من العراقيين المتطرفين من انصار عبد الناصر ، على ان اسرائيل ، قد

خلقت لتكون « شوكة في حلق العرب » . ولقد ذكر ايدن انه يخاف القومية العربية ، وهذا يعني انه يريد الابقاء على العرب اذلاء ، وان لا يسمح لهم بالنهوض او التطور . ومضى صديقي يتساءل ، وهذه الانباء عن حشد قوات روسية في سوريا ... اليست الغاية منها تمهيد الطريق لعمل عسكري جديد ؟ لقد ذكرت حكومة جلالتها انها لم تغز مصر ، الا لأن الروس كانوا يبثون فيها سلاحهم بشكل يهدد المصالح البريطانية وبين هذه المصالح بالطبع ، اسرائيل والقناة . وها هي الآن تقول ان هناك حشداً مماثلاً في السلاح الروسي في سوريا يهدد اسرائيل وانابيب الزيت . ويقول الانكليز والفرنسيون انهم غزوا مصر لهذه الاسباب ، ولا ريب في انهم يعدون العدة الآن لغزو سوريا . والا فما هي غايتهم من كل هذا ؟ ان كل ما في هذه الاحداث من تسلسل يتجه مباشرة ضد المصالح العربية ، وماذا عملت العراق ، أو ماذا ستعمل الآن ، في وجه هذا التهديد الجديد لسوريا ؟ ان اي عربي عاقل ، لا يريد ان تغدو سوريا تحت سيطرة الروس ، ولكن لما كان الانكليز والفرنسيون ، كما هو واضح، يعدون العدة لعمل هناك ، أيكون من المستغرب، ان تتيح مثل هذه الاعدادات ، الفرصة للروس لفتح طريقهم الى هناك ؟

« ... ان توجيه الانتباه الى الخطر الروسي ، وعزو كل ما في العراق من قلق الى التأثير الشيوعي سيكلفان غالياً ، اذ ان ثمة الكثيرين من الناس ، الذين يشتركون في نقد نوري السعيد والحملة عليه ، دون ان يكونوا من الشيوعيين او من الذين يرغبون في ان يصبحوا من الشيوعيين . ولدي شعور متزايد بان حكومة نوري آخذة في الاعتماد اكثر واكثر ، على نجاح الحملة الدعائية التي هي شريان حياة ايدن ، وانه يحل مشكلة انقسامه سياسياً بين لندن وبغداد ، بالدنو بقدمه اليسرى شيئاً فشيئاً من داوننغ ستريت ، وبالبعد تدريجاً عن بغداد ، وبالطبع عن الشعب العراقي . وسنرى ماذا سيحدث اولاً اذ ان شيئاً ما سيحدث،

في مكان ما » .

وقد حدث شيء بالفعل، فقد جاءت الانباء تحمل اعلان الحكومة البريطانية الانسحاب بلا قيد ولا شرط بجيوشها من بور سعيد،وكان هذا امراً مهماً بالنسبة الى المسرح العراقي . وما دام ان القوات الانكليزية الفرنسية ، كانت واقفة على قدم الاستعداد في بور سعيد ، وما دام ان حملات الدعاية كانت تستفز موجات الكراهية ضد سوريا ، فلم يكن من المستحيل ، احتمال القيام بعمل عسكري ، وهذا ما كان يراه العرب . ولكن عندما اعلن القرار بسحب القوات دون قيد او شرط ، بدا لنا في بغداد ، ان هذا القرار يعني العدول عن أي تفكير باعمال عسكرية اخرى . وكان الانسحاب أمراً لا مناص منه . وكان كل ما يهمنا نحن البريطانيين الموجودين في بغداد ، ما اذا كان القرار قد جاء وما زال هناك ثمة امل في انقاذ نوري السعيد ، او ان الوقت قد فات . وبالفعل فقد انقذه القرار . لكن هـــذا الانقاذ لم يكن اكثر من مجرد تأجيل ليس الا . فالحكم العسكري الشديد ما زال قائماً في العراق ، والمدارس مغلقة ، والرقابة مفروضة ، وموجة السخط عارمة . وكانت الثغرة بين نوري السعيد وحكومته من ناحيـــة وبين الشعب العراقي من الناحية الاخرى ، لا تزال تسير في طريق الاتساع .

ولم يكن هناك بين المرشحين التقليديين لرئاسة الوزارة في حالة استقالة نوري السعيد من يحلم بتسلم الحكم منه في مثل هذا الوقت . فلقد اوصل العراق الى حالة من الفوضى والاضطراب من جراء تعاونه مع ايدن، وكان عليه ان يعمل هو على الخلاص من هذه الحالة اذا استطاع . وقيل ان المعارضة قـــد عقدت نوعاً من الاتفاق معه . ففي وسعه ان يظل في الحكم معتمداً على تأييدها الى ان يتم انسحاب البريطانيين والفرنسيين والاسرائيليين تماماً ، والى ان يسمح السوريون باصلاح انابيب الزيت . وفي ذلك الوقت يكون الجو قـــد طرأ عليه شيء من الصفاء ، واصبح في الامكان وضع سياسة جديدة . وادى هذا التفاهم بين نوري السعيد وبين المعارضة الدستورية العادية الى ضعف الخطر من قيـــام عناصر ثورية

غير معروفة بتسلم زمام الحكم في البلاد . وكانت لكل فرد مشاكله في الوقت الحاضر . فانسياب الزيت قد توقف ، والواردات قد انقطعت الى حد ما . وأخذ العراق يعيش على ما لديه من اموال احتياطية ، ولم يكن في وسع احد غير نوري السعيد ان يحصل على قروض من الخارج . على أي حال ، وبعد ان غدت التسوية ممكنة ، فقد كان نوري السعيد الرجل الذي في وسعه ان يشترك في هذه التسوية قبل ان يمضي عن الحكم .

عملية الرق

كان لدى مجلس الإعمار من حسن الحظ وفر لم ينفقه يمثل نفقات تسعة اشهر في الاحوال العادية. وكان ثمة اتفاق عام على ان نمضي قدماً في المشاريع الجديدة، ونحن على ثقة بان الاموال الاحتياطية ستمكننا من الاستمرار، مع قدرة على الاقتراض قائمة على توقع زيادة عائدات النفط، كملجأ اخير. لكن كل شيء، يتوقف، على المدى الطويل، على عودة الزيت الى الانسياب. وكان هذا يتوقف بدوره على موافقة سوريا على اصلاح محطات الضخ، لا سيما وان أعمال التخريب التي جرت فيهـــا كانت من الاتقان بحيث ستنقضي عدة شهور، قبل ان يتم الاصلاح بعد الحصول على اذن الحكومة السورية. وكانت الحملة المعادية لسوريا التي شنتها لندن والصهيونيون، قد اثارت العداء بين سوريا والعراق، وكان نوري قد غدا شديد الالتزام بالتعاون مع لندن، واصبح موضع الشك في انـــه يعد مشاريع ضد سوريا، حتى صار من الصعب ان يرى الانسان طريقاً لاقامـــة علاقات عملية مع سوريا تضمن عدم الانهيار الاقتصادي في العراق. ولم تكن اقتصاديات مصر في ذلك الحين شديدة التداخل مع اقتصاديات الاجزاء الباقية من الشرق الاوسط، ولا سيما مع اقتصاديات العراق، ولذا لم يكن من المنتظر ان تؤدي اية قطيعة بين مصر والعراق، الى التأثير كل التأثير على الاوضاع لأي من البلدين. أما القطيعة الحقيقية بين سوريا والعراق، فتشل العراق لا سوريا، ذلك لأن سوريا كانت قد اقامت اقتصادها دائماً على اساس الاكتفاء الذاتي، ولم

تكن عائدات الزيت التي تحصل عليهـا من مرور الزيت في اراضيها الا نسبة ضئيلة من دخلها القومي .

وقد كتبت في يومياتي في الثاني من كانون الأول عام ١٩٥٦ اقول :

«... ان نسبة كل شيء الى الشيوعية التي يقال بانها تقوم في جذور كل شيء ستؤدي الى نتائج كثيرة ... وليس في وسع أي قارىء للصحف البريطانية (خارج الشرق الأوسط) ، ان يقول إن الحركة ضد نوري السعيد قائمة في السخط على محاولتنا الفاشلة في مصر وعلى الشكوك في الدوافع البريطانية المتعلقة باسرائيل ، وهي شكوك غدت اليوم اعمق منهـا في أي يوم مضى ، كما غدت الفـكرة المسيطرة على الجميـع . وكنتيجة لهذه الصورة الصحفية ، من الطبيعي ، بالنسبة الى أي شخص في بريطانيا ، ان يستنتج ، عندما يزول نوري السعيد ، ان المتـآمرين الشيوعيين قـد نجحوا . ومن مصلحة الصهيونية تقوية هذه الفكرة وتغذيتها ، اذ ان من اشد الضرورات للصهيونية ان يفترض بان جميع الافكار المعادية لاسرائيل بـين العرب ، يجب ان تعتبر من وحي الشيوعيين . ولا ريب في ان أي اشتداد في الحماسة للوحدة العربية ضد الاستعمار والصهيونية ، وهو حماس يتحتم على كل من يخلف نوري السعيد ان يسير فيه ، سيضفي شيئاً من الزخـرف على هـذه التفسيرات . وستنضم دعاية المحافظين بالطبع مرحة الى هذه الحملات ، ذلك لأن المحافـظين لا يستطيعون ان يقبلوا القـول بأن سقوط نوري السعيد ونتـائجه ، يمكن ان يحدث من غزو مصر . وسيكون اتجـاههم في دعايتهم قائماً على القول ، بأنه كان من الواجب المضي في العملية للخلاص من عبد الناصر . اذ ان هذا يعني خروج نوري السعيد ظافراً ، ولكن وقف هذه العملية دون اكمالها ، فسح المجال لانتشار بذور الشيوعية ونموها ، مما جعل سقوط نوري على ايـدي المؤامرات الشيوعية شيئاً لا مناص منه . ولو لقيت هذه التفاسير رواجاً في بريطانيا وامريكا ، فإن

علينا ان نبحث عن جولة جديدة من المشاكل والمتاعب ... » .

ولم يكن ما يقلق نوري السعيد مقتصراً على الشؤون الخارجية . فقد اثارت هزة قناة السويس الكثير من المشاعر الاجتماعية في العراق . فلقد كان هناك ما يسمى بالوضع الثوري منذ عدة سنوات خلت . ولم يكن ثمة شك في ان مشاريع الإعمار قد عملت على إخفات ردود الفعل للأزمة ، ولكن على نطاق محدود جداً . وكانت طبيعة الاوضاع قد اتت بالازدهار والرخاء الى المدن اولاً ، ولا سيما العاصمة بغداد . وكان من الملاحظ ان الاضطرابات والفتن قد وقعت بصورة رئيسية في الألوية لا في العاصمة حيث كانت لمثيري الفتن من «المحترفين» موارد اهم الدخل من الاضطرابات . ومع ذلك فقد كان هناك تيار خفي متزايد من السخط الشديد . وكان الرأي الواعي لدى المفكرين العراقيين ، لا لدى المتحمسين غير المسؤولين ، ان الاحداث تسير ببلادهم الى اتجاهات خطرة .

وكتبت في يومياتي بتاريخ الثاني من كانون الاول عام ١٩٥٦ اقول :

« ... هناك شكاوى مرة من الجيل الذي يصغر جيل نوري السعيد ، والذي تتراوح اعمار افراده بين الثلاثين والاربعين ، ان نوري السعيد ، لم يعمل على دفع الجيل الثاني الى الامام ، واحتفظ بكل شيء في يديه ، ولم يحاول اقامة اجهزة الحكومة والبرلمان على اسس صحيحة ، كما لم يحاول ان يجعل الانتخابات تسير على اسس سليمة كما تسير في البلاد الاخرى النامية . ويقولون انه لم يفسح أي مجال للنقاش ، ولم يؤمن أي سبيل للشبان للاشتراك في اعمال الحكم ، تاركاً اياهم في حالات من الجهل المطبق ، والظلام الدامس ، تجاه ما يدور في البلاد ، ومعرضاً العراق للاتهام بانها لم تصنع شيئاً لمصر ، وانها عملت كل شيء للبريطانيين ، وهي اتهامات لا يجدون أي دليل على دحضها ، مهما كانوا راغبين ذلك . أما في قمة هرم السلطان والنفوذ ، فتجلس تلك الاقلية من الذين لا يصلحون لشيء ، والذين يخشون على ثرواتهم وامنهم الشخصي ، يسيرون مع التيار ، طالما ان هذا التيار معتدل . وكان هنالك أخيراً اولئك

الرجال، المتقدمون في السن ايضاً ، ولكن من طبيعة افضل واخير ، كانوا في وسط العمر عندما انتهى الانتداب ، يحاولون القيام بأحسن ما يمكنهم وفقاً لتقاليد الحكومة المأخوذة من العهد التركي ، ولكنهم عاجزون عن الاندماج الى حد اكثر من هذا ، وعن فهم افكار الجيل الجديد وعواطفه . وكانت هذه الفكرة هي المسيطرة على العراقيين طيلة الاسبوعين الاخيرين تقريباً ... » .

وكتبت في نفس يومياتي في السابع من كانون الأول اقول ...

« ... ان الهوة بين نوري السعيد والشعب العراقي ، تزداد اتساعاً يوماً بعد آخر ، وعندما ينتهي نوري السعيد ، لا يعني ذلك مجرد خروجه من السلطة ، بل نهاية حقبة او اشراف حقبة على النهاية ، هي حقبة النفوذ البريطاني الذي كان مسيطراً والذي اخذ بالانهيار تدريجاً ، متعلقاً بآخر صخرة ثابتة في الولاء لبريطانيا ، وهي صخرة نوري باشا ، الذي اخذ تيار الاحداث ينساب بعيداً عن اشرافه وسيطرته ، وسيطرة بريطانيا معه ... وكان كل عربي مقتنعاً ، بأن ايدن عندما غزا مصر بالتواطؤ مع اسرائيل ، فان آخر قاعدة لمركز نوري السعيد قد تأثرت ونسفت ... وقد يقول البعض ان الوقت قد فات على انقاذ ما يمكن انقاذه ، ولكنه لم يفت بالنسبة الى الخسارة الأخيرة النهائية . وقد اعد كل شيء الآن على هذا الاساس . فالعرب يرون في الاقتراع على الثقة بسياسة الحكومة في قضية السويس ، وفي عودة ايدن الى الحكم دليلاً على ان الصهيونيين قد فازوا ثانية ، وحملوا الشعب البريطاني على ان تعمى عيناه عن رؤية الحقائق ... » .

وكان من الضروري سياسياً بالنسبة الى حكومة ايدن ، ان تؤلب حزبها للاقتراع على الثقة بالحكومة ، والاعراب عن اعتقاده بأن ما قامت به الحكومة ، كان الشيء الصحيح الذي يجب ان يقع . ولكن الثمن الذي كانت تدفعه الحكومة مقابل هذا الاقتراع على الثقة بها ، بالنيابة عن الشعب البريطاني ،

كان غالياً واغلى من ان تدركه في ذلك الحين . وهذا الثمن ، هو خسارة جديدة في ثقة اولئك الاصدقاء العرب ، الذين كان همُّ الحكومة البريطانية الأول تقويتهم ودعمهم ، حتى يستطيعوا قيادة العالم العربي في طريق العودة الى الاحلاف الغربية . واذا كانت حكومة ايدن لا تزال تعتقد بعد كل الذي حدث ، بأن ما قامت به هو الحق في شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ضد مصر ، فقد ترى ان من حقها ان تفعل نفس الشيء ضد سوريا مثلاً في عام ١٩٥٧ او ١٩٥٨. وكان ما عملته في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ، في رأي العرب ، محاولة لإعادة فرض السيطرة الاجنبية ، وتسهيل مهمة الاحتلال الاقليمي لاسرائيل . وعندما حصلت حكومة ايدن على الثقة ، برهنت لاعداء نوري السعيد ، على انها اذا وجدت الفرصة مؤاتية لها لتكرار المحاولة فستكررها ، على ان تكون النتيجة هذه المرة نجاحاً لا فشلاً . وبرهنت ايضاً على ان الطراز القديم من الاستعمار الذي تحالف الآن جهاراً مع الصهيونية التوسعية ، هو الذي يسيطر الآن على وايتهول .

ولو نجحت الطريقة التي لجأ اليها ايدن في علاج قضية السويس لكان مبررها الوحيد ، انها اعادت الاحترام والثقة الى بريطانيا ، بينما كان من المهم كل الاهمية ان تتمتع بريطانيا بمشاعر الصداقة التي يجب ان تحتل افئدة الملايين من الشعوب الافريقية الاسيوية وشعوب الشرق الاوسط . ولو امكننا ان نخلق مشاعر لمن التقدير لحكمة الحكومة البريطانية وسعة مداركها في عقول هؤلاء الملايين كان هذا ثروة لا تقدر بثمن ، ولقد كنا حقاً في أمسّ الحاجة للحصول على اقتراع بالثقة في هذا السبيل وحده .

وقد فازت الحكومة بالاقتراع على الثقة في الوطن ، ولكنها خسرته في العالم الاوسع من القضايا الخارجية . وقد اضعفت من جديد مركز نوري السعيد وجميع العراقيين الذين ارادوا صداقتنا ، وقدمت عتاداً لخصومنا من العرب .

وألقى نوري السعيد في السادس عشر من كانون الاول خطاباً ، استعرض فيه الماضي والحاضر ، وناشد الوطن العربي تأييده ، كما ناشد بريطانيا والغرب ان يعملا على ابعاد ما يمثله التوسع الصهيوني للعرب من اخطار . ولم يكن في وسعه

ان يقول شيئاً جديداً ، او يفضي بحقائق غير معروفة ، او يعلن سياسة جديدة تستثير استجابة عند العرب . ولم يجتذب الخطاب اهتماماً كبيراً ، كما لم يترك أي اثر كبير . فكل انسان يعرف ما يمثله نوري السعيد ، وما عمله في الماضي ، وما عمله الآخرون له . وكان كل ما يهم ، هو ما ينوي ان يفعله في المستقبل .

ولقد كان نوري ملتزماً التزاماً عميقاً مع الحكومة البريطانية ، وبالتالي مشبوهاً بعلاقات هذه الحكومة باسرائيل وتأييدها لها ، حتى انه لم يكن في وسعه ان يخطو الى الامام خطوات فعَّالة . ولقد تكررت القصة القديمة نفسها ولكنها تتكرر هذه المرة بشيء من الالحاف الجديد والخاص. فنوري يشيخ يوماً بعد آخر ، ولم يكن في وسعه الاستمرار في الحكم على اي حال مدة أطول . واذا قدر له ان ينحى عن الحكم في خضم ازمة اخرى تحاول فيها الصهيونية ان تكسب على حساب العرب ، فان خلفه سيجد نفسه مضطراً الى الوقوف الى جانب الحياد على الاقل ، اذا لم ينحرف الى جانب روسيا . اما اذا قامت الحكومة البريطانية باصلاح موقفها من قضية اسرائيل ، في الوقت الذي لا يزال نوري يتولى فيه شؤون الحكم ، فانه في هذه الحالة يسلم الحكم الى من يخلفه في وضع لا بأس به . وكان الوزراء البريطانيون يقولون انهم لاينوون مطلقاًتأييد التوسع الصهيوني ؛ ولكن أقوالهم هذه كانت تنطلق في السر لا جهاراً او علناً . ولم يكن يصدر عن المسؤولين في لندن ، على العكس، اي تصريح قد يفسر على انه اعتراف بوجود قوات توسعية في اسرائيل . وكانوا يسارعون دائماً الى استنكار اية معارضة عربية للصهيونية ، ولكنهم لم يعترفوا مطلقاً بوجود توسعية صهيونية كما لم يحاولوا استنكارها ابداً .

وكانت اسرائيل تماطل في موضوع انسحابها من سيناء مستهدفة الحصول على التأييد للاحتفاظ بقطاع غزة والممر البحري عبر خليج العقبة الى ميناء ايلات . وظل الاتفاق العربي على حظر انسياب الزيت في الانابيب أو مرور البواخر في القناة ، حتى يتم انسحاب اسرائيل قائماً . وكان موقف الحكومة البريطانية لا يزال مبهماً ومحوطاً بالشك . ولمست إبان اسبوعين قضيتها في لندن

في نهاية شهر كانون الأول عام ١٩٥٦ وبداية شهر كانون الثاني عام ١٩٥٧ ، تياراً خفياً من التأييد لفكرة التحالف مع اسرائيل . واشـــارت الاوبزرفر [١] الى « الهمسات المنتشرة عن وجوب قيام سياسة بريطانيـا في الشرق الاوسط على اساس التحالف مع اسرائيل ، وهو عين مخطط السياسة الفرنسية » .

وبعثت في الثالث من كانون الثاني عام ١٩٥٧ برسالة قلت فيها :

« ... على الرغم من هذا الهدوء المصطنع في العراق ، فانني لا اعتقد بامكان استمراره الى ما بعد ايام نوري السعيد في الحكم الا اذا عـادت حكومة جلالتها فاتخذت موقفاً من اسرائيل ، يسمح للعراقيين الموالين للغرب بان يقولوا بأن بريطانيـــا لم تحذ حذو فرنسا في تبني حماية الصهيونية بشكل صريح . وفي الامكان تلخيص محتويات مثل هــذا الموقف بسهولة . اذ انه يتلخص في معارضة التوسع الصهيوني ومعارضة تيار ابادة الصهيونيين الموجود عند بعض العرب .

« ولا يصل بنا مبدأ أيزنهاور الى أي مكان . فهل يستطيع وقـف الامتداد الشيوعي في سوريا ؟ لا . وهل يوقف هذا المبدأ مصر عن شراء السلاح من روسيا ، ويمنع روسيا من الوقوف في صف واحد مع الدول الافريقية – الآسيوية في الأمم المتحدة ؟ لا . وهل يتمكن من منـع حكومة مقبلة في العراق من الانسياق مع التيار الشعبي – اذا افترضنا انها غير مدفوعة بميولها الخاصة – من التفاهم مع عبد الناصر على سياسة عداء الغرب ؟ لا . ان هذا المبدأ لم يلمس حقائق الوضع ، اذ ليس ثمـة عربي واحد بين كل مليون عربي ، وبينهم العراقيون طبعاً ، يفكر على صعيد الهجوم العسكري الروسي . وكل ما يراه في مبدأ ايزنهاور ، اذا صح فهمي للعرب ، على انه مشروع يرمي الى اقحامه في كفاح استعماري جبار ، يريد هو ان يظل في منأى عنه ، وعلى انه وسيلة يقصد منهـا تحويل مركز الاهتمام عن القضية الحقيقية التي هي قضية اسرائيل .

١ – الاوبزرفر – ٦ كانون الثاني ١٩٥٧ .

« وعندما يصبح العرب واثقين من ان الولايات المتحدة والمملكة المتحدة مصممتان على كل حال ، على ان تجعلا من الشرق الاوسط مكاناً اميناً للتوسع الصهيوني فعلى الدنيـا السلام .

« وتشترك مصالح العرب في الزيت والتجارة والمواصلات مع الغرب والشرق . ولا يشعر واحد من كل مليون عربي بالعطف على الشيوعية ، وليست لأي واحد من مليون منهم ارتباطات بروسيا ، أو يريد اقامة ارتباطات معها ، الا على صعيد السياسات الدوليـة لتأمين الوقاية من اسرائيل . أوليس في وسعنا الآن الامساك بالحقيقة ، وان نفعـل شيئاً في الموضوع ، قبل ان يصـل العراق الى حافة الهاوية او يسقط فيها ؟ » .

وكان ايزنهاور قـد اعلن الآن مبدأه أو ما يسمى بمشروعه ، ولم يكن الكونغرس الامريكي قد صادق عليه بعد ، وسنعود الى بحث هـذا الموضوع فيما بعد . وقدّمت الدول الاسيوية – الافريقية في غضون ذلك ، مشروع قرار الى الأمم المتحدة يقضي بانسحاب اسرائيل انسحاباً كاملاً . ولم يكن ثمة شك في ان فرنسا ستقترع الى جانب اسرائيل ، التي ما زالت تطالب بمكاسب اقليميـة من عدوانها . وكان مقياس شعور العراقيين معرفة الاتجاه الذي ستتخذه بريطانيـا في الاقتراع . فاذا ما اقترعت بريطانيا الى جانب اسرائيل ومصر ضد مشروع القرار الافريقي – الأسيوي ، فان نوري السعيـد سيصبح من جديد على حافة الهاوية .

لكن ممثل بريطانيا في الأمم المتحدة اقترع الى جانب القرار الأفريقي – الاسيوي . وقد أشار في خطابه الى مخاوف العرب من توسع اسرائيل، واضاف ان هذه المخاوف يجب ان تبدد . وقد التقط العراقيون كلماته واخذوا يـدققون فيها اذا كانت تضم شيئاً ، يعترف بوجود ما يبرر مخاوف العرب من التوسـع الاسرائيلي ، ويعترف بوجود قوى توسعية قوية في اسرائيل ، ويظهر اي دليـل على ان الحكومة البريطانية ستلتزم اتخاذ موقف يعارض التوسع . ولكن مثـل

هذا الدليل لم يكن موجوداً . وكان المعنى المضمون كالعادة هو ان تخاوف العرب من توسع اسرائيل لا اساس لها من الصحة وغير معقولة ، وان المتطرفين هم الذين يثيرونها بدافع الكراهية لليهود . لكن العواقب الوخيمة التي كان من المتوقع حدوثها لو اقترعت بريطانيا الى جانب اسرائيل ، امكن تجنبها في العراق .

وظل هناك سؤال جوهري يتناول ضمانات المستقبل . وقد كثر الحديث عن هذه الضمانات . وفي الجو الجديد من الانفراج العام الذي رافق تطهير قناة السويس وعودة انابيب الزيت في سوريا الى العمل ، أتيحت الفرصة من جديد . وقد اشار ممثل بريطانيا في الأمم المتحدة ، في خطابه الذي القاه في الثامن عشر من كانون الثاني الى هذا الموضوع فقال : « يجب ان نتأكد بأن أية هجمات جديدة عبر خطوط الهدنة سواء أقامت بها القوات الاسرائيلية او القوات المصرية وفدائيوها ، لا يمكن ان تتكرر . وهذا الامر يتطلب في رأينا ان تنتشر قوات الأمم المتحدة بشكل يحول دون تكرر مثل هذه الهجمات » . وعرض الآن اقتراح معين ، يقضي بإقامة نطاق من الارض على الحدود التي تفصل اسرائيل عن قطاع غزة على ان تتولى قوة الطوارىء الدولية اعمال الدورية فيه ، وان تخطط هذه المنطقة على جانبي خط الهدنة . وستعتبر كل محاولة من أي فريق بمثابة هجوم على الأمم المتحدة نفسها .

وكانت مصر وبقية الدول العربية على استعداد للموافقة ، وكان هذا امراً هاماً كل الأهمية ، وكانت الدول العربية ابان ازمة السويس قد حزمت امرها على وجوب تصفية اسرائيل تصفية نهائية . وكانت اقامة « نطاق صحي » حول اسرائيل تحت اشراف الامم المتحدة وحراستها بموافقة مصر ، تتطلب بحكم الضرورة ان ترافقها بيانات رسمية تصدر عن الدول العربية باحترام الحدود . وكان هذا يتطلب بدوره اعترافاً رسمياً من الدول العربية بحق اسرائيل في ان تبقى ضمن حدودها . واذا حكمنا على الامور على ضوء كل ما قالته اسرائيل وفعلته ، وعلى ما وجهته الى العرب من اتهامات ، فان صدور مثل هذه الضمانات – مع

اعتراف الدول العربية يبدو تحقيقاً لكل ما تأمل فيه اسرائيل بصورة مشروعة. واذا كان ثمة من شيء حيوي يأمل العرب في الوصول اليه نتيجة كل هذا الاضطراب، فهو ايجاد خط ثابت، لا يصلح للاقتحام سياسياً، يقام بين مصر واسرائيل وبين هذه وبقية الدول العربية ان امكن. ولكن هذا الأمل لم يتحقق، وكانت اسرائيل لا مصر أو الدول العربية هي التي رفضت السماح لقوات الامم المتحدة بوضع اقدامها داخل حدودها. وهكذا تعذر تحقيق المشروع، اذ لم يكن في الامكان تنفيذه الا اذا وافق كل من الفريقين على التخلي عن بضع ياردات لازمة من الأرض على جانبي خط الهدنة، لتوضع تحت اشراف الامم المتحدة.

ولم يحدث رفض اسرائيل أية أزمة عند العرب في ذلك الوقت، ولكنهم دونوه كبرهان جديد آخر يقوم على ان اسرائيل لا تريد أي نوع من الضمان لحدودها بحيث يحتم عليها البقاء ضمن هذه الحدود طيلة الوقت. واعتقد العرب، ان كل ما يريده الاسرائيليون هو ان يقوموا هم بحماية حدودهم بأنفسهم حتى اذا سنحت لهم فرصة ثانية لشن « حرب وقائية » يحققون فيها مكاسب اقليمية جديدة انتهزوها. والا فأي سبب آخر هناك في قبول ضمانة حقيقية ؟ وقد سجل العرب في ذاكرتهم ايضاً انه عندما كان الضغط من جانب امريكا على اسرائيل في هذه اللحظة الدقيقة كافياً لايجاد ضمانة حقيقية وفعّالة فان امريكا لم تفرض مثل هذا الضغط، على الرغم من ان الاحتكاك على جانبي خط الهدنة، هو الذي كان قد ادى الى كل ما حدث. ومن المحتمل ان لا يبدو مثل هذا الموضوع مهماً بالنسبة الى العقل الغربي. فلقد أذعن الاسرائيليون لإصرار امريكا في ما بدا للغربيين بأنه يكوّن القضية الرئيسية وهو الانسحاب الكامل. ولما كان هذا الانسحاب قد تحقق اصبح في الامكان القول بان الدول الكبرى ستكون حاضرة للتدخل فيما اذا حاول أي من الفريقين القيام بغزو. وقد جاء مشروع ايزنهاور بقوة امريكا بشكل واضح الى الشرق الاوسط. وهكذا غدت الوسيلة مهيأة.

وقد حقق دعاة الحرب من الصهيونيين أقل مما كانوا يأملون فيه، ولكن خيبات أمل الحاضر كانت شيئاً لا يقاس بالنسبة الى هؤلاء بآمال الغد. كان هذا

دأبهم دائماً . فالمضي عشر خطوات الى الأمام ثم العودة تسع خطوات الى الوراء يتركهم وقد كسبوا خطوة واحدة . وكان فتح الطرق البحرية الى ميناء ايلات، خطوة الى الأمام بالفعل ، اذ انها احالت اسرائيل من ارض محصورة في كل ناحية الا ناحية واحدة على البحر ، الى طريق اقتصادي واستراتيجي من البحر المتوسط الى البحار الشرقية والقارتين الأفريقية والاسيوية . وفي وسع اسرائيل ان تبتلع الخطوات التسع التي يتحتم عليها ان تعود بها القهقرى من احتلالها الإقليمي لسيناء ، فقد تسنح لها فرصة اخرى ، ولكنها لا تستطيع ان تتصور حرمانها الى الأبد من أي امكان في المستقبل ، في ان تقوم بخطوات اخرى الى الأمام . وهذا ما يعنيه حقاً صدور ضمانات دولية حقيقية للحدود الحالية .

وقد واجه الصهيونيون في الماضي في مناسبتين حرجتين كل الحراجة اوضاعاً لو قبلوها ، لجعلت من المستحيل قيام دولة يهودية ، وهما الكتابان البريطانيان الأبيضان لعامي ١٩٣٠ و١٩٣٩ . وكما رفض الصهيونيون في الماضي قبول اي تحديد نهائي لتوسعهم ووجدوا طريقة للتخلص من هذا التحديد ، فهم يرفضون الآن ، وقد يجدون الفرصة للتخلص من التحديد والالتفاف حوله في المستقبل .

وقد انهار مركز بريطانيا في الشرق الأوسط . فقبل سنتين ليس الا ، اي في مطلع عام ١٩٥٥ ، كانت لنا علاقات تعاهدية كاملة مع مصر والعراق والاردن، وكنا نحن الوحيدين الذين نمون هذه الدول بالسلاح ، وهو المؤشر الحساس للعلاقة السياسة . وكانت القوتان الجويتان السورية واللبنانية في ذلك الوقت تعتمدان قبل كل شيء على ما تزودهما به بريطانيا من طائرات . اما الآن فلم يبق لدينا الا القليل ، ممثلا في موطىء قدم ضيق ومحصور في العراق يعتمد على شخص واحد هو نوري السعيد . وقد انفصل نوري ومعه العهد الهاشمي في العراق، عن الشعب، كما انفصلا عن مصر وسوريا. وقد اندفع الامريكيون الى الحلبة مسلحين بمشروع ايزنهاور. واصبح في مكنة الامريكيين بموجب هذا السلاح الذى اقره الكونغرس، ان يفعلوا كل شيء يمكن عمله بالمدافع والذهب .

وقال لي صديق عراقي : « حقاً انكم لسعداء في بلادكم ، فأنتم مهما دفعت

الأحداث برئيس ووزرائكم الى ارتكاب اخطاء مخيفة ، تظلون على احترام الرجل مهما عارضتم اعماله . واذا توجب عليه ان يمضي فإن نظامكم يسمح له بالبقـاء في الجانب الآخر معززاً مكرماً . اما في بلادنا ، فاذا ما نما الضغط الى الحد الذي يفوق احتمال القائمين على الحكم ، فكل ما يسعنا عمله ، هو ان ننتظر الانفجار . واذا ما وقع هذا الانفجار جرف كل شيء امامه .

تمهيد للتطوّر

« اطلقت على هذا الفصل اسم التمهيد ، لأنني عنيت به شيئاً اضافياً ، يتناول مشاكل التطور ، صورة تتعدى حدود الغاية الاصلية من هذا الكتاب . وقد رأيت ادراج هذا الفصل ، لأن أعمال مجلس الاعمار في العراق تناولت نواحي مهمة للغاية بالنسبة الى كل المعنيين بشؤون المساعدات التي تقدم للبلاد المتخلفة » .

نتجت استقالة نوري باشا من رئاسة الوزارة في الثامن من حزيران عام ١٩٥٧ بسبب الخلاف الذي وقع في الوزارة حول السياسة المالية اللازمة لأعمال مجلس الاعمار على ضوء الخسائر في الموارد التي نجمت عن وقف الزيت . وكان الخلاف في الجوهر قائماً بين هؤلاء الذين اعتقدوا ان على المجلس ان ينزع الى الاقتصار على الاقتراض من المؤسسات الحكومية واولئك الذين يريدون الاعتماد على المساعدات الخارجية ، اذا لم تكف عائدات الزيت وان لا يطرأ على مشاريع الاعمار أي تراخ او بطء . ولكن كان من المتوقع منذ عهد بعيد انه عندما يتم انسحاب جميع القوات من بور سعيد وسيناء ، وعندما يسمح السوريون باعادة اصلاح انابيب الزيت فإنه سيفسح المجال لغيره .

وتولى الرئاسة علي جودت الأيوبي ، وهو من معاصري نوري واقرانه ، وقد دخل الحكم وخرج منه مرات عدة منذ سنوات طويلة ، وشغل الرئاسة

عدة مرات . ولم تكن وزارته التي ضمت عدداً من وزراء نوري السعيد ، على نحو الحماسة التي كانت عليها الوزارة السابقة لحلف بغداد ، على الرغم من اتضاح وعدها باحترامه وتأييده منذ البداية ، حتى ولو لم تستطع اعتباره حجر الزاوية في سياستها الخارجية . ولم يمض طويل وقت حتى اظهرت الحكومة الجديدة دلائل ، على رغبتها في التقارب مع سوريا . وكان مجرد ابتعاد نوري عن الحكم ، وهو المتهم بالرغبة في ابتلاع سوريا ، قد خفف حدة التوتر بين البلدين . وكانت المشكلة بين الاردن وسوريا ، وقضية مشروع ايزنهاور ، ما زالتا في طريق الوقوع ، وسأتناولها بالبحث في الفصل التالي .

ومررنا بأزمة هزت البلاد هزاً عنيفاً ، وقد اختلطت بالشك المستمر ، في موعد اصلاح انابيب الزيت في سوريا ، اذا كانت هذه الانابيب ستصلح حقاً ، وفي أي وقت ، اذ ظهر لنا احياناً ، انها قد لا تصلح ، وفي الموعد الذى سيعود فيه الزيت الى الانسياب ، اذ على انسيابه يتوقف دخل مجلس الاعمار وعائداته . وبدا لنا اكثر من ثلاث مرات منذ نهاية شهر تشرين الأول ، ان من المستحيل ان يتمكن نوري السعيد من الاستمرار والبقاء ، ولكن في كل مرة ، كان قرار يصدر عن الحكومة البريطانية ، ينقذه من الزوال . وأول هذه القرارات وقف اطلاق النار ، وثانيها قرار الانسحاب بلا قيد او شرط ، الذي اتخذ في نهاية شهر تشرين الثاني ، وثالثها قرار الاقتراع الى جانب مشروع القرار الافريقي الآسيوي في الأمم المتحدة بصدد انسحاب اسرائيل ، لا الى جانب فرنسا واسرائيل . واخذ يعمل على تثبيت الامن الداخلي . فلقد تم « ترقيع » الوضع ، ورتق الشق ،واصبح لزاماً عليه ان يلتفت الآن الى داخل العراق ، والى اعمال مجلس الاعمار . ولكن جاء التبدل الوزاري ،وسرّنا نحن اعضاء المجلس الدائمين ، من عراقيين واجانب (وكنا اجنبيين) ، ان نجد رئيسنا الجديد ، علي جودت ، ووزراءه الاعضاء في المجلس ، وقد اهتموا جميعاً ابلغ الاهتمام ، بدفع سياسات جديدة ومهمة للمجلس ، واتخاذ تشريعات كنا في أمس الحاجة اليها .

حقاً لقد رحبنا بالتبدل . ولم يكن ترحيبنا ناجماً عن افتقار نوري السعيد الى

الاهتمام . فعلى العكس من ذلك ، لم يتوان قط عن بذل الضغط اللازم للسير بالعمل . وكان كغيره ، من عراقيين واجانب على السواء ، يريد الوصول الى نتائج ملموسة بفارغ الصبر . فالنتائج ، تعني بالنسبة اليه ، مشاريع تم العمل فيها ، من كل طراز ونوع ولا سيما من المشاريع البارزة التي يمكن افتتاحها رسمياً ، ابان « اسبوع الاعمار » السنوي . وقد شرع في هذا الاجراء في ربيع عام ١٩٥٦ بنجاح كبير . وقد مضى الملك ووزراؤه وعلية القوم ، واعضاء مجلس الاعمار ، ولفيف كبير من الوجوه ، والسفراء والزائرين من الخارج ، في جولة من حفلات الافتتاح الرسمية . والقيت خطب ، واقيمت حفلات تدشينية لمحصول ذلك العام من المشاريع التي استكملت من خزانات وطرق وجسور وسدود للفيضان ، واقنية للري ومصانع ومساكن وابنية حكومية ومحطات لتوليد القوى الكهربائية وما شابه ذلك . واكتظت الشوارع بطلبة المدارس وطالباتها الذين يهتفون وبرجال القبائل والمواطنين ، وبعد كل احتفال ، تلقى فيه الخطب والقصائد ، كانت تقام وليمة يطعم فيها المدعوون . وبالطبع كانت هذه المظاهر مشجعة وحافزة ، ولكنها لم تستطع تحويل الاهتمام عن نواحي التطور الاخرى ، التي لا يمكن الاحتفال بها لطبيعتها بالابواق والولائم ، اذ انها نواح صامتة ، كالادارة والتدريب والتشريع . وهي مشاكل آخذة في التكدس يوماً بعد يوم .

وكان من المصاعب التي بدأت تطل علينا ، ان مشاريع الاعمار ، أخذت تسلم بعد اكمالها الى الهيئات المختصة . فكل مشروع بعد اكماله ، كان يسلم الى الوزارة او السلطة المختصة لإدارته وصيانته ، ذلك ان النظام الأساسي لمجلس الاعمار نص على ان يكون مجرد وكالة انشائية ليس الا . وقد استغرق العمل في كل مشروع من هذه المشاريع اربع سنوات او خمس من مراحل المسح والتصميم ، والمناقصة والانشاء . وبدأت المشاريع الكاملة الكبرى تظهر في عام ١٩٥٦ . ومنذ هذا التاريخ كان من المقرر ان يظهر محصول جديد من المشاريع ، التي يجب ان تسلم ، لكي تموّن بالرجال وتدار وتصان . وكان هذا يعني تزايداً كل عام في الاعباء التي تقع على الادارة العادية ، وذلك بالنسبة لما تتطلبه احتياجاتها

من عدد اضافي من الموظفين ومن اضافات متكررة على الموازنة العادية . وقد تضاعفت نفقات الدولة في غضون خمس سنوات او ست بنسبة اربعة اضعاف ، فارتفعت موازنتها من نحو من خمسة وعشرين مليون دينـــار في السنة الى مائة مليون دينار . وفي دولة يبلغ تعداد سكانها خمسة ملايين او ستة ، لم يكن دخلها القومي كله ليتجاوز في السنة قبـل بضع سنوات ، مائة وخمسين مليونـــاً من الجنيهات (الدينار يعادل جنيهاً واحداً) ، فان هذا التوسع الفجائي في النشاط الحكومي ، وكل ماينطوي عليه من تراسل حكومي ، وبرقيات ومواصلات ومشاكل ادارية من كل نوع ، كان في حد ذاته يؤلف جهداً شاقاً . وقد اضيف الآن الى هذا العبء ، سنة بعد أخرى ، عبء جديد متكرر من ادارة المشاريع الجديدة وصيانتها .

وقد ضمنت في مقال كتبته في عدد خاص اصدرته « الاوقات العراقية » في ربيـع عام ١٩٥٧ ، بعض الافـكار التي كان اللورد سولتر قـد ابتكرها [١] . وقلت :

« ... وقد اصابت الخطة مدى اوسع وعمقاً ، مع مضي الزمن ، ومع ارتفاع عائدات الزيت ، وقد نصل في قائمة المشاريع الانشائية الضخمة الى نهاية ، لكن مجموعات المشاريـع الصغيرة التي تتصل اتصالاً مباشراً بحيـاة المواطن الشخصية ، لا تنتهي ابداً . فليس في الامكان تنفيذ كل شيء في كل مكان فوراً ، وليست القضية مجرد طرح التزامات ، وبنـاء اشياء . فان جهاز تخطيط المشاريع التي يجب انجازها ، وادارتهـــا ، وخلق الوسائل لتنظيم الجهود في جميع انحاء البلاد ، وتأسيس المؤسسات واعداد المشاريع اللازمة ، وجمع الاشخاص اللازمين لادارة المشـاريع بعد اكمالها وتدريبهم على صيانتها ، كل هذه امور هي من صميم «الإعمار» كمشاريـع الإعمار نفسها .

« انها قضية نمو عضوي طبيعي . ومهمة مجلس الاعمار ، ان يحمل

١ – الاوقات العراقية – عدد خاص بمناسبة اسبوع الاعمار لعام ١٩٥٧ .

المتعهدين على البدء بالمشاريع البنائية ، ولـكن هذه المشاريع هي وسيلة الى نهاية ، لا نهاية في حد ذاتها . وهي أجهزة يعمل بها الناس ، لا مجرد هـــدايا ومنح للمتعة والراحة . ونجاح الخطة يبدو حتماً في الطريقة التي يجعل الناس فيهاهذه الآلات ، تعمل بمجهودهم انفسهم ، ولخيرهم ، وهذا يتطلب بعض الوقت .

« وعندما ينتقل العراق من مرحلة تزايد رأس المال الناتج بصورة طبيعية عن زيادة الوفر على الانفاق ، وعندما تتمكن المشاريع الضخمة الناجمة عن الثروة الجديدة من استباق الطاقة الإنتاجية التقليدية الراهنة للشعب نفســه ، يصبح من الضروري ان ينقضي بعض الوقت ، قبل ان يمكن استغلال الأدوات الجديدة استغلالاً كاملاً . ولا يمكن للفلاح ان يصبـح مزارعاً عصرياً ، يقوم بمختلف الأعمــال الزراعية بين عشية وضحاها لمجرد انه حصل على قطعة من الارض ، تعيش على نظام حديث للري . والخبرة والتجربة الضروريتان لتشغيل عمليات صناعيــة معقدة وادارتها ، لا تخلقان بصورة آلية اوتوماتيكية بمجرد اقامة مصنع من المصانع ، ولا يمكن اقامة التشاريع اللازمــة والكيانات الادارية التي تتولى تزويد كل هذه الاعمال الجديدة بالرجال ، وتشغيلها وصيانتهــا ، بمجرد دعوة المتعهدين لإقامتهــا . فعندما ينتهي العمل الانشائي يبـــدأ التحدي الحقيقي » .

وقد ظهر ما تتحمله الإدارة من اعباء ثقيـلة في ادارة الري . فبرنامج مجلس الاعمار يشتمل على الكثير من الخزانات والسدود والأقنيــة والمجاري . وعندما ينتهي العمل بكل هذه المشاريـع ، تسلم الى دائرة الري . ولكن منـذ سنوات عدة لم يكن قد انضم الى هذه الدائرة عدد كاف من الشبـان العراقيين الأكفاء مهنياً ، اذ كانوا يعثرون على وظائف افضل واكثر دخلاً مع المتعهدين او مع الشركات الهندسية الاستشارية او مع المؤسسات الخاصة التي تتعاون مع مجلس الاعمار . والاسوأ من هذا ان عدداً من كبار مهندسي الري العراقيين ، كانوا قد

تركوا العمل مع دائرة الري لأسباب مماثلة .

وكنا نحن المهندسين الأجانب والمعماريين والفنيين وزملاءنا من العراقيين الذين يعملون في الناحية الانشائية ، نقوم في الحقيقة ، بالجانب الأسهل من العمل. واذا ما توافر المال ، والقدرة على استخدام المتعهدين من كل مكان في العالم ، فان مجرد العمل الانشائي يصبح سهلاً نسبياً .

وكان الجانب الشاق حقاً من الإعمار ، هو تكييف العبء بالنسبة لطاقة البلاد من جميع نواحيها ، وبسرعة كافية وتقدم يكفل حفز تلك الطاقة ودفعها الى الأمام وحملها على النمو ، ولكن ليس بالسرعة اللازمة التي تضع عبئاً مستحيلاً على البلاد . ويستورد التقنيون من الخارج للقيام بالبحوث والدراسات ، كما يؤتى بالمتعهدين الأجانب لأداء العمل نفسه . وهؤلاء يقومون بالعمل الذي دربوا عليه ، ونظّموا واستؤجروا من اجله . وعندما يكملون عملهم ، تدفع لهم أجورهم ويذهبون . وهكذا يتم شراء أداة جديدة من أدوات الانماء الاقتصادي. وهنا يتولى العراقيون انفسهم زمام هذه الأداة الجديدة ويتحتم عليهم ان يكيفوها في مكانها اللازم في كيانهم الاداري والاقتصادي والمالي والتشريعي . ولا يتولى مجلس الاعمار الذي أنشىء كمجرد وكالة رسمية انشائية ، أية مسؤولية مباشرة في هذا العمل المعقد . وعلى الرغم من اننا حسّنا العلاقات والتعاون بين مجلس الاعمار وبين الوزارات النظامية ، فإن الحافز على اقامة مشاريع جديدة ومشاريع اكثر ، كان هو المسيطر على تفكير المجلس .

وكان انشاء المشاريع بالنسبة الى الدوائر التنفيذية في وزارة الانشاء والتعمير ولا سيما بالنسبة الى الموظفين الاجانب فيها الذين استقدموا خصيصاً كخبراء تقنيين وليس لهم عمل او شأن في ادارة البلاد بصورة عامة ، غاية في حد ذاتها . ولما كانت مدة « الحمل » بالنسبة للمشاريع الضخمة ثلاث سنوات او اربع أو خمساً ، او اكثر ، فان البرنامج نفسه ، ينطوي على تكهن واضح عن العبء الاداري المتزايد ، الذي كان من الواجب ان يترجم الى تعابير عملية بواسطة جماعة أمامية من رجال الجهاز الاداري . ولكن هذه الترجمة لم تقع فعلاً . وها

هو الجهاز الاداري قد شرع ينهار بصورة خطيرة .

وكان الكثيرون من العراقيين المثقفين ثقافة غربية ، واعني بهم اولئك الذين بلغوا سن النضوج بعيد الحرب الكونية الأولى ، وابناؤهم واحفادهم ، يعون هذه المشاكل ويعرفونها . ولكن قلة من رجال نوري السعيد ، الذين بلغوا سن الرجولة ، في العهد العثماني ، كانوا قد تسلحوا بالمعدات العقلية او التجارب التي تخولهم ادراك اهمية ما هو واقع . ولو كانت الظروف اقل اضطراباً ، وكان في الامكان اجتذاب اهتمام نورى السعيد ، لتفهم هذا الرجل وعمل . ولكن هذا لم يحدث . فلقد توافرت الأموال للعراق ، وكان من المنتظر ان تتوافر اكثر واكثر . فلقد كانت النظرية تقول ان الانماء الاقتصادي يعني بناء مشاريع ضخمة من كل نوع . اذ ان الرخاء ينتج عن الأعمال الضخمة . ولهذا فكلما كان بناؤنا لمشاريع كبيرة اكثر واضخم ، كلما اشتـد الرخاء وعظم . ولكن بالنظر الى المغالطة في ميدان المشاريع الضخمة ، فقد نجمت حالة من خيبة الامل والمرارة ، اخذت تتسلل الى نفوس الجيل الجديد .

وكلف وقف انسياب الزيت في الانابيب مجلس الاعمار ما لا يقل عن خمسة واربعين مليون دينار . أما وقد تقرر اعادة فتحه الآن ، فان الخوف من عوز مالي ، قد زال ، وكان ثمة ما يشبه اليقين ان في امكاننـا الحصول على قرض اذا شئنا واذا رأينا مثل هذا القرض أمراً ضرورياً . لكن هـذا التوقف ، قد أثار انتباهنا الى الحقيقة وهي ان احتياطنا الضئيل ، قد استهلك في سلسلة من القروض التي منحت للسلطات المحلية ، والهيئات الحكومية . وكانت شروط بعض هذه القروض من السهولة والبساطة بحيث انها كانت اقرب الى المنح منها الى القروض ولما الفنا اعطاء مثل هذا النوع من القروض ، فان الطلب عليها قد اشتد وتكاثر . وبتنا في حاجة الى اعادة النظر في اجراءات قروضنا وتعديلها وتضييقهـا . واصبح من الواضح ان مجلس الاعمار الذي كانت الغاية منه في الأساس ان يكون وكالة للمشاريع الانشائية ، يقوم بها من اموال الحكومة ، يجب ان لا يحول الى هيئة لإصدار القروض ومنحها . واقترحنا نقل جميع اعمالنا المتعلقة بالقروض

الى ايدي منظمات مصرفية تعمل تحت اشراف المصرف المركزي .

وبدأنا نواجه متاعب خطيرة في موضوع ادارة املاك الدولة (دائرة الميري) ، وهي الادارة التي انشئت قبل بضع سنوات لتوزيع الاراضي التي تسقيها مياه الأمطار ومياه الري على صغار الملاكين في مساحات صغيرة . ولما كانت سياسة الري الأساسية لمجلس الاعمار ، اقامة مشاريع ضخمة جديدة وتوزيعها على صغار المالكين ، فان اعباء الادارة في هذه الناحية اخذت تنمو بسرعة واضطراد ، مع انه لم تكن الغاية من انشائها في البداية ان تتولى مثل هذه الأمور . ولقد قال لي احد الاعضاء العراقيين في مجلس الاعمار ان دائرة الميري عندما انشئت ، قصد منها ان تكون جرذاً وان تحمل اعباء جرذ ، ولكنها الآن تواجه اعباء بعير وان ظلت جرذاً على حالها . وكان وضع الأمور في نصابها الصحيح ، سيتطلب قبل كل شيء ، تقرير نوع التنظيم المطلوب ، ثم اعداد التشاريع اللازمة وابرامها . وكان ثمة اتفاق عام على وجوب انشاء مجلس مركزي يتمتع بصلاحيات مالية وادارية شبه مستقلة .

واراد مجلس الاعمار بعد ذلك ، وقد شجعته حكومة علي جودت وحفزته ، ان يضع مشروعاً للتطور الريفي ، وهذا يعني الانفاق على مشاريع صغيرة للتحسين من مختلف الاصناف مع تحسين احوال التعليم والتدريب في جميع المناطق الريفية . وكانت هذه الخطوة مهمة وبارزة للغاية . وكانت البلاد في حاجة الى حافز حقيقي يصل جذور الحياة الريفية ، ويحمل معه المال والتحسينات الاقتصادية العملية وغيرها . وكان لدينا الآن عدد من الخبراء الذين قاموا بمثل هذه الاعمال في بلاد اخرى كالهند مثلاً ، ومثل هذا المشروع جدير بان يعم الارياف كلها ، وكان كل ما هو في حاجة اليه التنظيم ، والتشريع والموظفون وما شابه ذلك .

وكانت مشاريع الاسكان في البلاد تسير قدماً باستثناء بغداد نفسها حيث كانت الحاجة ماسة الى اسكان عشرات الالوف من المهاجرين الذين جاءوا من طول البلاد وعرضها وقد استهوتهم الأعمال المتوافرة . وكانوا يعيشون في اكواخ من

الطين تشبه تلك التي الفوا بناءها في الارياف حيث كانوا يعيشون ، وكان احتشاد هذه الاكواخ في مناطق واسعة تفتقر الى ميـــاه الشرب والوسائل الصحية ، يؤلف خطراً اجتماعياً وسياسياً في وقت واحد . ولم تكن المشكلة مشكلة فقـر يعانونه بقدر ما كانت افتقاراً الى المساكن والمعيشة الصالحة ، فقـد كانـوا يكسبون اجوراً عالية لا بأس بها ، وكان هذا يبدو في اعمدة الهوائي للاجهزة الاذاعية المنتشرة في هذه الاكواخ بمعدل جهاز لـكل عشرة اكواخ ، والـــتي يسمعون عن طريقها ، وبحرية ،الدعايات العربية القريبة والبعيدة . ووضع المجلس خططاً عملية لمواجهة هذه المشكلة . وتقرر تقسيم مساحات واسعة من الأرض الى قطع صغيرة للبناء ، وان تشق فيها الطرق وتقام المجاري ، وتمد انابيب الميـــاه واسلاك الكهرباء . وتقرر تجهيز الاهلين ببعض المساعدات كالسقوف والنوافـذ والابواب الخشبية ، على ان يقوموا هم ببنـــاء المساكن في ظل توجيه فني . ولم يكن هناك ما يحول دون تنفيذ هذه المشاريع الا الافتقـــار الى الاراضي . ولم تـكن المشـكلة ناجمة عن عدم وجـود اراضٍ خاليـــة ، فجميع الاراضي الموجودة حول بغداد ، كانت في حيازة افراد لا يريدون بيعها بينما لا تسير عملية الاستملاك بسرعة ، لأن الاسعار التي تضعها لجان التقدير كانت مرتفـعة للغاية . وكان من الاخطار السياسية المتزايدة ان لا يقوم عمل على نطاق واسع ، وكان من هذه الاخطار ايضاً ، ان تكون الطريقة الوحيدة للعمل ، قائمة في دفع اسعار خيالية للأرض تذهب الى جيوب اصحابهـــا . وقـد ادرك نوري السعيد تمام الادراك هذه الاخطار ، ولكنه لم يستطع ان ينال تأييداً في أي اصلاحات داخلية . وهنا كان سبب الأزمة .

وعلى الرغم من وجود بعض التقدم في الجانب الانشائي من برامج الاسكان ، فقد كانت هناك واجبات ادارية ضخمة يجب حلها . وكان من الواجب اقامة شكل من اشكال التنظيم للعناية بتوزيع البيوت وتأجيرها ودخلها وصيانتها وما شابه ذلك . فهل تقوم الوزارة بهذه الاعمال ، او يعهد بها الى مجلس حكومي خاص ؟ وهل تذهب العائدات الى خزينة الدولة او تدفـــع الى صندوق دوّار

لتمويل مشاريع اسكان جديدة ؟ لقد كانت هناك قضايا عدة في السياسة والتنظيم والتشريع يتحتم حلها .

وبدأت المصانع التي بناها المجلس في الإنتاج . واثار هـذا مشاكل تتعلق بالادارة والتمويل وشراء المواد الخام ، وتسويق الانتاج ، وكلها أمور اكتظت بها اعمال مجلس الاعمار . وتكلف المصانع التي تبنيها المؤسسات الحكومية اكثر بكثير من تلك التي تبنى بالأموال الفـردية . وليس في الامكان تحويلهـا الى « مشاريع فردية » ، عن طريق بيعها كاشياء مادية لا حياة فيهـا . ولا يمكن تحويلها الى اشياء حية الا بانفاق من اموال الدولة عليها وفي ظل ادارة حكومية ، لتزويدها بالعمال وتحويلها الى مشاريع صناعية قائمة . وكانت هنـاك طرق شتى لتحقيق هذا ، واخيراً تم ابرام قانون يقضي بإنشاء مؤسسات حكومية تتـولى تشغيل المصانع وادارتها . وكان هذا الاجراء مناسباً تماماً بالنسبة لبعض المشاريع كمحطات توليد القوى الكهربائية الضخمة . أما بالنسبة الى المشاريع الاخـرى كمصانع النسيج مثلاً ، حيث يتحتم عليها ، ان تقف في ميدان المنافسة مع المصانع التي يملكها افراد ، وان تبعث بمنتجاتها الى اسواق مكتظة بالواردات فقد كانت المشكلة اكثر تعقيداً . وكان البرنامج الصناعي في رأيي محملاً باعباء جسام من المشاريع الجديدة الضخمة . فكل مشروع من هذه المشاريع كان يتطلب عدداً جديداً من المثقفين والمدربين العراقيين ، وهو ما تفتقر اليه البلاد تماماً . فمثلاً اذا قسنا المشاريع على ضـوء المعايير الاقتصادية ، كان من السهل الاثبات بان خير ما يمكن انشاؤه من مصانع هو تلك التي تقوم بتحويل الغازات الضائعة بدءاً في حقول الزيت الى كبريت والى اسمدة وكذلك تلك التي تنتج المواد الكيمائية البترولية . ولكن نجاح هذه المصانع تجارياً يتوقف على التصدير ، والغاية من التصدير الحصول على النقد الاجنبي ، ولما كان هذا النقد متوافراً للعراق ولا تفتقر اليه فقد بدا لي ان هـذه المشاريع يجب ان لا تعطى الاولوية . ومن المؤسف ان نرى الغازات تحرق وتبدد ، ولكن في وسعنا ان نتأكد من شيء واحد على الأقل ، وهو ان هـذه الغازات لن تنقلب الى الحزب الشـيوعي

وتشترك فيه ، بينما قد يتحول الناس الى شيوعيين اذا لم نقم بعمل يأتي لهم بالنفع المباشر . وكان الزمن والجهد اللذان ينفقان على هذه المشاريع الصناعية الضخمة يؤخذان من مشاريع الانماء الشعبية الصغيرة النطاق ، التي يجب ان تشمل البلاد طولاً وعرضاً . فلقد كان العراق بحاجة لا الى المصانع الضخمة المركزة في اماكن معينة ، بل الى صناعات صغيرة تسير جنباً الى جنب مع العمليات الصناعية العادية التي تجري في الارياف والقرى والمدن ، كصناعات مواد البناء ، وحفظ الاطعمة ، واعمال الصيانة ومشاغل الترميم والاصلاح وما شابهها . وجميع هذه الأمور موجودة فعلاً ولكن تحسينها ينقل التطور الى الجهاز الحي في المجتمع .

وواجه مجلس الاعمار ايضاً حشداً من مشاكل التعهدات . فمن السهل نسبياً القيام بالدراسات اللازمة للمشاريع والاعلان عن المناقصات وتوقيع العقود . ولعل من المشاعر المريحة بالنسبة للسلطة التي تمنح التعاقد ، ان مهمتها تنتهي عند هذا الحد ، باستثناء الاحتفال بافتتاح المشروع عندما ينتهي العمل . ولكن المشاكل لا تبدأ الا في المراحل المتأخرة والاخيرة ، عندما يتحتم اتخاذ قرارات تتناول التبديلات والتغييرات ، والمشاكل غير المتوقعة بما تنطوي عليه من التزامات مالية وادعاءات وخلافات . وأدت أزمة السويس بما سببته من تعطيل وتأخير في وصول المعدات ، وعرقلة للاعتمادات ومضايقات للموظفين الاجانب ، الى عدد كبير من المشاكل . وكان المجلس مفتقراً الى الجهاز المناسب لمعالجة كل هذه المواضيع . واتفقنا على وجوب عمل شيء في هذا الصدد وقدمنا اقتراحات مختلفة .

وارادت حكومة علي جودت ، ومجلس الاعمار في عهده ، تشريعاً في موضوع الري وتصريف المياه للقضاء على هذا الجمود الذي بدأ يضايق الحكومة ومجلس الاعمار مضايقة جدية . وقد اوضحت في فصل سابق ، باقتباسات من تقرير اللورد سولتر ، كيف حاولت الحكومة والمجلس تجنب مشكلة الإصلاح الزراعي المعقدة ، بإقامة مشاريع جديدة ضخمة للري ، تؤمن الماء لصغار المزارعين ، وكان اللورد سولتر قد أوضح ، ان السرعة التي تتم فيها عمليات استصلاح اراضٍ جديدة للزراعة بهذه الطريقة وتجهيزها باقنية الري وتصريف المياه ، واسكان

المزارعين في هذه الارض وادارتها ، تخضع قبل كل شيء ، للقيود الإدارية والعملية ، التي تعني ان من الضروري ان تكون هذه العملية بطيئة للغاية وان تستغرق جيلا او جيلين بدلاً من مجرد بضع سنوات . وقد ثبتت صحة هـذا التحذير بشكل عملي قاطع في منتصف عـام ١٩٥٧ . ولكن وفي نفس الوقت ، لم يكن حتى ذلك التـاريخ قـد تم عمل واسع أو كبير ، في ميدان تحسين انظمة الري القائمة وتوسيعها . وكانت الصعوبة السياسية والاجتماعية القائمة هي انـه لو جرى تحسين في انظمة الري الراهنة عن طريق الاكثار من تزويـدها بالمياه في الصيف ، وعن طريق حفر مجاري التصريف ، فـان المنتفعين سيكونون على الغالب من اصحاب الاملاك . وهكذا نكون قد وصلنـا ورطة سياسية يصعب الخلاص منها . فـاذا قررنا المضي في اعمال الاصلاح ، توجب سن تشريـع يضمن على الأقل ان يدفع اصحاب الأملاك مقابل المنافـع الضخمة الـتي سيحصلون عليها ، وهذا يتطلب تشريعاً سيقاومه اصحاب الاملاك انفسهم ، وهم يؤلفون غالبية اعضاء البرلمان ، مما يجعل اصدار التشريـع أمراً شاقاً . وكانت هـذه المشكلة تشبه تلك الـتي عرقلت تطهير بغداد من الاكواخ و « الصرائف » . وكان التيار الشعبي قوياً ضد أية حركة ترمي في ظاهرها الى وضع المال في جيوب اصحاب الاملاك ، وكان هؤلاء من القوة بحيث يحولون دون ابرام أية قوانـين اصلاحية . وهـكذا نشبت الأزمة . وجاءت حكومـة علي جودت فحزمت أمرها على وجوب ابرام قانون من هذا النوع ، ودفعه في البرلمان . وبوشر فعـلا في اعداد مسودته .

وفي غضون ذلك ، كان العمل يقوم في سدين كبيرين على قدم وساق ، احدهما سد « الدوكان » على الزاب الصغير والثاني سد « دربندي خان » على نهر ديالى . وستتوافر بعد نحو من سنتين كميات ضخمة من الماء المخزون صالحة للري في اشهر الصيف . أما أقنية الري الجديدة التي خصصت لهذا السد ، فلم يشرع في بنائهـا بعد ، ولم يكن من المنتظر ان ينتهي عندما ينتهي العمل في الخزان ، بينما لم تكن اقنية الري القديمة قد مرت في أي فترة من الاصلاح لاستيعاب الميـاه الفائضة .

ويقف وراء كل هذه الاقنية مشروع الاصلاح الزراعي بصورة عـامة . ولكن هذه القضايا لم تكن من شأن مجلس الاعمار بل من شأن الحكومة نفسها . وكانت كقضايا الري العامة الاخرى ، إما انها قد وضعت على الرف او انها قد اهملت .

وكان امتلاك العراق لأموال حكومية ضخمة يؤمن للبـلاد وسيلة تحقيـق اصلاحات زراعية توسعية دون اللجوء الى الاساليب الثورية وما تحدثه عادة من اضطراب . وكان في الامكان ايجاد مصرف اختصاصي يستخدم في منح القروض والمنح للمزارعين بشروط مقبولة ، اهمها ان تسلم مساحات من اراضيهم للاستثمار الجماعي مقابل تصرفهم بما يتبقى منها . وسيعوض عليهم بهذه الطريقة ، بواسطة تنفيذ اعمال الاصلاح لا بواسطة الحصول على أموال نقـدية . وكانت صلاحية الحكومة في توزيع المياه داخل انظمة الري القائمة تزودها بجهاز يمكنهـا من ان تفيد اصحاب الاراضي الذين عملوا على اصلاح اراضيهم وقدموا الفرق منهـا ، وان تحرم اولئك الذين امتنعوا من هذه الفائدة . وتعمل هذه الاساليب نظريـاً عن طريق دعم اولئك الذين يحسنون العمل ، وتشجيع الآخرين على احسانه بدلاً من انزال العقوبة بالجميع لأن البعض قد اساء . ولكن جميع هـذه الاساليب تفترض دعم البرلمان مسبقاً ، لإصدار التشاريع اللازمة ، ومنح القوة الادارية على التنفيذ . وكانت هذه التشاريع والقوة الادارية غير موجودتين في العراق .

وكان للجمود اسوأ العواقب والنتائج الممكنة ، اذ انه عنى ان الارض لم يجر تحسينها ، وان جميع الذين عاشوا من الارض قـد عانوا من ذلك ، سواء منهم أفقر الفلاحين أو اغنى الشيوخ على حد سواء . فقد كان كل شيخ غني يسود الوف الفلاحين الفقراء .

ووراء جميع هذه المشاكل ، كانت هناك القضية الاساسية للادارة . وقـد بانت الحاجة الآن للاصلاحات العملية الملموسة ، ذلك لأنها بحثت بصورة كاملة داخل المجلس ، وقد اتخذت الترتيبات اللازمة لها . ولكن الوزراء ، ورجـال الادارة كانوا مثقلين بالاعبـاء ، لكي يستطيعوا السير مع الاحداث ، بحيث لم يتوافر لديهم الوقت ، ولا الرجال المدربون لاعطاء الوقت اللازم ، للقيـام بهذه

المهمة الصاخبة المزعجة من الاعداد والتنظيم ، ووضع اللوائح القانونية وايجاد الموظفين اللازمين لتطبيقها .

وواجهتنا مشكلة اساسية اخرى ، وهي غالباً ما تكون موجودة في جميع البلدان المتخلفة . فقد ادرك مجلس الإعمار الآن كما ادرك الوزراء ، ان ما تحتاج اليه البلاد ، هو الإكثار قبل كل شيء من المشاريع الاصلاحية الصغيرة من صناعية وزراعية واجتماعية في جميع انحاء البلاد ، وهذه المشاريع تحتاج الى التخطيط والتنظيم بحيث تضمن ايجاد اكبر ما يمكن من المال لجيوب الشعب في المنطقة ، ولنأخذ على سبيل المثال مجموعة من القرى الريفية . فلقد توافر المال لدى مجلس الإعمار للانفاق ، واراد المجلس ان ينفقه على اعمال التحسين في الحقول والغابات والطرق الريفية والابنية والجسور والعبّارات ، ومشاريع المياه ، ومشاريع تصريف المياه الزائدة ، واللطائف على اختلاف انواعها ، ومجالات النشاط الصناعي المترابطة والصغيرة . وكانت الطريقة المثلى في تحقيق اجزل الفوائد لأهالي الارياف ، تقوم في استخدام اليد العاملة هناك على اوسع نطاق ممكن ، وتنظيم هذا العمل بحيث يستوعب أي تراخ ، ولا سيما من الاسترخاء العضلي في حالات عدم توافر فرص العمل الكافية . وسيقومون هم انفسهم بالعمل اللازم وسيقبضون اجراً على القيام به . وستفيد القرية نفسها من اعمال الاصلاح ، بينما تذهب الأموال التي تنفق عليها الى جيوب القرويين انفسهم . وسيحصلون على شيء من لا شيء ، او بكلمة اخرى ان المال اللازم للمشاريع لن يجمع من القرويين انفسهم عن طريق الضرائب ، بل يأتي مباشرة من عائدات الزيت ، وفي هذا الصدد يتفوق العراق على غيره من بلاد العالم ، لحسن حظه . ولكنهم لن يأخذوا المال صدقة او احساناً ، بل عليهم ان يعملوا في سبيل الحصول عليه ، وسينالون هم الفوائد التي تجنى من عملهم هذا .

وكنا نواجه مشكلة عامة ناشئة عن الموجة الطاغية من المساعدات التقنية التي تقدم الى البلاد المتخلفه عن طريق الوكالات الدولية المتفرعة عن الأمم المتحدة ، والوكالات الخاصة كادارة التعاون الدولي الامريكي (النقطة الرابعة) ،

والمؤسسات والاتحادات الخيرية الخاصة . وقد اشتدت هـــذه الحركة في مطلع حقبة الخمسين . وكانت فترة (الحمل) المقدرة باربع سنوات او خمس بالنسبة الى المشاريع الضخمة قد اشرفت الآن على النهـــاية ، وبدأنا نحس في عام ١٩٥٧ ، بالنتائج الملموسة التي نستطيع الحكم عليها . ومن الضروري ان ينتقد الانسان ، ومن النافع ان ينتقد ايضاً شريطة ان يرى في هذا الموضوع بداية حركة تتنــاول الفكر والعمل ، وذات اهمية بكر في تاريخ الجنس البشري ، بحيث ان الالحاح والحماسة القائمين وراءها ، لم يؤديا فقط الى اخطاء جسام ، بل الى قوة دفع ذاتي كافية لتؤكد كما اكدت فعلاً ، بان علينا ان نجتاز هذه الاخطاء وان نتعلم منها وان نمضي وراءها .

وكانت الظواهر الفورية الواضحة في العراق ، تشير الى ان الخبراء الفنيين الذين تقدمهم الوكالات من البلاد المتطورة النــامية ، والذين يفدون في اعمال لفترات قصيرة ، لا يستطيعون ان يكيفوا خبرتهم ، وحالاتهم الفكرية المهنية الى الظروف العملية للبلاد التي وفدوا للعمل فيها بصورة مؤقتة . وقــد سبق للورد سولتر ان اشار الى ان نقل الافكار والاساليب من البلاد الاخرى ليس كافيــاً ، وان من الواجب تحويرها . ومن الواجب الاعتراف انه في بعض الحالات ، وقد تكون احياناً حالات اكثر من اللزوم ، هناك اتجاه لايجاد فضيلة ايجابية من نقل الافكار ، على اعتبار ان حاجة هذه البلاد الى « تعصير » نفسها تتطلب اتباع اكثر الاساليب والوسائل الحديثة عصرية ، دون الحاجة الى تحويرها او تكييفهـــا لـتوائم الظروف المحليــة . ومن الخطــأ بالنسبة الى المطوّرين الاقتصاديين ، ان يصلوا الى بلاد جديدة لا يعرفونها ، وقد كونوا لديهم فكرة عن الحالة التي يجب ان تكون فيها ، وان يحاولوا بعد ذلك تحقيق هذه الفكرة . ان الطريقة المثلى ، هي ان يدرس المطور الاقتصادي اوضــاعها الحالية اولاً ثم يبحث عن الطرق العملية لتحسينها .

واذا ما رغبنا في تلخيص هذا الوضع قلنا ان جميع اعباء برنامج الانشاء ، التي تمخضّت عن عائدات الزيت الضخمة نسبياً ، قد خلقت بدورها اعباء ادارية

خطرة ، وان النتاج العادي للمشاريع الجديدة التي تم اكمالها ، والتي غدت في حاجة الى من يعمل فيها ويديرها ويتولى صيانتها ، قد اضاف اعباء جديدة ، وان هذه المشاريع قد خلقت بطبيعتها ، الحاجة الى اصلاحات تشريعية وادارية ، لم يكن هناك من يستطيع ان يقدر ضرورتها تمام التقدير ، وان الدرجة العالية من التألية الحديثة في اساليب الانشاء والتخطيط قد عنت ان قلة من رجالنا المحترفين قد توافرت لهم الخبرة والمعرفة الضروريتان لتنظيم أي مجموعات كبيرة من الاشغال الصغيرة التي تستطيع الافادة الى اقصى الحدود من الايدي العاملة والمواد المحلية ، وان الاسلوب المألوف في المساعدة الاقتصادية الاجنبية كان ينحرف بالبرنامج الاعماري نحو انشاء عدد صغير نسبياً من المشاريع الضخمة وهو اتجاه عززه ميل العراقيين الخاص نحو كل ما هو ضخم . ولم يكن من السهل تذليل أي من هذه المشاكل ، بل على العكس ، كان نتيجة هذه الاتجاهات زيادة المشاكل لا تخفيضها .

وفوق هذا كله ، كان هناك التأثير السياسي والاجتماعي الخطر لهذه الثغرة بين الطبقة الثرية من العراقيين المتفلسفين والمستغربين وبين هذه الجماهير التي تعيش في الارياف او في الاكواخ . ومن السهل جداً ان نعالج هذه المشكلة على اساس انها قضية سياسية او اجتماعية مجردة ، وكأنها نابعة عن الانانية الرجعية لنظام اجتماعي اقطاعي ، ولكن هذه المشكلة في الحقيقة اعمق جذوراً من هذا . فالشعب العراقي ، وقد رأى تحت تصرفه عائدات الزيت التي تمثل ثلث الدخل القومي او تزيد ، « تطعم » بغتة في اقتصاده ، اخذ يجتاز مرحلة التطبع بالحضارة الآلية العصرية التي تبدو في اقوى مظاهرها المتحركة . وقد تبدو مثل هذه العلامات وان كانت في شكل اقل وضوحاً ، في جميع البلاد المتخلفة . فالحضارة التي تستخدم الهواتف ، والاذاعات ، والسيارات والطائرات وافلام السينما والكهرباء والحواكي ، والطباخات الكهربائية وكل المنافع المادية الناجمة عنها مضافة الى الطب الحديث والجراحة ، تتطلب كياناً اجتماعياً وسياسياً وادارياً يختلف عن ذلك الذي يتطلبه الاقتصاد الريفي الذي يعيش على الاكتفاء ،

وهو الذي يسيطر على معظم انحاء العراق . ويجب ان يبـدأ الشكل الآلي العصري ، بطبيعتـه ، في العاصمة ، وفي المدن ، وان ينتشر بعد ذلك الى الارياف . وليس في الامكان تجنب الصراع بين القديم والحديث . وفي البـلاد المستصنعة ، حيث تكيفت الحياة مع مجيء التقـدم التقني ، تمكنا من تكييف انفسنا بسهولة ويسر . ومع ذلك فقد ظلت الاحتـكاكات عظيمة وخطيرة . وتعتقد البلاد التي نجت من الفوران الاجتماعي ، بانها كانت سعيدة الحظ في هـذه النـجاة .

وكان الاصطدام بين القديم والحديث في العراق ، كما في غـيره من البـلاد المتخلفة تقنياً ، اشد قسوة من أي اصطدام خبرناه في انكلترا أو كان في وسعنا تصوره . ولأوضّح هذا القول ، اذكر على سبيل المثال ،ان في وسعنا تصور عائلة واحدة في انكلترا اليوم يكون الجد فيها قد حمل افكار ومعرفة وعادات الحياة في اواخر القرن التاسع عشر ، بينما يكون الحفيد ، قـد تخرج من اكسفورد او كمبردج في عام ١٩٥٧ .

ولعل الهوة القائمة في العراق او في غيره من بـلاد الشرق الاوسط ، اكثر بروزاً ، مما قد يوحي به هذا التشبيه ، اذ في الجيل الأخير وحده ، القت المرأة بحجابها وخرجت الى الحياة الاجتماعية التي تسير حثيثاً في طريق التطبع بالطراز الغربي . وبينما كان بيت الاسرة الثرية في بغداد يضم قبل ربع قرن او ثلاثين عاماً ، عدداً من البيوت الداخلية التي تعيش فيهـا عدة اجيال من افراد العائلة ومن الخدم ايضاً ، فان الزوجين العراقيين المتحررين اليـوم يخرجان من بيت الاسرة هذا ، ويذهبان للعيش في بيت خاص بهما ، يزودانه بكل وسائل الخدمة والراحة الآلية الحديثة . ولا يمكن ان يكون هناك الا هذا الطراز من الحياة . ولكن هذا الطراز في حد ذاتـه ، يخلق اذا استثنينا كل شيء آخـر ، هـوة مزدوجة ، بين الزوجين الشابين وجديهما من ناحية وبين الزوجين وبين محيطهما الفقير من الناحية الثانية .وليست لدينا في انكلترا هوات من هذا القياس او من طراز هذا الخطر الاجتماعي .

ومع ذلك ، ففي وسع اقل عراقي شأناً ، عن طريق انفاق بعض الجنيهات ان يتمتع بكل ما في الحضارة الحديثة من خيرات متقدمة ومنافع تقنية ومتصنعة ، كجهاز الراديو ، والرحلة الى المدينة بالسيارة ، والذهاب الى دار للسينما . وعلى الرغم من هذه المتع ، فان الاجواء الفعلية المحيطة ببيته ، واللطائف التي تبدو في قريته أو بلدته الصغيرة ، والاكواخ التي يعيش فيها ، لم تتبدل كثيراً عما كانت عليه في ايام النبي ابراهيم الخليل .

وكانت هذه المتاعب الداخلية في العراق تزداد بصورة مرعبة ابان صيف عام ١٩٥٧ ، ولكن كان ثمة ادراك بان اشياء يجب ان تعمل ، وان دروساً يجب ان توعى ، وان افكاراً يجب ان تناقش ، وان خططاً ومشاريع قوانين يجب ان تعد وتدرس . وكل ما كنا في حاجة اليه قبل كل شيء ، هو الخلاص من متاعب المشاكل الخارجية ومن الانقسامات والعداوات بين الدول العربية لنجد ارضاً انشائية مشتركة نقف عليها . واذا كان الحياد يعني اخراج العراق من الحرب الباردة ،واذا كان يعني الوصول الى اسس عملية وعقلية للتفاهم مع جيران العراق ولا سيما مع سوريا ، واذا كان يعني وقف هذا التيار من القلق الداخلي ، فلا ارى سبباً يحول دون اتخاذ سياسة الحياد . وقد تكون فكرة حلف بغداد طيبة في بدايتها ، ولكن عندما غدا الحلف مصدراً للشقاق والنزاع بين الدول العربية وبين العربي والعربي والعراقي والعراقي ، فأية فائدة ظلت لهذا الحلف ? هكذا كان يتجه تفكيري وتفكير العراقيين مع مرور اشهر الصيف ، وعندما اخذنا نقترب من ازمة الصيف التي لا مناص منها .

كانت الازمة هذه المرة متعلقة بسوريا والاردن ومشروع ايزنهاور .

وبدا ان امريكا قد سارت الآن على المخطط السياسي الذي وضعه ايدن ، والذي نال الثقة على اساسه . ولم يكن هناك مجال للراحة من المشاكل الخارجية ، ولا سبيل لتنظيم الشؤون الداخلية واصلاح الاحوال الادارية والاجتماعية . فما زال عبد الناصر ، الشوكة في حلق الدول الغربية التي يجب ان تزال ، وما زال موضوعه يحتل المكانة الاولى .

مبدأ ايزنهاور

مهما قال الانسان في حسنات عملية السويس او مساوئها ، فان موقف الروس السياسي في الشرق الاوسط العربي ، قد غدا الآن اقوى بكثير مما كان عليه في ربيع عام ١٩٥٦ . وكان الكثيرون في انكلترا ، يخدعون انفسهم ويخدعون الآخرين معهم ، بالقول ان الروس لو لم نقم « باجرائنا البوليسي » في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ، كانوا سيغدون حتماً اقوى مركزاً مما هم عليه الآن . وكان اولئك الذين يفكرون في حدود الصور المطلقة من الخير والشر ، لايجدون صعوبة في الوصول الى نتائج مرضية من هذا النوع . واذا ترجمنا الفكرة الابوية الخيرة التي تقوم وراء « الاجراء البوليسي » الى مفاهيم عملية من قصف القنابل واطلاق النار على المصريين في مصر ، لتعقبها حملة دعائية عنيفة ضد سوريا ، فليس من الصعب علينا ان نفهم لماذا استدار هؤلاء الذين هوجموا الى جهات اخرى يطلبون معونتها .

وتؤدي سلسلة التفكير المطلق النابعة عن اساس خاطىء الى نتائج خاطئة حتماً . فاذا كان الاجراء البوليسي – قد حال بين الروس وبين ان يكسبوا اكثر مما كسبوا ، فان زيادة هذا الاجراء البوليسي ، ستوقف التقدم الروسي . واذا كان الاجراء البوليسي في موضوع السويس قد نجح نجاحاً جزئياً ، لأنه تحقق بصورة جزئية ، فان الدرس الذي تعلمناه كان واضحاً . واذا كان الاجراء البوليسي قد فشل لأن امريكا لم تكن قد وقفت الى جانبنا ، فان

وقوفها في المرة القادمة الى صفنا عندما يقع تحد جديد ، سيضمن النجاح ، وما دام عبد الناصر موجوداً ، فان هذا التحدي سيقع حتماً . واذا كانت روسيا قد وطدت اقدامها في الشرق الاوسط ، فإن الشيوعية قد وطدت اقدامها فيه ايضاً (وهكذا يقضي منطق المناقشة) ،فالاتحاد السوفياتي والشيوعية في التفكير الغربي اسمان لمسمى واحد .

ومن المتوقع ، بل ومن المفهوم ايضاً ، ان تتراجع امريكا عن الاشتراك مع بريطانيا وفرنسا في عملية ضد عبد الناصر ، تحمل طابع العمليات الاستعمارية القديمة الطراز . اما اذا غدت مصر عبد الناصر ، « دولة تحكمها الشيوعية الدولية » ، على حد تعبير مبدأ ايزنهاور ، فان هذا يغدو امراً آخر . فالاستعمار شيء سيىء ،ومن يقاومونه يحسنون صنعاً .ولكن الشيوعية شيء سيىء ايضاً ، وان من يعملون كأدوات لها يسيئون الصنع . وعبد الناصر يقود القومية العربية ، وعبد الناصر متحالف مع الروس ، وروسيا تعني الشيوعية ، اذن فالقومية العربية والشيوعية في رأي الامريكان شيء واحد ، ولما كانت الشيوعية سيئة فالقومية العربية بطبيعة الحال سيئة ايضاً . والسياسة الخارجية التي يعبر عنها بالشعارات يمكن تبديلها بالسرعة التي يتم فيها صوغ شعارات جديدة .

ومع ذلك فقد غدت طريقة بريطانيا مختلفة في نظر العرب عن طريقة امريكا . ولم يكن هناك قط الكثير من العقائديات في موضوع السياسة البريطانية . ولقد وجد دائماً عربي متطرف يعارض سياسة بريطانيا في كل وقت ، كمفتي القدس او رشيد عالي ، او عبد الناصر . وكانت الطريقة التي عاملنا بها هؤلاء المعارضين واضحة تمام الوضوح للعرب ، فهم يقفون في طريقنا ويجب ان يزاحوا عن هذه الطريق . والقضية مباشرة وشخصية دائماً ، سواء مع الخصوم او مع الاصدقاء ، فهم موجودون وبعضهم يقف الى جانبنا والبعض الآخر يقف ضدنا .

اما الطريقة الامريكية فمختلفة ، ولم تكن بالنسبة الى العرب مفهومة .

وهناك شيء شرير اسمه الشيوعية الدولية . والقوميون العرب على استعداد لالتقاط العدوى ، والدول العربية مهيأة لتغدو تحت سيطرة هـذه الشيوعية . وعندما يتحقق هذا ، فان هذه الدول العربية التي تغدو تحت سيطرة الشيوعيين تصبح عدوة للدول العربية الاخرى التي تقف مع الغرب ومع الحرية ضد روسيا وضد الشيوعية ، وتغدو والحالة هذه خطراً يهددها . وقد خول مبدأ ايزنهاور الرئيس تقديم العون العسكري لأية دولة عربية تناهض الشيوعية وتغدو مهددة من دولة عربية اخرى تسيطر عليها الشيوعية الدولية .

وكان من حق الرئيس الامريكي ان يقرر من هي الدولة التي تسيطر عليها الشيوعية الدولية . ومن هي الدولة التي تناهضها . واذا كان قد رأى ان هـذه الدولة او تلك تسيطر عليها الشيوعية الدولية ، فهذا يقرر الموضوع ، فالقضية لا تحتاج من وجهـة النظر الامريكية الى اي شيء اكثر من الاكتشاف الذي يغدو حقيقة ، والحقيقة تعطي الرئيس الامريكي السلطـة للعمل بموجب مبـدأ ايزنهاور . فاذا وجد الرئيس ان دولة عربية تهدد دولة أخرى ، فهـذا يكفي ، وامريكا قائمة هناك لحماية الدولة « الطيبة » ، ومعاقبة الدولة « السيئة » .

ويعطي المبدأ الذي اقره الكونغرس آنذاك الرئيس الصلاحيات ، لاستخدام القوات العسكرية الامريكية دفاعاً عن الدولة التي وجد هو انها مهددة ، وضد تلك الدولة التي وجد هو ايضاً انها واقعة تحت سيطرة الشيوعية .

وظل النقاش يدور داخل هذا الاطار من المفاهيم المطلقة عن الخير والشر ، الذي أقيم عليه هذا البناء من الفكر والعمل ، جامعاً معه في دورانه الحقائق التي يتطلبها . لكن هذه الحقائق لم تكن حقائق حقاً بالنسبة الى العرب . فلم يكن من الحق في شيء ان القومية العربية والشيوعية كانا اسمين لمسمى واحد ، فقد كانت القومية العربية قوة فعّالة ، قبل ان يوجد شيء اسمه الشيوعية في العالم ، وهي ليست مدينة للشيوعية بأي شيء او بأي سبيل . ولم يكن من الحق في شيء ان النفوذ الروسي عند العرب كان يستمد جذوره من الشيوعية ، فعلى النقيض من ذلك ، احرز الروس مواطىء قـدم عندما توقفوا عن حركاتهم

الشيوعية ،الهدامة للبورجوازيةالوطنية ،وعندماعرضوا مساعدة مباشرة وصريحة لهذه البورجوازية ، كما تقدم اية دولة ذات سيـادة عوناً الى دولة اخرى ذات سيادة في ميدان اصطراع القوى . ولم يكن من الحق في شيء ان الانقسام في العالم العربي اكتسب لوناً عقائدياً ، على اساس الشيوعية ومناهضتها . فالانقسام الرئيسي كان الآن قائماً بين الدول العربية التي تطلب الحق في ان تكون محايدة في الحرب الباردة ، وبين تلك التي تنشد التحالف مع الغرب ؛أو بين اولئك الذين كانوا ينشدون عون روسيا لوقف الاستعمارية والصهيونية التوسعية عند حدهمـا ومعارضة تأييد الغرب للصهيونية ، وبين اولئك الذين يحاولون اقنـــاع الدول الغربية بكبح جماح الصهيونية التوسعية ، عن طريق اظهار صداقتهم بالتعاون مع الغرب في الحرب الباردة .

ومقـــابل تلك الافتراضات عن الحقيقة التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ، كانت هناك حقيقة حقيقية واحدة لم يتعرف اليها مبدأ ايزنهاور ، ولا ما يمت اليـــه بصلة في كل ما قيل أو عمل باسمه ، وهذه الحقيقة الجوهرية هي ان الصهيونية هي عدو العرب الرئيسي لا روسيا .

ولما كان مبدأ ايزنهاور قد اهمل اعتبار هذا العامل الحيوي ، فلم يكن هناك مجال لـكي يفهم الانسان ان العرب على اختلاف اتجاهاتهم السياسية ، كانوا يرون أن الصهيونية التوسعية ، تعتمد في آمالها التوسعية على حساب العرب ، على الولايات المتحدة قبل أية دولة اخرى . فقد ادت بريطانيـــا دورها ، واكملت مهمتها في خلق اسرائيل . ولقد تحطمت الآن قوة بريطانيا في الشرق الاوسط ، وجاءت امريـكا اليه تحمل في يدهـا مشروع ايزنهـــاور . وما لم يلق التوسع الصهيوني تأييداً من الشعب الأمريـكي ، فلن يستطيع تحقيق أي نجاح جديد . لكن هذا التوسع قد يلقى نجاحاً بتأييد امريكا ، وقد جاء مشروع ايزنهـــاور ليضفي على اسرائيل تأييداً ضمنياً ، دون ان يضطر الى اعلانه او اذاعته .

وكانت السياسات البريطانية على الاقل واضحة للعرب ، فقد انحى علينـــا القوميون العرب بالملامة لأننا مثلنا دور والد اسرائيل بالتبني . وكانوا يعارضون

نفوذنا ويعملون للخلاص منه . وكانوا يكرهون بصورة خاصة ، ذلك الاتجاه الميال الى اعتبار اسرائيل اداة ضدهم . وكانوا يستنكرون جهل حكومتنا لقوة عواطف الجيل العربي الجديد . ولكن لم يكن هناك في كل ما عملناه ، ما يصعب على تفهمهم . لكن الطريقة التي تقدمت بها الحكومة الامريكية في صورة مبدأ ايزنهاور ، بدت لهم مختلفة تمام الاختلاف في تفكيرها . فمنذ بدايته في هذه الطبقة الطخرورية (ستراتوسفير) من المطلقات ، اخذ المبدأ يخترق الطبقات الجوية التالية ، هابطاً ، من نفسه ، وعلى الطريقة التي اختطها هو ، عبر فكرة الشيوعية الدولية ، ليشير الى وجود هذا « الشر » في اية عاصمة عربية يختارها المستر دالاس ، عن طريق جهازه المكافح للشيوعية ليحكم على هذا البلد العربي او ذاك ، بأنه واقع تحت سيطرة ذلك « الشر » ، ثم ليقوم في قفزة واحدة خاطفة فيجتاز الطبقة الجوية الأخيرة ، وينقل الى ذلك البلد اهوال الحرب الآلية العصرية . وفي هذا الانتقال من مفاهيم « الاطلاقية » الى ميادين الصراع الفعلي ، تطويف حول جميع الحقائق الرئيسية التي كانت تقرر افكار العرب واعمالهم ، وهم الناس الذين وجه اليهم هذا المبدأ بصورة مباشرة .

وعلى الرغم من اختلاف الطريقتين البريطانية والامريكية هذا الاختلاف البيّن ، الا انهما كانتا تتجهان الى التلاقي في النقطة التي يظهر فيها رؤساء اركان الحرب على المسرح . وسواء أكان التفكير على الطراز الانكليزي ، مصوراً القومية العربية وقائدها ، على انها حركة فاشية او هتلرية ، او كان على الطراز الامريكي ، مصوراً اياها بانها شيوعية وستالينية ، فان التفكيرين ينتهيان الى اعتبار مصر وسوريا وعبد الناصر ، اعداء الغرب ، وسواء أكنت ملكياً في تفكيرك ، واستعمارياً في علاقاتك بالشرق الاوسط ، أو كنت جمهورياً ومعادياً للاستعمار (كالامريكان) ، فقد ظل الى جانبك في هذا الشرق ، نوري العراق ، وشمعون لبنان وحسين الاردن . ومهما كانت دوافع هؤلاء في الوقوف ضد عبد الناصر ، وسواء أرأوا فيه مستعمراً كهتلر او شيوعياً هداماً ، فقد كانوا ضده . وسواء ارأيت في القوة المسلحة ، اجراءً بوليسياً ضد العرب « الاشرار » الذين يقفون

في طريقك ، أو رأيت فيها سيف الحرية والديموقراطية المسلط على الاستعباد الشيوعي ، فان رجال الشرطة والسيف ، يجب ان يوجهوا في النهاية نحو نفس الاشخاص .

وفي تلك النقطة ، حيث يجب ان يكون العمل الفعلي او مجرد التهديد به ، فاذا قدر لما كانت تقوم به حكوماتنا من عمل ، ان يكون ذا طابع حقيقي مهم ، فقد كان من المحتم ان تصطدم الطريقتان البريطانية والامريكية ، بالحقيقة القاسية التي كانت تخفيها جميع نظرياتها ومفاهيمها وشعاراتها عن النظر . فهناك ، في نهاية الحلقة ، وعلى الارض نفسها حيث توجد البوارج والطائرات والدبابات والمدافع ، وحيث يجب ان تستعمل ، يجب ان يكون شخص يستطيع ان يشير اليها وان يكون هذا الشخص خائفاً من ان يلحق به الاذى منها . ومهما تحدثت عن هتلر والفاشية ، فلم يكن هناك في الشرق الاوسط جنود من النازيين الالمان ، او من الفاشيين الايطاليين ، خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، تستطيع ان توجه اليهم نيران مدافعك . كان هناك العرب ليس الا . ومهما كنت قد فكرت طويلاً بالشيوعية الدولية والستالينية ، فلم يكن هناك قط أي جنود روس في الشرق الاوسط لتوجه بنادقك اليهم ، بل كان هناك عرب لا غير . ومهما تحدثت عن الخير والشر ، والصواب والخطأ ، والحرية والعبودية ، والديموقراطية والديكتاتورية والنازية والشيوعية والفاشية أو اي شيء آخر ، فانك ان وجهت مدافعك الى العرب ، فان العرب جميعاً سيعترضون عليك . واذا ساندت فريقاً من العرب بالمدافع على فريق آخر ، فإن الفريق الذي ساندته سينقلب عليك مع الفريق الآخر .

وليس من الصعب ابداً ان تقسّم العرب الى فريقين . انهم كثيراً ما يختلفون بين انفسهم ، بسهولة وبصورة طبيعية ، وصاخبة . وهم لا يختلفون في هذا الصدد عن مجموعات الشعوب الاخرى التي تتحد ، عندما يجمعها شعور عائلي او مصلحة مشتركة ، تغدو مهددة من الخارج ، ولكنها قد تختلف داخلياً بين بعضها البعض عندما يكون الخطر الخارجي بعيداً . وما لا تستطيع عمله هو ان

تجزئهم على اسس انت ابتكرتهـــا وتخيلتها لهم . وهكذا فـأنت بتدخلك في القضايا التي يتفقون عليها ، تجعلهم يوثقون علاقاتهم اكثر واكثر في القضايا الـتي تريدهم ان يختلفوا عليها ، وتجزئهم في القضايا التي تريد منهم ان يتحدوا عليهـا . وقد حاول ايدن ان يفعل ذلك ولكنه فشل . ولما كان هو وحكومته يرون في عبد الناصر ، شخصاً كهتلر ذا مطامع توسعية ، فقد حاول ايدن ان يعمل ، وكأن العرب يرون في عبد الناصر ما يراه هو ، وكأن الدول العربية الاخرى متفقة معه ضد عبد الناصر ويسرها الخلاص منه على ايدي البريطانيين . ولـكن الجماهير العربية الغفيرة ، والقوميين العرب ، لم يكونوا يرون ما يراه ايدن ، أو ما قرر هو ان يروه عليه . ولم يكونوا يرون في عبد النـاصر الا محرراً لهم ، ولذا فان العمل الذي اتخذه ايدن قوّى شعورهم بالوحدة ، لأنهم رأوا في محاولة تفريقهم ، استهدافاً للاضرار بمصالحهم لا للإتيان بالمنفعة لها .

وها هي الحكومة الامريكية اليـــوم ، تقترف نفس الخطأ ، ولكن ضمن تعابير اخرى . فقد اخذت تقسم الدول العربيـة الى دول تفترض هي انهـــا شيوعية ، والى دول اخرى تفترض انهـــا ضد الشيوعية . وشرعت تفرض من نفسها تجزئة تضع فيهـــا القومية العربية والشيوعية في صف واحد ، والعداء للشيوعية والولاء للغرب في الصف المقابل . ولم تكن هذه التجزئة الجديدة اكثر قرباً للواقع من التجزئة التي وصل اليها ايدن . ولم يكن ثمة مكان في المعادلة الامريكية لانصار عبد الناصر ، الذين يعادون الشيوعية ، او لخصوم عبـد الناصر الذين يؤمنون بالحياد ؛ ولما كانت غالبية العرب في هذا الوقت من هـذا الفريق أو من ذاك ، فان مبدأ ايزنهاور اصبح عسيراً على افهامهم .

ولقد ارادت حكومتانا من العرب ان يتحدوا ضد روسيا وان ينقسموا تجاه اسرائيل . ولكن سياسة ايدن ومبدأ ايزنهاور ، قد جعلا العرب يتحدون ضد الاستعمار واسرائيل ، وينقسمون ضد روسيا . ولما كان مبدأ ايزنهاور يميل كسياسة ايدن الى تجزئة العرب حول قضية واحدة وهي الصهيونية التي ارادوا ان يتحدوا تجاهها ، فقد افترض العرب ان هذا الميل جزء من هدف مشروع

ايزنهــاور .

ولا بد ان يكون هناك سبب ، وهذا ما افترضه العرب ، يجعل ايزنهـاور ودالاس يعملان وكأن المصريين والسوريين قد شربوا الشيوعية مع المساعدة التي كانت روسيا تقدمها اليهم . وللامريكيين سفاراتهم ومنظمات مخابراتهـم في كل عاصمة عربيــة ، وفي المنطقة عدد لا يعد ولا يحصى من الصحفيين . ولا ريب في ان واشنطن وعواصم الغرب كلهـــا ، قد تلقت من كل جزء من الشرق الاوسط العربي ، والعراق واحد من هذه الاجزاء ، تقــارير منذ الوقت الذي تلقى فيه عبد الناصر العون من روسيا في عام ١٩٥٥ ، تقول ان القومية العربية حركة بورجوازية لا شيوعية ، وان العرب يريــدون مساعدة الدولة الروسية لا مساعدة شيوعيتها ، وان روسيا لم تكن حتى لتدفع بشيوعيتها اليهم . ولا ريب في ان ساسة الغرب قد تلقوا هذه التقــارير ، ولا ريب في أن الواجب كان يحتم عليهم ان يسروا بهـا ، اذ ليس من مصلحة الامريكان ان تكون القومية العربية ، ان حقاً وان باطلاً شيوعية .

فماذا كان يحدث لكل هذه التقارير عندما تصل الى واشنطن ؟ ولا ريب في وجود خطأ في انسياب هذه المعلومات ، بحيث كانت هناك سلسلة من التقــارير المعاكسة التي يجري « تطعيمها » في دوائر امريكا ، اذ لا يمكن ان يصدر مثل هذا التقييم المناقض للحقائق القائمة من الهواء . واذا كانت هناك تقــارير خاطئة يجري « تطعيمها » ، فلا بد من وجود من يخلقها ، ويلفظها ، ويدفع بهـــا الى التيار . ولا يمكن ان يكون هذا الا حزبــاً او فريقاً ، يكون من نصيبه الربح ، اذا قبلت الحكومة الامريكية هذه التقارير الخاطئة .

وكان هؤلاء الذين يمكن ان يربحوا ، هم اولئك الذين تخدم مصالحهم ، اذا وقفت الحكومة الامريكية كالحكومة البريطانية موقفــاً معادياً من القومية العربية كمجموع ، والذين كانوا يتــوقون الى رؤية الحكومة الامريكية تعمل كالحكومة البريطانية على تجزئة العرب ، على اسس خاطئة مصطنعة ، او تستثير تبعاً لذلك عداء العرب العام . ولا يرغب أي سياسي بريطاني أو امريكي ، عن وعي

منه وتقدير ، في استثارة عداء العرب العام ، فقد كان هدف السياسة الغربية كلها منذ سنوات كسب العرب كحلفاء واصدقاء في الحرب الباردة . وكان هناك مرشحان لأداء هذا الدور ، وهما روسيا والصهيونيون . ولم تكن لدى الروس وسيلة لإدخال التقارير و« تطعيمها » في سلسلة ما يرسل الى واشنطن من تقارير ، تحقيقاً لغايتهم في تأليب الامريكيين ضد العرب . ولكن الصهيونيين كانوا قادرين على ذلك ، وقد اثبتت التجارب الماضية قدرتهم ، تماماً كما حاول العرب ان يفعلوا في تأليب الامريكيين والغرب عامة ضد الصهيونيين ، مع وجود بون شاسع في الخبرة وفي وفرة الموارد بين العرب والصهيونيين .

ولم يكن ثمة شك لدى أي عربي سواء أكان ميالاً للغرب او من انصار الحياد ، أو من اتباع عبد الناصر ، أو من أعداء الشيوعية او من انصارها ، ان السياسة الصهيونية تقوم اليوم كما قامت في الماضي ، على ان تنشر في العواصم الغربية ، اي اتجاه دعائي ، يخلق الكراهية للقومية العربية في مجموعها ، ويؤدي الى تجزئة العرب بحيث تقوم الدول الغربية بمساعدة فريق من العرب ضد الفريق الآخر ، وتقضي بذلك على كل تأثير لها في مقاومة المطامح الصهيونية السياسية . وكان من نتيجة هذا ان رأى العرب وراء هذا التقدير الأمريكي الخاطىء كما رأوا وراء سياسة ايدن الخاطئة من قبل ، يد الصهيونية القوية والمقنعة ، تعمل في سبيل تحقيق اهدافها وضد مصالح العرب . ولما كان مبدأ ايزنهاور ، وكل ما عمل باسمه ، قد تغافل القضية الصهيونية ولم يكترث بالحقيقة الواقعة والقائلة بأنها هي المشكلة البارزة التي تحتل العقول العربية ، فقد اثار هذا المبدأ شكوك العرب . ولما كان المبدأ في حد ذاته قائماً تماماً كسياسة ايدن ، على اساس الحقيقة الخاطئة، فقد قضي على المبدأ بالفشل منذ بدايته تماماً كما فشلت سياسة ايدن .

وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلت ، فقد كان الرئيس اللبناني شمعون هو الوحيد الذي ارتبط بمشروع ايزنهاور ، مما اسفر عن نتائج داخلية ، سنقوم ببحثها ، فيما بعد . ولم يمض طويل وقت على كل حال ، حتى كنا نرى امريكا تطبق مبدأها ، واقعاً ان لم يكن مظهراً ، تأييداً للاردن ، ومعارضة لسوريا .

وكان حسين ملك الاردن ،مدفوعاً بحكومته التي انتهجت سياسة الحياد ، قد الغى المعاهدة الاردنية - الانكليزية في اذار عام ١٩٥٦ . وادى هذا الالغاء الى بقاء الاردن حراً عن الاحلاف والقواعد العسكرية الاجنبية ، ولكنه عرضة لمتاعب مالية خطيرة ، لأن البلاد لم تكن قادرة على الحياة اقتصادياً على المستوى الذي كانت تعيش فيه وألفته من جراء المساعدات المالية المباشرة وغير المباشرة . وتلقى الاردن وعوداً بالعون المالي من الدول العربية الاخرى ، ولكن هذه الوعود لم تحقق جميعها . وشعر حسين بحركات تستهدف عرشه . فقام بانقلاب معاكس في نهاية اذار عام ١٩٥٧ ، وطرد حكومة النابلسي ، وارغم بعض العسكريين المتطرفين من قادة جيشه على الفرار الى سوريا ، واختار حكومة من الجناح اليميني ، واعلن الاحكام العرفية ، وحلّ الاحزاب السياسية واغلق الصحف اليسارية والمعارضة .

واعلن الرئيس ايزنهاور في الرابع والعشرين من نيسان ، بانه يعتبر سلامة الاردن وكيانه ، هامين للولايات المتحدة ، واصدرت وزارة الخارجية نتيجة توصلت اليها بهذا الصدد طبقاً لمشروع ايزنهاور . وغدت الاردن ، طبقاً للتعريف الامريكي ،دولة تهددها الشيوعية الدولية . واعلنت حكومة اسرائيل ، انها تحتفظ لنفسها بحرية العمل ، اذا حاولت الدول العربية تقطيع اوصال الاردن ،وهذا لا يعني الا ان اسرائيل ستشترك في عملية تقطيع الاوصال ،بضم ذلك الجزء المعروف بالضفة الغربية اليها . ولما كان هذا الجزء قسماً من « ارض اسرائيل » التي نص عليها قرار بلتيمور ، الذي دفع به بن غوريون في المؤتمر الصهيوني لعام ١٩٤٢ ، ولما كان بن غوريون لا يزال رئيس وزراء اسرائيل فان العرب افترضوا ، بان اسرائيل لن تتردد في هذه التجزئة وفي اقتطاع هذا الجزء لنفسها .

وطار الاسطول السادس بسرعة البرق الى الشرق الادنى . ورست بواخر لنقل ، تحمل جنود البحرية على ظهرها في ميناء بيروت . وقام ما اسمي «باعظم قوة ضاربة تم حشدها في المتوسط الشرقي ، بمناورات دفاعية جوية في عرض

البحر » . وكان هدف الغرب حماية سلامة الشرق الاوسط من الشيوعية الدولية . وكان هـــذا يعني بالنسبة الى القوميين العرب ، ان امريكا لم تلجأ الى الأسلوب البريطاني المعروف في القيام بمظاهرة بحرية أو عسكرية ، عندما تود الحكومات العربية المستقلة ان تمارس استقلالها تماماً .

وعادت الحـكومة الاردنية الى حظيرة الغرب ، وقبلت عروض العون الاقتصادي من امريكا ، وطلبت من الحكومة البريطانية ان تسهم في هذا العون ايضاً . وكانت الحكومة الاردنية تحرص على الاشارة بان العون الامريكي ، غير مرتبط بمبدأ ايزنهاور ، لان مثل هذا الارتباط يجعل الاردن مرتبطة باهداف الغرب السياسية والاستراتيجية . وعلى النقيض من ذلك حاولت الحكومـــة الاردنية التظاهر بالتضامن الكامل مع الاهداف العربية .

ويتلخص الموقف الآن في ان الحكومة الامريكية كانت قــد قررت بان الاردن دولة تهددها الشيوعية الدولية ، وان القوات العسكرية الامريكية ظهرت في الميدان على استعداد لدفع هذا التهديد . ولكن ضد من ؟ ان مصر مرشحة نظرية ، ولكن لم يكن ثمة امكان معقول ، في ان تتحرك الجيوش المصرية عبر اسرائيل لغزو الاردن . ولم يكن التهديد المصري ، ان وجد ، ليتجاوز حدود الدعاية ، وهو ما لا تجدي معه البوارج والطائرات والتهديد العسكري المبـــاشر . وكانت سوريا هي المرشحة العملية الوحيدة لدور الدولة التي تتحكم فيها الشيوعية الدولية ، وفقاً لمشروع ايزنهاور ، والتي تهدد الاردن .

ولم يكن من المدهش والحالة هذه ان تستنتج الحكومة السورية ، بان المستر دالاس ، كان يريد زوالها ، لتقوم محلها حكومة موالية للغرب ، تماماً كما وقع في الاردن . واعلن السوريون في الثـالث عشر من آب اكتشاف مؤامرة امريكية لقلب نـظام الحكم في سوريا ، وطردوا ثلاثة من موظفي السفارة الامريكية في دمشق . وقد ثأرت امريكا لنفسها باخراج السفير السوري من واشنطن .

وبعد اربعة ايام . جرت حركة تطهير داخل صــفوف الجيش السوري ، وظهر القادة الجدد بمظهر الميل للشيوعية او لروسيا على الاقـــل . وقد فـزع

العراقيون بدلاً من ان يدهشوا . وكانت بريطانيا وفرنسا قد اعتدت على مصر في عام ١٩٥٦ لمصلحة اسرائيل الواضحة ، مما حمل عبد الناصر على الالتفات الى روسيا لطلب مساعدتها . وها هي امريكا تعادي الآن سوريا ، فيضطر السوريون الى الاتجاه نحو روسيا . وهل يمكن للانسان الا ان ينتظر مثل هذه النتيجة ؟

وكان الرئيس ايزنهاور يقول ان الطريقة السوفياتية معروفة ، وهي تقديم العون العسكري والاقتصادي ، والتسلل عن طريقها الى البلاد التي تتلقى العون بواسطة العملاء والوكلاء ، ثم تتسلم الزمام في البلاد . ولكن شكري القوتلي ، رئيس جمهورية سوريا ، اعلن في القاهرة ، ان ليس ثمة شيء من هذا القبيل ، وان سوريا مخلصة لمبادىء باندونغ ، وهي تعني الحياد ، وان حكومته لا تعتزم الاتجاه نحو الشيوعية .

ولكن القوة لم تكن في يدي شكري القوتلي او ايدي حكومته أو ايدي الشعب السوري ، لتقرير هذه الحقيقة . ان هذه القوة ، طبقاً لمشروع ايزنهاور ، وبالنسبة الى استخدام القوات الامريكية ، موجودة في يدي رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، الذي يقرر وفقاً لنصيحة وزير خارجيته ، ما اذا كانت سوريا واقعة او غير واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية ، وما اذا كانت سوريا تهدد او لا تهدد دولة مجاورة لها ، ومن هي الدولة المهددة التي تحتاج الى الحماية .

وكان المستر لوي هندرسون ، مبعوث الرئيس ايزنهاور قد اتم في مطلع ايلول ، جولة في عواصم الشرق الاوسط ، وعاد الى واشنطن ليرفع تقريره . واعلن المستر دالاس ، النتيجة التي توصلت اليها حكومته ، وهي انها تشعر بالقلق العميق المتزايد في الشرق الاوسط ، من جراء ازدياد السيطرة الشيوعية على سوريا ، واعرب عن امله في ان لا يدفع الشيوعيون الدوليون بسوريا الى أي عمل من اعمال العدوان ضد جيرانها ، وان يعمل الشعب السوري على تبديد المخاوف التي اثارتها الاحداث الأخيرة . ولم تكن هذه الكلمات لتعني بالنسبة الى العرب الا شيئاً واحداً ، وهو ان المستر دالاس يشجع الشعب السوري على الثورة

على حكومته . وقد يعني هذا في « قاموس » الغرب السياسي ، منع الشيوعية الدوليـــة من الانتشار ، ولكنه كان يعني بالنسبة الى العرب الروح الاستعمارية ولا شيء غيرها . ومهما نفت الحكومة الامريكية وجود مؤامرة لقلب الحكومة السورية ، فقد كان من الواضح ان المستر دلاس اراد ان يرى قلب هـــذه الحكومة تماماً كما اراد ايدن في الماضي قلب نظام عبد الناصر . وعنـدما بعثت امريكا في ذلك الوقت تقريباً بشحنة محمولة في الجو من اسلحتها الى الاردن ، وطبّلت لهذه الشحنة وزمرت ، اخذ العرب يفكرون ، ولهم كل الحق في هذا التفكير ، بان المستر دالاس ، ينوي ان يفعل شيئاً ضد سوريا الا اذا قام الشعب السوري بتغيير حكومته . وهكذا اتخذ المفهوم المطلق لمشروع ايزنهاور صورة عملية محدودة . فالنتائج التي تسفر عنها التحقيقات ، تصبح حقائق ، والمدافع التي ترسل الى الاردن ، توجه الى صدور السوريين العرب .

ولكن رئيس وزراء الاردن سارع الى نفي اي افتراض بأن سوريا تهدد الاردن ، أو بان الاردنيين سيحاربون السوريين ، وعاد يؤكد بان اسرائيل تؤلف الخطر الحقيقي على العرب . ولن تحارب دولة عربية دولة عربية اخرى . أما الاسلحة الامريكية فليست الا لأغراض الأمن الداخلي . واضاف ان الاردن يرحب بأي عون ، لا يـكون مشروطاً بمواثيق عسكرية او لا يقيد الحرية والاستقلال . وسرعان ما اصدر لبنان والعراق بيانين مماثلين . وكانت هـــذه البيـــانات دحضاً صريحاً لما توصلت اليه امريكا . فقد زعمت وزارة الخارجية الامريكية ان الدول العربية الاخرى تخشى العدوان عليها من سوريا ، وها هي هذه الدول تقول انها لا تخشى عدواناً من سوريا ، وانهـــا متحدة جميعاً ضد عدوها المشترك الوحيد وهو الصهيونية . وهكذا غدا العرب والامريكيون في حقل السياسات والاهداف يعملون في اتجاهين مختلفين كل الاختلاف من ناحيـة الحقائق . اما اذا جاء دور اطلاق النار ، فان المدافع الضخمة ستتحكم فيهـــا آراء المستر دالاس ، والنتائج التي توصل اليها ،سواء أكانت صحيحة او خاطئة .

وكانت آراء العرب ومخاوفهم واضحة كل الوضوح . ففي عام ١٩٥٦ ، قام

البريطانيون والفرنسيون بمهاجمة مصر ، بعد ان استخدموا هجوم اسرائيل على سيناء كذريعة . فهل هناك ما يحول في عام ١٩٥٧ ، دون قيام اسرائيل بتبرير ذريعة مماثلة ضد سوريا ، يتبعهـــا هجوم بريطاني – امريكي مشترك ، يستهدف احتلال سوريا لطرد الشيوعية الدولية وانقاذ السلام العالمي ، ووضع حكومة في سوريا تنفذ ما يطلب اليهـــا ، مع منـح اسرائيل بعض المـكاسب الاقليمية كمكافأة ؟ .. وكان كل ما تحتاج اليه امريكا وبريطانيا ، هو ان تتلقيـــا « طلباً بالمســاعدة » . ولقد وقعت حرب السويس ، وما زالت بريطانيا تصر على ان ما فعلته كان صواباً . وبدا ان الحكومة الامريكية ، أخذت تسير الآن على نفس الطريق . واذا كان هذا الاسلوب صحيحاً في عام ١٩٥٦ فلماذا لا يكون كذلك في عام ١٩٥٧ ؟

وفي الاسابيع القليلة الأخيرة من صيف عام ١٩٥٧ ، كانت هنـــاك موجة مفاجئة من الاجماع التعب ، بين جميع العراقيين على اختلاف مشاربهم السياسية . ويبدو انهم قد وصلوا الى نتيجة واحدة وهو ان هذا التمثيل الايمائي قد تجاوز حدوده .وكان تسلسل النشاط الغربي ، الذي يكرر نفس حلقة الاخطاء التي ادت الى تحطيم الاهداف المختارة ، قد ادى الى الكثير من الاضرار . وكانت صحف بغداد ، التي لا تزال تعاني من قيود الرقابة الثقيلة والتي كانت مضطرة الى اتخاذ نفس الخط الذي تتخذه الحكومة ، لا تنفـــك تصر على ان سوريا والعراق ، يؤلفان جزءين من العالم العربي ، ويجب ان يظلا صديقين . وقد شبع العرب من هذا التدخل الغربي الذي يرمي الى تجزئة العرب وضرب دولة عربية بأخرى . وكانت بريطانيا العظمى تساند العراق ضد مصر منذ عام ١٩٥٥ . وكان في وسع امريكا بموجب مشروع ايزنهاور ، ان تساند أية دولة عربية اخرى ، اذا وجد الرئيس ضرورة لذلك دون اكتراث بالحقائق ؛ وها هي امريكا تساند الاردن الآن ضد سوريا . ومضى الشعور العربي يصر على وجوب اتحاد العرب جميعاً ، بما ضمنهم اهل العراق لوضع حد لكل هذا .

وكان الأوان قد فات على تحقيق وحدة عربيـــة على اسس موالية للغرب .

فمصر وسوريا لن توافقا قط على ذلك . وكان من المؤكد ان العراق ولبنان والاردن وغيرها ، لن توافق حتماً على وحدة في اتجاه موال لروسيا . وكان الشيء الواضح هو وجوب الاتفاق على اساس من الحياد ، ونشرت صحيفة بغدادية يومية بارزة ، صورة كاريكاتورية في مطلع شهر ايلول تقول : « ان سوريا لن تسمح قط للسوفيات بتجاوز الحد ، وفزع الغرب لا يؤدي الا إلى مصلحة السوفيات انفسهم » .

وكتبت في رسالة بتاريخ الرابع من ايلول عام ١٩٥٧ اقول :

« ان الاتجاه الراهن للسياسة الامريكية يبدو في محاولة كسب عداء الدول العربية الأخرى لسوريا . ومثل هذا الاتجاه سيؤدي حتماً الى دفع سوريا اكثر واكثر نحو روسيا ، وسيجعل العلاقات بين سوريا والدول العربية الأخرى اكثر صعوبة ومشقة :

« وليس في وسع العراق خاصة ان يستمر في سياسة العداء لسوريا . ويبدو في جميع الصحف هنا ، اتجاه الى رفض العمل على هذا الأساس ، وهذا هو الشعور السائد عند الجميع . وتميل هذه الصحف الى رؤية خير ما في الموقف السوري ومحاولة تحسينه ايضاً . ويعلن الزعماء السوريون انهم ليسوا من الشيوعيين وانهم لا يعتزمون ان يصبحوا من الشيوعيين . ويسجل العراقيون هذه المشاعر ويدعمونها ، ويساندونها ، محاولين ان يجعلوا منها حقيقة واقعة . لكن السياسة الامريكية تبدو وكأنها تريد ان ترى اسوأ ما في الموقف السوري ، وتريد ان تحيله الى اسوأ مما هو عليه ، محاولة قلب العرب بعضهم ضد بعض . وقد فشل مشروع ايزنهاور من الناحية السياسية في سوريا ، وكان هذا منتظراً ومتوقعاً . ويبدو ان الأمريكيين يتجهون الى آخر الخنادق العسكرية تماماً كما فعل ايدن في الخريف الماضي ، ولكنهم سيفشلون ايضاً لعين السبب . ففي أي تحليل اخير ، سيقف العرب جميعاً الى صف سوريا . واذا كانت امريكا ستدفع بالأمور الى النقطة التي يهبط فيها الستار الحديدي فعلا

على الشرق الأوسط ، ففي وسعنا ان نتأكد من شيء واحد : ان هـذا الخط لن يقوم بين كتلتين من الدول العربية المتنافسة ،تقف اولاهما مـع الغرب ، وتكون ثانيتها تابعة للشرق ،بل ان هذا الخط سيقوم بين العرب كمجموع وبين اسرائيل ، وقد وقف الروس الى جانب العرب ، ووقف الغرب الى جانب اسرائيل .

« ومن المفـــروض في العراقيين ان يبحثوا عن قاعدة مشتركة مـع سوريا ، يستطيعون ان يجتمعوا معها على صعيدها . انهـم يبحثون الآن عن هذه القـــاعدة التي تقـوم في معـارضة مشتركة للغرب على اساس علاقاته باسرائيل ، وفي تباعد مشترك عن الشرق بسبب الشيوعية ،وفي استعداد مشترك ، للتعاون مع أي من الجانبـــين ، على اساس ذوق كل دولة من الدول العربية المعنية ، مع الاستعداد ايضـاً ليحترم كل جانب الجانب الآخر ، في اي اتجـــاه كان . وهذا يعني شيئاً واحداً ، هـو الحياد .

« وليس في وسع المواقـف الظاهرية التي تعرب عنها الحكومات العربية ، ان تعكس كل هذه الافكار . ولكنني اتحدث عن عـواطف الشعوب ، لا عن عواطف الحكومات » .

وكثيراً ما تساءلت ، ماذا يحدث لو قدر لهذا الموقف العراقي ان يتـوطد ويثبت ؟ لقد رأيت هذا الموقف ينعكس احياناً في بعض الصحف البريطانية . ولكني اشك كل الشك ، في ان يكون هذا الاتجاه ، قـــد حظي في وقت من الاوقات ، بتأييد الحكومتين البريطانية والامريكية . وكانت جميع الدلائل تشير الى ان هاتين الحكومتين لم تكونا تفكران الا بالزعماء العرب ، ولم تكونا قد ادركتا بعد ، ان هناك حركة حقيقية ، تقوم بين العرب كمجموع ، وهي حركة القومية العربية التي اساء الغرب فهمهـــا تمـام الاساءة . وكانت ترجمة الاصطلاح العربي تعطي انطباعاً خاطئاً . فالقومية بالنسبة الينا ترتبط ارتبـاطاً وثيقاً بالافكار الوطنية . انها شعور من التعلق والارتباط بالبلاد المحددة ، الـتي

تعيش فيها أمة . وكثيراً ما رأينا الصحف البريطانية تحاول القول بان ليس ثمة ما يدعى بالقومية العربية ، اذ لا توجد امة عربية ، أي لا توجد بلاد عربية واحدة تحت ادارة واحدة تحكمها حكومة واحدة . وتمضي هذه الفكرة المسيطرة على الانكليز في هذا الطريق ، فتصل الى النتيجة القائلة ، بان القوميين العرب الذين يتولى عبد الناصر قيادتهم ، يريدون تحويل الدول العربية كلها ، الى امة عربية واحدة ، يكون عبد الناصر ، رأسها وقائدها .

ومن هنا نبتت فكرة « الاستعمارية » . فالاصطلاح العربي الذي نترجمه الى « القومية العربية » ، لا يعني القومية بهذا المعنى . ان من الأفضل لو ترجمناه بالرعوية العربية او « التبعية العربية » . انه شعور « بالعروبة » . وليست لدينا في الانكليزية كلمة واحدة تعطي هذا المعنى . ولو كانت هناك كلمة تدعى « بريطانيّة » ، تشير الى الشعور الذي يجعل شعوب المملكة المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندة ، تلتم الى بعضها عندما تواجه خطراً ، فان هذه الكلمة ، تؤدي المعنى المقصود . ونحن لدينا انظمة حكم مختلفة ، ودساتير مختلفة ، ونحن منفصلون عن بعضنا ومستقلون ، ولا تربط بيننا الا تلك العرى الخفية من « البريطانيّة » والولاء للتاج . وعرب العراق يختلفون عن عرب سوريا ولبنان والاردن والعربية السعودية ومصر . ولكن شعور « العروبة » الذي يمت الى الروح لا الى الاقليم يربطهم جميعاً . وبعض هذا الشعور ديني ، وبعضه لغوي ، وبعضه يمت الى ما يدعى بطريقة الحياة . وعندما يكون هناك خطر ضد العرب كمجموع ، كخطر الصهيونية السياسية مثلاً ، فان شعور الأسرة الواحدة يربطهم . وعندما ينعدم هذا التهديد الموحد ، فان الخلافات العائلية سرعان ما تبرز .

وذهب الملك سعود الى سوريا ولبنان في مطلع شهر ايلول عام ١٩٥٧ محاولاً تهدئة المياه العكرة . واشترك معه في هذه الرحلة علي جودت الايوبي رئيس وزراء العراق ؛ ولقد ذهب الاخير الى دمشق في اول زيارة يقوم بها رئيس عراقي للعاصمة السورية منذ ثمانية اعوام . واتهمت تركيا بحشد قواتها على حدود سوريا . وهكذا كان في وسع الدعاية المصرية والسورية ، وكذلك الدعاية

الروسية ان تشير الى وجود الاسلحة الامريكية في الاردن ، والى وجود الاسطول الامريكي المرتبط باستنتاج امريكا بوجود الشيوعية الدولية في سوريا مما يهدد جيرانها . وأخذت تشير الى ان حشود القوات التركية تستهدف سوريا ، وتثير الشكوك الدائمة في مطامح العراق في سوريا ، وتتحدث عن التحالف بين بريطانيا وامريكا ، وعن الفكرة التي تسود عقول العرب جميعاً ، وهي انه في حالة وقوع اصطدام فاناسرائيل ستستغل الفرصة للتوسع . وظهرت في عقل كل عربي قومي صورة ثلاث دول من اعضاء حلف بغداد تقف ضد سوريا ، ومعها امريكا تتزعم الحملة ، وهي عملاً ان لم يكن قولاً ، عضو في حلف بغداد ايضاً . وكانت سوريا معزولة اقليمياً عن مصر في الجنوب ، وعن روسيا في الشمال ، وقد اتجهت المدافع اليها مصوبة من الاردن ومن الاسطول الامريكي السادس ومن تركيا والعراق ، ومن بريطانيا في قبرص ومن اسرائيل . وهكذا سارعت القوات المصرية الى النزول في سوريا . وجاءت بعض القطع البحرية الروسية تزور الموانىء السورية .

ودارت عملية تهوية شاملة ، تناولت القضية كلها في اواسط شهر تشرين الأول ، اثناء مناقشة جرت في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وخف التوتر الى حد ما . ومهما كانت معتقدات الزعماء العرب الموالين للغرب ، فان قوة الرأي العام القومي العربي ، كانت ملحوظة وواضحة . ولم يجرؤ أي من هؤلاء الزعماء، على ان يجهر بكلمة واحدة يؤيد مخاوف الغرب من ان سوريا تهدد جيرانها . وسواء أكان هؤلاء في المعسكر المصري أو في معسكر نوري السعيد ، أو كانوا كالملك سعود على الحياد بين المعسكرين ، فان الدول العربية اعلنت كلها انها تعتبر أي هجوم على سوريا ، هجوماً على الدول العربية كلها . واصدر الملك حسين مثل هذا الاعلان امام سفراء مصر والعراق ولبنان والعربية السعودية ، متعهداً بتعاون الاردن مع الدول العربية ، وبتأييدها . وهكذا التف انصار عبد الناصر وخصومه من ملوك ورؤساء مرة ثانية حول اهداف العرب الاساسية في الاستقلال والتحرر من التدخل الخارجي .

وهكذا تدخلت امريكا عسكرياً للمرة الاولى في شؤون الشرق الاوسط عن طريق مظاهراتها البحرية في شهر نيسان تأييداً لانقلاب حسين المعاكس ، وعن طريق ارسالها الأسلحة بالطائرات الى الاردن في شهر ايلول ، وتطبيق مشروع ايزنهاور بصورة محددة . وهكذا وضع القوميون العرب الآن سياسة امريكا وطريقتها الى جانب سياسة بريطانيا وطريقتها ، في فرض الاحلاف الدفاعية عليهم خدمة للمصالح الغربية ، وضد رغبات العرب الحيادية ، وفي تخفيف الضغط العربي عن اسرائيل . وبكلمة اخرى في اتجاهيها ، الاستعمار والصهيونية . وكان الفرق الوحيد ، بين السياستين في وجهة نظر القوميين العرب ، انه في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا سابقاً تؤيد نوري ضد عبد الناصر ، وكانت امريكا تقف بمنأى عن هذا التأييد ، انضمت الآن الى خطة بريطانيا الاستراتيجية تحت ستار مكافحة الشيوعية بدلا من مكافحة الهتلرية ، واخذت الدولتان تؤيدان معاً الآن : نوري العراق وحسين الاردن وشمعون لبنان . وانضمت الى الصراع عناصر أخرى؛ولكن كل ما حدث ، هو ان الشعور القومي العربي الكامن قد برز من جديد ضد المحاولة البريطانية - الأمريكية المشتركة لتجزئة العرب على اساس القضية الشيوعية ، وهو اساس غير حقيقي . مما جعل المحاولة تمنى بالفشل تبعاً لذلك . وخاض العرب الجولة الثانية . وبرهن ائتلاف القوتين البريطانية والامريكية في عام ١٩٥٧ على انه ليس باكثر فاعلية من ائتلاف القوتين البريطانية والفرنسية في عام ١٩٥٦ . لنفس الدوافع والاسباب الجوهرية .

وحدة واتحاد

لم تعجب الجهود التي بذلها علي جودت الأيوبي لتحسين العلاقـات بين العراق وسوريا ، والاتجاه الذي أخذ يسير فيه نحو الحيـاد ، اولئك العراقيين الذين لم يكونوا ليتصوروا قط أي تقارب مع عبد الناصر ، وكانت لهم اطماعهم في سوريا . وكان الشائع ان عبد الاله ، كان يقف في مقدمة هؤلاء . وكان يُذكر جهـاراً في كل مكان ان الأمير طامع في عرش سوريا . كما كان المعتقد ان نوري السعيد متفق معه في هذا الاتجاه ،كمحاولة يائسة لوقف توسع عبد الناصر وامتداده . واقنعت الحملة الدعائية البريطانية التي شُرع في شنهـا منذ تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ضد سوريا ، وتواطؤ نوري السعيد مع الحكومة البريطانية ، الـكثير من القوميين ، بأن ثمة تفكيراً في حركة «كماشة» عسكرية تستهدف سوريا ، يقوم بها البريطانيون من الغرب والعراقيون من الشرق ، وتؤدي في النهاية الى ضم سوريا الى العراق . وقد تقوّت هذه الشكوك والمخاوف الآن من جراء اشتراك أمريكا مع بريطانيا في حملتها ضد سوريا ، وهو الاشتراك الذي اوصل سياسة « حافة الحرب » الـتي يتبعها المستر دالاس الى قلب الشرق الأوسط . وكان أي نجاح يحققه علي جودت في ترقيع الأمور مع سوريا ، كفيلاً بأن يتعارض مع فرصة الإفادة من الموقـف المشترك الذي تتخذه بريطانيا وامريكا من عداء سوريا .

وكان العداء بين حكام العراق وبين الرئيس عبد الناصر ،على أي حال ،قد أوغل الى حد كبير ، بحيث تعذر معه أي تقارب أو تفاهم ، وكان التيار الشعبي المؤيد

لعبد النـــاصر في العراق ، قد وصل حداً ، جعل من المتعذر على نوري السعيد ، والعهد كله ، البقاء في العراق دون دعم من الغرب . أما وقـــد دخلت امريــكا عسكرياً الى الميدان الآن ، فان هذا الدعم اصبح أقوى مما كان عليه في الماضي . ولم يكن الوقت مواتياً من وجهة نظر حكام العراق ، للانتقال من الولاء للغرب الى الحياد . ولما كانت القومية العربية والحيـــاد يرتبطان بعبد الناصر الذي تكرهه الحكومة البريطانية وبالشيوعية في نظر الامريكان ، فقد غدت الطريقة الوحيدة بالنسبة لحكام العراق ، هي ان يوثقوا علاقاتهم بامريكا وبريطانيـــا ، وهذا يعني توثيق علاقاتهم بحسين وشمعون ضد عبد الناصر وسوريا .

ولم يكن من الغريب والحالة هذه ، ان نرى علي جودت يستقيل في الخامس عشر من كانون الأول عام ١٩٥٧ ، وان يتولى عبد الوهاب مرجان ، الذي كان رئيساً لمجلس النواب مدة طويلة ، رئاسة الوزارة . وكان هذا الرجل مستقيماً ، ومحترماً ولكنه لم يكن يتمتع بالمؤهلات اللازمة لهـذا المنصب . وكان من الواضح ايضاً ان حكومته ستكون انتقالية ، وان نوري السعيد سيعود الى الحكم عمّا قريب .

وأعلن الرئيس عبد الناصر والرئيس القوتلي في الأول من شباط عام ١٩٥٨ وحدة سوريا ومصر في الجمهورية العربية المتحدة . وبالطبع ، سارع الغرب الى اعتبار هذه الوحدة تعبيراً عن مطامح عبد الناصر التوسعية ، وخطوة اخـرى نحو الشيوعية ! أما الحقيقة ، فهي ان الوحدة كانت بحافز من الحكومة السورية نفسها ، وكان البعثيون يتولون زمامها ، وهم حزب اشتراكي وحدوي ، وليس بالحزب الشيوعي ، ويبـــدو ان الحافز الحقيقي للحكومة السورية في الاسراع بتحقيق الوحدة ، كان الرغبة في الحيلولة دون امتداد النفـوذ الشيوعي ، الذي كان الغرب يتهمها بتقويته .

وسارع العراق والاردن للرد على الوحدة في غضون اسبوع باقامة اتحاد ائتلافي (فيدرالي) بينهما . وتقرر اقامة برلمان اتحادي ، ورئيس وزراء ووزيري دفاع وخارجية اتحاديين ،لتدار شؤون الدفاع والخارجية من قبل الحكومة المركزية .

وتقرر ان يكون الملك فيصل رئيساً للحكومة الاتحادية وان يكون الملك حسين نائباً له . أما البرلمان الاتحادي فيضم عدداً متساوياً من ممثلي البرلمانين في البلدين . وتقرر ان تكون بغداد وعمان العاصمة الاتحادية بالتناوب .

فكيف يمكن لحلف بغداد ان يدخل في هذه الصورة ؟ كان هذا هو السؤال المهم . فلقد كان العراق عضواً في الحلف ، وكان الاردن قد رفض الاشتراك فيه . ووجد المخرج ، فالدولة الاتحادية ، تحترم الالتزامات الدولية القائمة بالنسبة الى كل من المملكتين . ولما كانت الحكومة الاتحادية في الوقت نفسه ، هي التي ستعنى بشؤون العلاقات الخارجية للبلدين ، وهي ليست عضواً في حلف بغداد ، فقد وجدت الآن على المائدة ورقة بيضاء جديدة . وستكون البعثات الدبلوماسية الأجنبية ممثلة لحكوماتها لدى الدولة الاتحادية . ولهذا فستكون العلاقات بين هذه الدولة وبين بقية انحاء العالم معزولة الى حد ما عن الاتصال المباشر بحلف بغداد . وغدا من الممكن ، اذا كان هذا ما تقرر بالفعل ، استغلال الوضع الجديد ، لازاحة الحلف عن طريق انعكاس اضواء المنافسات الدولية ، دون التخلي عن الحلف نفسه . ولما كانت الحكومة الاتحادية حديثة تماماً وغير متشابكة بأية احلاف اجنبية فانها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال وحرية الحركة والعمل . وبعث عبد الناصر برسالة تهنئة . وبدا الى وقت ما أن وضعاً جديداً قد ظهر ، بحيث تمكن تهدئة المنافسات العنيفة إلى حدٍ ما . ولا ريب في ان التجربة التي مرت بالامريكيين في سوريا ، والتي كانت تكراراً في شكلها ونتائجها لتجربة أزمة السويس ، على الرغم من عدم وجود عنصر العمليات الحربية الفعلية فيها قد اقنعت كلاً من البريطانيين والامريكيين بأن استمرار الضغط لفرض الاحلاف العسكرية ، كان لا يؤدي الى تحقيق اهدافه ، واذا كانت بريطانيا وامريكا قد اقتنعتا بذلك فعلاً ، فستحاولان ايجاد فرصة للعمل على تحقيق وسيلة جديدة .

وكان التحرر من النضال الخارجي ، اكثر ضرورة اليوم منه في أي وقت مضى ، اذ ان مهمة تنظيم الاتحاد الائتلافي ، وتسوية العديد من المشاكل ، المتعلقة بالقضايا الداخلية تتطلبان كل ما يستطيع نوري ووزراؤه توفيره من وقت .

وكانت الادارة كما رأينـــا في العراق تصر صريراً سيئاً ، بيـنما كانت القوى الاجتماعية ، تتحفز للوثوب بشكل منذر بالويل والشر . ومثل هذه المشـاكل تتطلب من نوري التركيز عليها ، ولكن الوقت لا يتوافر لديه .

وانتشرت في العراق اقوال تؤكد ان حكومة العراق ستدفع جميع نفقات الحكومة الاتحادية الجديـــدة ، وان الأموال من عائدات الزيت ستعطى الى الاردن ، وان المستفيد الرئيسي من هذا التطور ، هو الدول الغربيـة التي تركز نفوذهـــا الآن وتوطدت دعائمه . ولم يكن ثمة شك في ان المال سيكون من المشاكل الرئيسية . وعندما عاد نوري السعيد رئيساً للوزراء في الثالث من آذار عام ١٩٥٨ ، ليكون اول رئيس وزراء للاتحاد ، بـــذل جهوداً هائلة ، لضم الكويت الى عضويته . وعرض على الكويت ، حل جميع الخلافـات التي كانت قائمة بين البلدين حلاً كاملاً ، ومنحها الضمانات الكافية للبقاء دولة ضمن الاتحاد . وكان هو وزملاؤه واثقين من أن بريطانيا اذا وضعت نفوذها ، واقناعها ، فان الكويت سينضم الى الاتحاد . وكانوا يقولون باصرار ، ان الكويت اذا لم ينضم الى الاتحاد ، فليس ثمة أمل كبير في النجاح وفي بقـــاء الاتحاد . ولم تحـاول الحكومة البريطانية القيام بمحاولة صادقة لاقنـــاع شيخ الكويت بهذا الاتحاد ، بسبب مصالح الخزانة البريطانية في استثمارات الكويت المالية في لندن ، يضاف الى هذا ان شيخ الكويت نفسه ، لم يكن يرى انه سيربح الكثير من الانضمام الى الاتحاد وان كان سيخسر الكثير .

وسيتناول مجلس الاعمار بعض اعمال الانشاء والتنمية في الاردن . ولـكن العراقيين كانوا سيتأثرون حتماً من رؤية جزء من اموالهم يحول الى الاردنـيين . واقترحنا في المجلس إجراءً جديداً ، ويقضي هذا الاجراء باقـامة مصرف عربي للإعمار ، يسير على نفس الخطوط التي يسير عليها البنك الدولي للإنشاء والتعمير . ولعل اهمية هذا الإجراء الرئيسية ، هي انه سيحصر نطاق جهوده في المشاريـع « المصرفية » ، التي يمكن تقييم منافعها الاقتصـادية عن طريـق الدخل المقـدر لها ، مما يبرر تقديم القروض على اساسها واستيفاء فوائد تجارية منها . وكان في

وسع مثل هذا المشروع ان يؤدي الى نتيجتين مهمتين للغاية ، اولاهما ان الدول المسهمة في الرساميل ، ستستثمر اموالها بطريق تجاري صحيح ، مما قد يجتذب الكويت وغيرها من البلاد المنتجة للزيت ، والتي تبحث عن فائدة معقولة لاستثمار اموالها . كما يسهل المهمة على الاردن من الناحية السياسية ايضاً . أما النتيجة الثانية ، فهي تعني انه لن يكون هناك صلة مباشرة ، بين الدولة التي تتسلم المال والدولة التي تدفعه ، ، ولا يكون هناك مجال لأية منّة سياسية بين الدافع والقابض . وسيتناول الدافع جائزته على شكل فائده مالية تجارية كأي مستثمر مالي ، كما سيدفع القابض هذه الفائدة كأي مقترض عادي .

ومثل هذا المشروع كفيل بان يوفر الفرص السياسية والمالية للدول الصديقة من خارج منطقة الشرق الاوسط ، لتقديم المساعدة التي تشاؤها . وقد نص في مسوّدة مشروع المصرف على ان في وسع الدول الأجنبية ان تمنح او تقرض او تكفل او تبتاع سندات ذات فائدة من هذا المصرف . وكلما كثر عمل هذا المصرف ، اشتد وقوي وقد خيل للكثيرين منا في ذلك الحين ان روسيا اذا آثرت ان تزيد في موارد هذا المصرف بطريق او بآخر ، ففي هذا الخير ، كل الخير ايضاً .

وانتهى اجل تعاقدي مع مجلس الإعمار في بداية شهر نيسان . وطلب الي نوري السعيد ان اظل سنة أخرى . وكنت قد قررت القبول ، وابلغت اصدقائي العراقيين انني اذا طلب الي تمديد البقاء سنة اخرى ، فسألبي هذا الطلب ، شريطة ان لا يثير اي خلاف سياسي ، يفقد خدماتي تأثيرها وفاعليتها . وعندما حانت الساعة بدا لي ان هذا الشرط لن يتحقق . وبدا لي على النقيض من ذلك ، ان اعادة تعييني ، ستستغل ضد نوري السعيد كدليل آخر على ميوله البريطانية واعتماده على بريطانيا . وهكذا قبل ان ينتقل الموضوع الى نقطة الصراع وراء الكواليس ، طلبت الإذن من نوري ، لاستخدام حقي في الخيار وانسحبت .

وغادرت العراق ، قبل ان تبدأ الأزمة النهائية في لبنان والاردن ،

وهي الأزمة التي تمخضت عنها ثورة العراق . وبدا لي في ذلك الوقت ان السياسة المثلى هي في توجيه جميع مجالات نشاطنا الى المهمة الضرورية والمعقدة ، في جعل الاتحاد بين عمان وبغداد يعمل من نفسه ، مع تأكيد ضروري على تنظيم الادارة الداخلية والماليـــة ، والشؤون الاقتصادية والإعمار ، وعلى استغلال ايماءة عبد الناصر الودية ، الى اقصى حدود الاستغلال للتفاهم مع الجمهورية العربية المتحدة ، واقامة بنك الإنشاء العربي في اسرع وقت ممكن كوسيلة لاجتذاب العون المالي ، دون اية ارتباطات او اشتراطات .

وكانت هناك الآن طريقة اخرى ، للتطلع الى الوضع بعد ان اتحدت مصر وسوريا ، وتوحّد العراق والأردن . لقد بدا ان هذا التجميع المضاد على لوحة شطرنج الشرق الأوسط ، لم يكن الا استعداداً لجولة ثانية في الصراع للتخلص من الرئيس عبد الناصر ، اذ ان التركيب الجديد ، يعطي للاتحاد الائتلافي بـين العراق والاردن بعض المزايا الجديدة من جغرافية وسياسية .

وادت الوحدة والاتحاد الى تبدل جذري في سلسلة الأحلاف الدوليـــة في الشرق الاوسط . فقيام اتحاد ائتلافي موال للغرب بزعامة نوري السعيد ، انشأ جسراً من حدود لبنان الى خليج البصرة ، مع رئيس كشمعون موال للغرب في لبنان . وهكذا قـــامت على الطريق الاستراتيجي المهم من البحر الابيض المتوسط الى الخليج ، ثلاث دول متتاخمة ومتقاربة ، اولاهـا العراق المنضمة الى حلف بغداد الذي تدعمه الآن تمام الدعم امريكا وبريطانيـا ، وثانيتها لبنـــان المنضوي الى جناح مشروع ايزنهاور وثالثتها الاردن المنضم الى جناح المساعدات المالية والعسكرية الامريكية . وكان هـذا النطاق الموالي للغرب ، يقع بـين اقليمي الجمهورية العربية المتحدة ، ويفصل بينهما جغرافياً ، كما تفصل اسرائيل الممتدة بين البحر الابيض المتوسط وخليج العقبة بين مصر والاردن .

وهكذا امتد اشراف نوري السعيد الآن الى حدود اسرائيل ، وهي حقيقة جديدة ذات اهمية بالغة . فالعراق لم يوقع قط أي اتفاق للهدنة مع اسرائيل في عام ١٩٤٩ ، وكان لا يزال من الناحية الشكلية في حالة حرب مـع اسرائيل .

ولكن اسرائيل ، لم تثر ازمة هذه المرة ، كالأزمة التي اثارتها في عام ١٩٥٦ عندما بحث موضوع التعاون العسكري بين العراق والاردن أو تلك التي اثارتها في عام ١٩٥٧، عندما اشتدت أزمة سوريا .

ولم يكن قد وقع أي تبدل في الحدود باستثناء فلسطين منذ اربعين عاماً . وكانت هناك عدة مشاريع اتحادية ، اهمها حلم نوري السعيد في قيام الهلال الخصيب الذي يضم الاردن وسوريا والعراق . ولكن هذه الأحلام لم تتحقق . أما الآن فقد اتحد طرفا الهلال الخصيب وباركت الدول الغربية هذا الاتحاد . وكانت هناك سوريا في الوسط ، منفصلة جغرافياً عن مصر شريكتها في الوحدة ، وموسومة بوقوعها تحت سيطرة الشيوعية في رأي الحكومة الأمريكية . وحلمت الآن بريطانيا وامريكا ، باستكمال الهلال الخصيب ، في الاتحاد الموالي للغرب ، عن طريق المرحلة الحاسمة في صراعها المقبل مع الرئيس عبد الناصر .

وسمعت في بغداد جهاراً في الأسبوع الذي سبق مغادرتي لها في التاسع من ايار عام ١٩٥٨ ، من يتحدث عن الوحدة بين مصر وسوريا ، فيصفها بانها « مصطنعة » ، وانها لن تعمر طويلا . ولم تكن مثل هذه الأقوال إلا ايحاء بان العراق على استعداد للقيام بدوره في فصم هذه الوحدة وابعاد سوريا عن مصر . وكانت مشكلة الحدود التي ثارت بين مصر والسودان في هذه الآونة ، مبرراً لشن حملة دعائية جديدة ضد الرئيس عبد الناصر ، وضد ما اسموه بأحلامه التوسعية . وأخذ الصراع يشتد من جديد . وقد حمي وطيس الأزمة ، من جراء التثبت من أن الكويت غير عازمة على الانضمام الى الاتحاد . وكان أصدقاء نوري السعيد يكررون القول دائماً ، بانه اذا لم يقع مثل هذا التطور ، فليس ثمة كبير أمل في النجاح . وكانت المرارات بين العراق ومصر وسوريا قد وصلت الآن الى حد ، غدا معه الاصلاح امراً متعذراً إلا اذا وقع تطور جذري . ولكن كان هناك شيء مؤكد واحد ، وهو ان حكومة ستقوم في العراق إن عاجلا وان آجلا ، تتبع سياسة الحياد . وفي بحر القومية العربية الذي غمر الآن

الشرق الأوسط بكامله ، كانت هنـــاك ثلاث جزر صغيرة ، أولاها في العراق ، يقوم فوقها القصر الملـــكي الذي يحيط بـــه نوري السعيد وجماعته ، وثانيتهـــا في لبنان وفوقها قصر شمعون ،وثالثتها في عمان وفوقها قصر الملك حسين . وقد ضاعت الفرصة ، للانتباه الى الأوضاع الداخلية المتردية ، والتفاهم مع حقائق العلاقـات الخارجية ، فقد أصرت بريطانيا وامريكا ، على شيء واحد ، يجب ان يسبق كل شيء ، وهو ان تتخلصا من الرئيس عبد الناصر .

تجزئة وخسارة

وصلت الأزمة التي نشبت في لبنان في ايار عام ١٩٥٨ الى شفير الحرب الأهلية في حزيران . واتخذت هذه الأزمة على المسرح الدولي ، الشكل الذي بتنا نعرفه الآن خير معرفة .

وكان لبنان منقسماً بحكم أوضاعه الداخلية التي تختلف تمام الاختلاف عن أوضاع العراق والأردن . فسكان لبنان يكادون ينقسمون الى عدد متساو من المسلمين والمسيحيين . وقبل سنوات عدة اتفق زعماء لبنان على « ميثاق وطني » يفرض الوحدة الوطنية على اللبنانيين ، ويحظر الاستعانة بالنفوذ الأجنبي في حالة وقوع مشاكل طائفية . واذا خولف هذا الميثاق ، فقد تثور النعرات الطائفية ، ويلقى المسلمون تأييداً من سوريا ومن العالم العربي عامة ، ويتعرض لبنان للخطر . وعندما وقعت أزمة السويس ، كان مسلمو لبنان اكثر حماسة ضد بريطانيا وفرنسا ، وواجه الرئيس شمعون مصاعب بالغة في تجنب قطع علاقاته معنا . ولكن الشعور القومي العربي في لبنان ظل يلاحقه . فعندما نودي بمشروع ايزنهاور في ربيع عام ١٩٥٧ ، بدا للعرب ، كما قلنا من قبل ، انه يستهدف سوريا ومصر . ورأى القوميون العرب في لبنان ، في قبول شمعون بالمشروع ، مخالفة صريحة للميثاق الوطني ، اذ ضمن نصرة الأمريكيين ضد القومية العربية وسوريا .

وكان الملك حسين قد تولى دور القيادة القومية في الاردن ، عندما طرد

الفريق غلوب في آذار عام ١٩٥٦ ، فغدا بذلك الزعيم الوطني في بلاده . لكن حركة الجيل الصاعد من القوميين العرب ، كانت اجتماعية بقدر ما كانت سياسية . وكانت جمهورية في طابعها ، اذ انها تمثل الطبقة المهنية الاختصاصية من ابناء العالم الآلي الحديث ، التي تقاوم المبادىء الارستقراطية لمجتمع الماضي البسيط ، من زراعي ورعوي . وكانت المملكة الأردنية قد ضمّت ما تبقى من فلسطين ، وضمّت معها عدداً كبيراً من الفلسطينيين ومعظمهم من المثقفين ثقافة غربية عالية . ولم يمتزج اهل الضفتين بسرعة . وبعد فترة من الترابط الوثيق مع مصر وسوريا ، طلع الملك بانقلابه المعاكس في نيسان عام ١٩٥٧ ، ليتبعه احتضان امريكا له فوراً . وعندما وقعت الأزمة اللبنانية في ربيع عام ١٩٥٨ ، كان حسين يعتمد في الداخل على القبائل في وجه معارضة من القوميين المثقفين ثقافة غربية ، وفي الخارج على أموال امريكا وسلاحها .

وهكذا كان شمعون لبنان وحسين الاردن ، مرتبطين ارتباطاً صريحاً بالسياسة الامريكية ، التي حدث وكانت منسجمة تماماً مع السياسة البريطانية في استهدافها الاطاحة بعبد الناصر ، وتقوية نوري السعيد كالزعيم العربي في الشرق الأوسط مع شمعون وحسين . وكانت القوات البريطانية لا تزال ترابط في قبرص ، وكان الأسطول الأمريكي السادس في البحر الأبيض المتوسط . وكانت اسرائيل مستعدة لعدوان دفاعي آخر ، لاقتطاع أجزاء جديدة من « أرض اسرائيل » . وكانت الحرب الدعائية بين العراق والجمهورية العربية المتحدة ، قد بلغت ذروتها في المرارة ، ووقف نوري وحسين وشمعون في جانب ، وعبد الناصر في الجانب الآخر .

وكانت الاتهامات المتبادلة على غرار تلك التي استعملت ابان ازمة السويس في عام ١٩٥٦ وأزمة سوريا في عام ١٩٥٧ . وكان البريطانيون والامريكان يتهمون الجمهورية العربية المتحدة والروس بمحاولة تهديم الحكومة اللبنانية لضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، وتحويل دول الشرق الأوسط ، الى وضع الدول الشيوعية التابعة ! أما الجمهورية العربية المتحدة وروسيا ، فكانتا تتهمان

البريطانيين والأمريكان بالبحث عن ذريعة للتدخل المسلح ، لفرض سيطرتهم ، وتحويل الدول العربية كلها الى دول تابعة للغرب .

وكانت القضية الحاسمة ، في أية مرحلة من المراحل التي تعدو نطاق الحرب ، قضية سياسية مجردة ، وهي : ماذا سيكون رد فعل شعوب لبنان والاردن والعراق ؟ كان هناك اقتراحان تواصل الدعاية قرع آذان افراد هذه الشعوب بهما وهما :

ا – ان زعيم القومية العربية – الشيوعية ، عبد الناصر ، يريد احتلال لبنان والاردن والعراق ، وطرد شمعون وحسين ونوري والعهد الهاشمي ، وتحويلكم جميعاً الى اتباع شيوعيين في ظل ديكتاتورية روسية !

ب – ان الخطة البريطانية – الامريكية للتدخل العسكري ترمي الى الحفاظ على اتباعها من امثال نوري وشمعون وحسين ، وقلب النظام في سوريا ، واضافتها الى اتحاد الاردن والعراق ، وتهيئة الستار للتوسع الصهيوني .

أما الصيغة الأولى فلم تكن تعني كثيراً الى الجماهير العربية اذ ان عبد الناصر ليس بالشيوعي ، ولا القومية العربية بالشيوعية ، أو بالمستشيعة ، فعبد الناصر هو زعيم الحركة الشعبية المناهضة للاستعمار وبطلها ، ولما كانت روسيا قد ساعدت العرب في قضية قناة السويس ، فقد اعتقد العرب ان التدخل الروسي هو الذي ارغم ايدن على وقف تدخله . وكانت الصيغة الثانية اكثر تقبلاً الى الجماهير العربية لأنها تمت الى الحقيقة . وقد تدخل البريطانيون والفرنسيون بقوة السلاح في عام ١٩٥٦ للخلاص من عبد الناصر ، وتمكنت اسرائيل من الاستيلاء على بعض الاراضي العربية بتأييد من بريطانيا وعون من فرنسا . وقد حصلت الحكومة البريطانية على اقتراع بالثقة من البرلمان الانكليزي على ان سياستها في السويس كانت صحيحة وعلى صواب . وهل كان هناك ما يدعو الى الشك في ان قراراً قد اتخذ الآن وراء الكواليس لغزو سوريا ، على ان تمثل اسرائيل الدور نفسه الذي

مثلته في عام ١٩٥٦ ؟

وكان سياق الحوادث يسير تماماً الآن كما سار في الماضي . وكانت زبدة الاتهامات المصرية والروسية ان الحكومتين البريطانية والأمريكية تعدان العدة لتدخل عسكري استعماري . وهكذا جاءت الاعدادات العسكرية الفعلية دليلاً على صحة هذا الاتهام . وكان في وسع الحكومتين البريطانية والامريكية ان تقنعا الرأي العام في بلديهما بأن نواياهما دفاعية مجردة ، وانهما تعدان العدة لمواجهة العدوان من الفريق الآخر . ولكن لم تكن جماهير الناخبين في امريكا وبريطانيا ، هي التي ستقرر ما اذا كان العرب سيقفون الى جانب شمعون ونوري وحسين ضد عبد الناصر أو العكس . انهم الناخبون العرب الذين سيحزمون الرأي لأنفسهم . وهكذا غدا واضحاً ، وضوح قاعدة من نظريات اقليدس ، انه كلما واصلت امريكا وبريطانيا اتباع سياستهما ، ازداد ميل العرب الى عبد الناصر ؛ وكلما تبنينا قضية شمعون ونوري وحسين ، كلما ابدينا للعرب ، عزمنا على الحفاظ عليهم بقوتنا المسلحة ، لنؤمن لأنفسنا ذلك الجهاز من النفوذ الذي يرغم الدول العربية على ان تعمل ما كنا نريد منها ان تعمل في وضع شبه استقلالي .

وكان الضغط القومي العربي في لبنان والاردن والعراق ، ينمو بازدياد بحافز الدعاية الشديدة المسلطة عليه ، والتي كان لها تأثيرها تماماً ، لصحتها ، وذلك لأن امريكا وبريطانيا قد اعتبرتا فعلاً القومية العربية خصماً لهما ، ووصمتاها بالشيوعية . وعندما كانتا تهاجمان القومية العربية كفكرة مطلقة ، كانتا تهاجمان كل فرد عربي يؤمن بانه قومي ، وبأنه من دعاة الحياد . وكان الرأي العام في امريكا وبريطانيا يرى ان حكومتيه ، تدافعان عن الحرية والديموقراطية ضد العدوان الشيوعي . أما بالنسبة الى الرأي العام القومي في العالم العربي ، فانهما كانتا تستخدمان شمعون وحسيناً ونوري ، بدعم القوة العسكرية المسلحة ، للحفاظ على الحالة شبه الاستقلالية التي كان العرب يحاولون الخلاص منها منذ اربعين عاماً .

ويمكن تمثيل الوضع على الشكل الآتي : ان الضغط القومي المتزايد يهدد القصور الملكية والجمهورية . وهذه القصور تقترب شيئاً فشيئاً من الحلف

البريطاني – الامريكي ، وتقف الى جانبنا في مواجهة شعوبها . وكلما ازدادت مساعداتنا لها جهاراً ، كلما بدت بوضوح مطيعة لإرادتنا ونوايانا ، بحيث تتسع الهوة بينها وبين شعوبها ، ومع اتساع هذه الهوة يضعف مركزها ، فتشتد الحاجة الى زيادة مساعداتنا ، وتشتد المعارضة تبعاً لذلك . وفي مثل هذه اللحظة الحرجة ، تعلن اسرائيل حقها في حرية العمل ، اذا سيطر القوميون ، وحرية العمل هذه تعني غزواً « دفاعياً » جديداً ، لاحتلال قطعة جديدة من « ارض اسرائيل» ، والاحتفاظ بها . مما يقوي تصميم العرب القومي الذي يرى في موقف هذه القصور تأييداً للمطامع الصهيونية .

ولا يختلف هذا الوضع عما كان عليه في الماضي ، باستثناء ان بريطانيا لم تعد وحدها ، بل انضمت اليها امريكا . وان شمعون وحسيناً قد انضما الى نوري السعيد ، وان مصر وسوريا غدتا في دولة واحدة .

وهناك فرق مهم آخر ، يجب ان لا يفوت النظر . ففي عام ١٩٥٦ ، اضطر نوري السعيد الى التحدث بلسانين ، مما يرمز الى عدم شعوره بالطمأنينة . فهو من الناحية الرسمية ، مضطر الى الوقوف جنباً الى جنب مع القوميين ضد الاستعمار والصهيونية ، والى تأييد حق عبد الناصر في تأميم شركة قناة السويس ، والى اظهار العطف على عمل عبد الناصر في طلب السلاح من روسيا للدفاع عن بلاده ضد نوايا اسرائيل في الغزو والسيطرة . ولكنه في السر ، يشجع ايدن على المضي في طريقه للإطاحة بعبد الناصر . أما الآن وفي ربيع عام ١٩٥٨ ، فان نوري السعيد وحكومته ، يتهمان عبد الناصر جهاراً ، بانه اداة في ايدي الروس ، ويعلنان ارتباطها ببريطانيا وامريكا ضد الجمهورية العربية المتحدة . ويحلم نوري السعيد عن طريق دعم السياسة الانكليزية – الامريكية المشتركة ، ودعم قوتها العسكرية ، في فصل سوريا عن مصر ، وتحقيق الهلال الخصيب الذي يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدول الغربية . وهكذا القي قفاز التحدي .

وكان القوميون العرب يرون ان سوريا مهددة الآن بخمسة اخطار حقيقية

تتصل بسبع دول ، هي تركيا والعراق ولبنان والاردن واسرائيل وبريطانيا والولايات المتحدة ، بالاضافة الى ان الدولتين الاخريين في حلف بغداد .

وجاء نوري مسرعاً الى لندن في اواسط حزيران عام ١٩٥٨ . وقد اوضح الهدف من مجيئه ، في مقابلة صحفية جرت مع التايمس اللندنية في السابع والعشرين من حزيران . كان حديثه نداء مقنعاً الى بريطانيا وامريكا بالتدخل العسكري . وكتب اللورد بيردوود مؤرخ حياته يقول : « في وسعنا ان نفترض أن الاطاحة بالحكم القائم في سوريا ، والاستعاضة عنه بحكومة تتحد ائتلافياً (فيدرالياً) مع العراق وايران ، كانت من اهداف الحركات العسكرية التي كانت قيد التفكير آنذاك » .

وقد حسر النقاب عن اشياء كثيرة منذ ذلك الحين ، ولكنني اقتصر في حديثي في هذا الكتاب على الوقائع كما حدثت وعلى المعلومات كما توافرت . ولم يكن ثمة شك في الطريقة التي سيفسر فيها العالم العربي هذه المقابلة الصحفية التي جرت لنوري السعيد مع صحيفة التايمس في السابع والعشرين من حزيران ، فلقد جاء الى لندن ، يحدوه الأمل بالقيام بهجوم عسكري مشترك ، تسهم فيه امريكا وبريطانيا والعراق ، لفصل سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ، والإطاحة بنظام الحكم القائم في سوريا ، وخلق الهلال الخصيب في ظل العرش الهاشمي ، وظل الحكم البريطاني غير المباشر تبعاً لذلك .

وكتبت في رسالة بعثت بها في السابع والعشرين من حزيران اقول :

« يبدو حديث نوري السعيد للتايمس « اللندنية » ، وكأنه صرخة يائس . مسكين نوري ! لقد مر هناك وقت ، قبل سنتين تقريباً ، عندما كان القيام بعمل حازم تجاه تسوية قضية اسرائيل أو تجميدها ، بحيث يلعب نوري دوراً قيادياً في هذا العمل ، كفيلاً بان يوطد اقدام نوري والعراق في وجه عبد الناصر ومصر . ولكن هذه الفرصة ضاعت منذ عهد بعيد . ويرى حتى اكثر اصدقائنا اخلاصاً لنا بين العرب اليوم ، اننا إما ان نكون في انكلترا وامريكا ، قد وقعنا في قبضة الصهيونية

الآخذة بخناقنا ، او اننا نريد سراً من اسرائيل ان تقوى على حساب العرب ، وان تكون تهديداً دائماً نلوح به ضدهم . وكنا نربت على كتف نوري ، ونطريه ، ونساعده في كل شيء ، إلا في الشيء الوحيد الذي كان في وسعه أن يدعم مركزه . ولم يبق لنا الآن بين العرب ، الا قلة من الاصدقاء اذا استثنينا اولئك الذين يحثوننا على ان نكون حازمين ، لأنهم يرون ان الحزم هو الورقة الوحيدة الباقية في ايدينا . وفي وسع هؤلاء ، ان يناقشوا انفسهم ، بأننا اذا كسبنا في جولة الحزم هـــذه ، كانت النتيجة خيراً لهم ، اما اذا فشلنا ، فاننا نحن الذين سندفع الثمن ، أما هم ، فقد دفعوا بكل ما لهم الى دار الأمان في الخارج . وهم دائماً يقفــون الى جانب الحزم .

« وكان الشيء المحتمل الوحيد ، لنجاح فــكرة التــدخل العسكري في سوريا ان يكون السوريون قد ملوا شراكتهم مع المصريين واصبحوا على استعداد للانفصال عن الجمهورية العربية المتـحدة ، في حــالة تــدخل العراق عسكرياً . ويقول العراقيون من رجال اليمين ، ان السوريين قد ملوا من المصريين ومن الجمهورية العربية المتحدة . ولكنني لا اصدق هذا هذا القول ... فجميع الانباء الواردة من لبنان تؤكد ان الشعور السائد في سوريا ضد التدخل ، ويؤيد الحياد ، وهو ما يعني بالنسبة الى العرب جميعاً ، ان لا يكونوا تابعين لأحد ، وان يكونوا احراراً في ان يعيشوا الحياة التي يريدونها .

« والعراق وسوريا ولبنان (ولا اقول شيئاً عن الاردن) ، متواكلة بعض على بعضها اقتصادياً وتجارياً ، بحيث لا تستطيـع العيش في ظل عداء يسيطر عليها . وعلى هذه البلاد اما ان تكون كلها موالية للغرب او محايدة أو موالية للشرق . وعندما تم تـأليف الجمهورية العربيـــة المتحدة ، بدا وكأن الحاكمين في العراق ، قد حزموا امرهم على القيــام بمغامرة في سوريا لفصلها عن الجمهورية العربية المتحدة ، ومضوا في طريق

التنفيذ . وقد اشتركت الدول الغربية كلها في هـذه المغامرة ، ولا سيما بعد ان وقع الانفجار في لبنـــان . ونحن لهذا نتبع سياسة « فرق تسد » ، وقد جعلنا نوري وشمعون وحسيناً في جانب ، ضد عبد الناصر في الجانب الآخر . ولكن الشعب العربي يرفض تجزئتنـــا ، ويرفض حكمنا . واني لأخشى ان ينهـــار الرجال الذين ندعمهم تحت وطأة العبء ، اذ لا يمكن المضي في الاعتماد على دمى ، اذا كان الرأي العام يقف في الجانب الثاني . وعلينا إن عاجلاً وان آجلاً ، ان نصل الى تفاهم مع « الحياد » . وما لم نفعل ذلك ، فلن تكون هناك اسس نستطيع ان نقيم عليها علاقات عملية ، وان نحافظ فيها على مصالحنا » .

وقرر نوري السعيد ان يرسل قـواته عبر الصحراء الى الاردن . وفي وسعنا ان نفترض ، انه اعترم المغامرة بكل شيء في مقامرة عسكرية ، املاً ، في ان يسرع الامريكان والبريطانيون الى مساعدته ، عندما تحين ساعة الجد . وهكذا قرر الحرب ، او لا شيء غيرها . ولكن الزعيم عبد الكريم قاسم ، قائد هـذه القوات ، انحرف في طريقه الى بغداد فقلب العهد القائم ، واعلن الثورة ، وقيام حكومة ثورية . وانتهى العهد الهاشمي وانتهى معه نوري السعيد .

وفوجىء العالم الغربي ، بهذا التطور ، وسارعت الحكومة الامريكية الى تفسيره ، على انه قضية نموذجية من التدخل الشيوعي من الداخل . واتجه الرأي العام البريطاني في نفس الاتجاه ايضاً . ففي ايام « السويس » ، كان عبد الناصر في رأي التعابير الايدنية هتلراً ، وكانت القومية العربيـة نظرية عنصرية على غرار النازية ، أما الآن فقد تحول هتلر الى ستالين في تعبير الجناح اليميني البريطاني ، وتحولت القومية العربية من النـازية الى الشيوعية ، وجهازها السري يعمل في الداخل . وكان نوري يؤيد هـذه الاسطورة الجديدة باتهام كل من يعارضه بالشيوعية .

واذا كانت الحكومتان البريطانية والامريكية قد توصلتا الى نتيجة في مثل هذه اللحظة الحاسمة ، وكانتا قد قررتا بان الثورة في العراق هي انقلاب شيوعي

وحكمتنا على العراق بالابعاد ، كما سبق لهما ان حكمتا على سوريا في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ ، فانهما تكونان بذلك قد دفعتا بالعراق في اتجاه روسيا والشيوعية تماماً كما فعلنا في سوريا في الماضي . فاذا تحقق هذا فاننا نكون قد اقتربنا من النقطة التي يكون فيها الستار الحديدي قد اوشك على النزول على الشرق الأوسط ، وقد انضمت اليه الدول العربية الرئيسية التي تسيطر على طرق المواصلات الاستراتيجية الممتدة من المتوسط الى الخليج عبر سوريا والعراق وقناة السويس . وهنا تصدق نبوءة هرتزل . ونغدو في وضع قلق على طرق مواصلاتنا ، ويغدو خط اسرائيل الممتد من المتوسط الى خليج العقبة الوسيلة التي تريحنا من متاعبنا .

واثارت ثورة العراق طوفاناً من الاسئلة ، ولقد كنت ارقب ازمات الشرق الأوسط طيلة الثلاثين عاماً الأخيرة ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشرع فيها الجمهور والساسة والصحف بتوجيه الأسئلة ، عما يدور بين العرب . ولم تكن أزمة السويس قد تركت مثل هذا التأثير . وكانت الأسئلة التي اثارتها تتعلق بالتواطؤ ، وبمعارضة امريكا ، وبما اذا كان صواباً او خطأ وقف العملية العسكرية او البدء بها على كل حال . واذا استثنينا اقلية ضئيلة ولكنها مهمة ، فإن الساسة ، ورجال الصحافة لم يكونوا قد الفوا الاهتمام بالرأي العام العربي . وكانت سياسة ايدن التي استمرت حتى بعد استقالته ترتكز الى الافتراض الخفي بأن الرأي العام العربي ، إما انه غير موجود ، أو انه منبت وغير مترابط .

وأخيراً ، انهار ذلك المركز النهائي الرئيسي . وغدا حلف بغداد ميتاً بالنسبة الى العرب على الأقل ، وفجأة لاح في عقول الجميع ، ان هذا كان سبب المشكلة كلها ، كما بدت من اولها حتى نهايتها .

لقد بدأ النزاع في ربيع عام ١٩٥٥ ، وكانت القضية المعلقة ، هي ما اذا كانت الدول العربية ستشترك في حلف دفاعي مع الغرب ، يؤلف حلف بغداد رأس رمحه ، أو انها ستسير على سياسة الحياد على النموذج الذي اختطه عبد الناصر وسوريا . كانت هذه هي القضية الجوهرية ، التي اتخذت لها من الصهيونية

محوراً ، لأن العرب اعتبروا اسرائيل ، التعبير الرئيسي عن غرض الغرب في الاحتفاظ بالإشراف العسكري المطلق على شؤون الشرق الاوسط . وكان عبد الناصر ، قد قاوم هذه السياسة باسم الحياد ، وركز جهوده على الحيلولة دون تحقيقها ، بادياً امام الغرب بمظهر العدو . وقد أثار في محاولاته لتحقيق هذه الغاية ، وعن طريق دعايته ، واعمال انصاره الكثير من العداء والمرارة في فرنسا وبريطانيا وفي امريكا أخيراً ، وكذلك في اسرائيل والعراق والاردن ولبنان وتركيا وغيرها . وهكذا غدت جميع هذه الجهات ترى فيه العدو الذي يجب التخلص منه قبل كل شيء .

وادت هذه الفكرة المتسلطة ، الى انتزاع الهدف النهائي من العقول ، وهو الهدف الذي بدأت القضية كلها من اجله . فقد شرعت الحكومتان البريطانية والامريكية ، في سياستها وهما تستهدفان ان تجعلا من الدول العربية الرئيسية حلفاء لهما واصدقاء في الحرب الباردة مع روسيا ، وقد ارتبطت معهما عن طريق الاحلاف العسكرية . وها نحن نعود الآن الى الارض بصدمة عنيفة ، وقد ادركنا ان هذه الدول العربية الرئيسية الثلاث ، قد غدت الآن معادية لنا ومحايدة ، وقد ضاع منها جميع اصدقائنا فيها .

فماذا حدث ، واين الخطأ الذي وقع ? وبماذا كان يفكر العرب ? ان الشروح والتفاسير التي كانت تتجه اليها حكومتانا ، لم تكن تمت بصلة الى الحقائق كما رأيتها بنفسي من قلب الشرق الأوسط العربي . وكان الرأي العام ذاهلاً ومائعاً ، ولكن مثل هذه اللحظات من الاضطراب لا تدوم طويلاً عادة . فعلى الحكومة ان تقرر موقفاً في غضون ايام او اسابيع على اكثر تقدير ، وعلى سياسة الحكومة ان تتبلور بشكل نهائي . فاذا قدر لأسطورة المؤامرة الشيوعية ان تسود ، وان تسير هذه الاسطورة جنباً الى جنب مع الخرافة القائلة بان القومية العربية والشيوعية شيء واحد ، فان هذا يعني ان الموقف الروسي ستتوطد دعائمه بصورة حاسمة .

وأخذ بعض الرجال ، الذين يعرفون الشرق الأوسط تمام المعرفة ، والذين لم

يسمحوا لكراهيتهم لعبد الناصر بأن تحجب آفاق تفكيرهم ، يبدون آراءهم جهاراً ، وعلناً ، وفي طليعتهم الزعيم (البريغادير) لونغريغ ، وكلهم أمل في انهم سيتمكنون في هذه الأيام القليلة ، التي تنفتح فيها عقول الجماهير وآذانها ، من اختراق حجب الاساطير والخرافات والتضليل التي ظلت مسيطرة على الرأي العام البريطاني أمداً طويلا . وقد شجع هؤلاء ، غيرهم ، وانا بينهم ، على اضافة كل عون ممكن في هذا الاتجاه . وقد لخصت اسهامي في هذا الموضوع في رسالة نشرتها صحيفة التايمس اللندنية في الثاني والعشرين من تموز عام ١٩٥٨ ، قلت فيها :

« سيدي . اذا كانت الأسس التي تقوم عليها السياسات خاطئة ، فان الأعمال التي تنجم عنها ، تكون خاطئة ايضاً . وماذا تكون النتيجة ؟ اما ان نغير السياسة لتتفق مع الحقائق ، او نفرض الحقائق التي تتلاءم مع السياسة ؟

« وفي كل جولة من جولات الصراع في الشرق الاوسط ، يرى العربي ، ان سياستكم ، تصطدم مع الحقائق ، التي لا تستطيعون الاعتراف بصحتها ، لأن مجرد الاعتراف بصحتها يعني تهديم هذه السياسة . فبعد الحرب الكونية الأولى ، قمتم بتجزئة الشرق الأوسط العربي الى دول صغيرة ، وحكمتم هذه الدول . ولكي تضمنوا التحكم بها ، كان عليكم الإبقاء على تجزئتها . ولضمان الحفاظ على هذه التجزئة ، كان عليكم الإبقاء على اهدافكم في طي الخفاء . واذا لم تقوموا بذلك ، فإن الشعب الذي جزأتموه وحكمتموه ، سيتحد ، ويصعب قياده وحكمه .

« وهكذا فقد كان عليكم ، ان تحافظوا على ود العرب ، الذين تحكمون عن طريقهم ، بواسطة تأكيدات الصداقة والمنح ، ودعم السلاح ، عندما تسوء الاحوال ، وان تضربوا اولئك الذين يريدون الوحدة ، والذين يقاتلونكم للحصول عليها . وعليكم ان تصموهم ،

بمختلف النعوت السيئة من نازية وفاشية وشيوعية . وكان عليكم ان تظهروهم لشعبكم في بريطانيا وامريكا بمنظر الوكلاء المأجورين لعدوكم الأكبر . وعليكم ان تقنعوا شعبكم بان هذه العناصر الهدامة غير الموالية ، لا تمثل عواطف العرب كمجموع ، الذين لا يعدون ان يكونوا قوماً بسطاء يريدون الاستمرار في حياة التجزئة والتبعية .

« وهكذا وجدتم انفسكم تندفعون شيئاً فشيئاً وراء الافتراض الخاطىء الذي تقوم عليه سياستكم العامة ، وهو وجوب فرض الحقائق التي تتفق مع هذه السياسة . وأخذت حركة القومية العربية التي تعرف حقيقة تصميمكم على مقاومة الوحدة العربية مهما كان الثمن ، تقوى شيئاً فشيئاً ، ويشتد ساعدها . ولما كان عزمكم قد صح على معارضة قبول ما في هذه الحركة من واقع ، فقد تحتم عليكم ان تحاولوا التطويح برمزها الراهن ، جمال عبد الناصر ، وكأن التطويح بـه ، حتى ولو تحقق ، يقضي على الحركة ، وان تصبوا جام نقمتكم وغيظكم على الروس وعلى الشيوعية وكأنهما المسؤولان عن خلق القومية العربية .

« ويرى العربي انكم قد وصلتم الى الجولة الأخيرة . فماذا تعتزمون فعله ؟ هل تنوون ان تتفاهموا مع القومية العربيـة التي ارغمتم الآن على الاعتراف بواقعها ، وان تشتركوا معها في المنافع المتبادلة من الزيت والتجارة ، مع تسوية قضية اسرائيل بشكل يقبل به العرب ؟ أم هل تنوون الاستمرار في الادعاء بان القومية العربية لا توجد حقاً ، الا كشيء خلقه عبد الناصر والروس ، وان تدفعوا بالعرب الى المعسكر الروسي ، وان تقبلوا الشروط ، التي يستعد العرب لعرضها ، وقد اعتمدوا على تأييد روسيا ؟ أم هل تنوون لتغطية موقفكم ، ان تمضوا الى الحرب ؟ »

ترى ، أي طريق سنتبع ؟

الهدف الى الأمام

مهما حدث الآن ، فان الدول العربية الرئيسية ، وهي الجمهورية العربية ممثلة مصر وسوريا ، والعراق ، قد حزمت امرها بصورة حاسمة على رفض الدخول في احلاف عسكرية مع الغرب . وقد قرر رجال هذه الدول ان يملأوا الفراغ بانفسهم ، وان يبقوا بلادهم بعيدة عن اي منطقة نفوذ لأية دولة كبرى .

حقاً لقد كان وضعاً جديداً كل الجدة في تاريخ العصور الحديثة . فقد كانت طرق مواصلات الشرق الأوسط دائماً تابعة لمنطقة من مناطق النفوذ . وكانت افكار واعمال ساسة هذه البلاد وعسكرييها البديهية ، قد الفت هذه الحقيقة . فقد نشأوا وترعرعوا ، على ان يعتبروا هذا الوضع شيئاً طبيعياً ومقبولاً ، وضرورياً لا يحتاج الى سؤال . وظلت بريطانيا محتفظة بوضع السيطرة خمسة وسبعين عاماً . واستمر «الاشراف البريطاني الذي لا ينازع» على هذه المواصلات اربعين عاماً تقريباً بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى . وقد تقرر بعد الحرب الكونية الثانية ان من واجبنا « ان نحارب للمحافظة » على الشرق الأوسط . وقد جعلت بريطانيا قاعدة لها ، انها اذا لم تظل متمسكة بزمام السيطرة المقبلة ، حتى ولو بالاشتراك مع امريكا في السنوات الأخيرة ، فان روسيا ستقتحم المسرح ، اذ لا يمكن ان يظل هناك فراغ فيه .

ولكن السلطة السياسية في هذه البلاد الرئيسية الثلاث قد رفعت الآن من الايدي التي كنا نمارس عن طريقها اشرافنا . واقبلنا على المرحلة الحاسمة في

الثورة الطويلة التي خاضها الشرق الأوسط العربي ضد مناطق النفوذ البريطاني .

وتحتم على الحكومتين البريطانية والأمريكية ان تقررا شيئاً . فوراء هذا الاضطراب في الآراء بيننا كان هناك خلاف بين أولئك الذين يرون في الشرق الأوسط منطقة استراتيجية تضم شعباً من الشعوب ، وبين هؤلاء الذين يرون ف مجموعة من الشعوب تعيش في منطقة استراتيجية . وكان ضياع سيطرتنا المطلقه بالنسبة لأصحاب الرأي الأول ، وضياع الوسائل العملية لتأكيد هذه السيطرة في المنطقة كلها ، يخلق فراغاً لابد وان يقتحمه عدو ، ليملأه ، اذا فشلنا في تأكيد سلطتنا ، وقبولنا بهذا الفشل لا يعني إلا الهزيمة . اما بالنسبة الى اصحاب الرأي الثاني ، فقد كانت الإجراءات العسكرية اللازمة لإعادة فرض نفوذنا وهيبتنا ، غير مقبولة مطلقاً . فلقد حاولنا هذه الإجراءات في عام ١٩٥٦ وفشلنا فيها ، وهم يرون ، انه حتى لو اردنا التغاضي عن جميع النواحي الخلقية ، فإن جميع الدلائل العملية ، تشير الى ان اية محاولة جديدة من هذا النوع ستمنى بالفشل .

وانتشرت الشائعات ، بان الحكومة البريطانية فكرت بنوع من التدخل العسكري في العراق . وقد سبق لها ان تدخلت في عام ١٩٤١ ، عندما قامت القوات البريطانية بمحاربة الجيش العراقي وطرد رشيد عالي ، واعادة العهد الملكي . وقد قمنا بهذا في ذلك الحين لانقاذ العراق من الوقوع تحت سيطرة اعدائنا من دول المحور . وبدا التدخل امراً طبيعياً بالنسبة الى اولئك الذين باتو يعتقدون ان العراق سيقع تحت سيطرة اعدائنا الشيوعيين ، الا اذا قمنا بعمل حازم ، لا ترضية فيه ولا تهدئة ، فقد دارت العجلة من جديد دورة كاملة .

ولا ريب في انه لو جرى التفكير فعلاً في موضوع التدخل ، فان هذه الفكرة سرعان ما رفضت وانطوت . أما القوات الامريكية والبريطانية التي نزلت في لبنان والاردن ، فقد جاء نزولها بدعوة من السلطات الشرعية في هذين البلدين . وكان عملها والحالة هذه ذا طبيعة بوليسية ، أي انها كانت بمثابة قوات درك اضافية لمساعدة السلطات القائمة في مهامها الداخلية . أما التدخل في

العراق فسيكون عملا ذا طبيعة عسكرية مجردة ، وسيكون غزواً بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان .

وقبلت الحكومتان البريطانية والامريكية تمام القبول ، ان نصل الى تفاهم مع الحكومات الجديدة في الدول العربية الرئيسية على أساس من الاستقلال الحقيقي والحياد . وانتهت حقبة النفوذ البريطاني الطويلة ، وغدت شيئاً من أمور الماضي . ولم يكن في وسع هذا النفوذ كمنظمة ، ولقد كان منظمة حقاً ، ان يتعايش مع الاجهزة الجديدة في الشؤون العالمية ، ولا مع الدور الذي اخذ العرب يلعبونه في ادارة الشؤون الدولية . ولم يكن بالإمكان اجراء أي انسجام بين الحقيقة الواقعة وهي ان هذه الدول كانت واقعة تحت سلطة اجنبية ، وبين وضعها الاستقلالي اسمياً . وعندما وقع تحدي تلك السلطة بصورة جدية ، تحتم ان يقوم خيار ، فإما ان ينقلب الاستقلال الاسمي الى استقلال حقيقي بالتخلي عن السلطة التي كان من المفروض انها غير موجودة ، أو ان يزال الادعاء الظاهري ، وتفرض السلطة الجهرية المباشرة .

وعندما يتخذ القرار لتحويل الاستقلال الاسمي الى واقع ، فإن العلامة تغدو واضحة . واذا كانت طرق الشرق الاوسط ، لا يمكن ان تظل تحت اشرافنا المباشر ، فمن الخير بالنسبة الى المجموعة العالمية ، ان توضع تحت حماية دولية صحيحة .

ولكل دولة من دول العالم مصلحة في ضمان سلامة طرق الشرق الاوسط ، وحقول زيته وانابيب نفطه ، وفعاليتها ؛ وهذه المصلحة هي نفسها القائمة في الحيلولة دون فرض اشراف عسكري او سياسي عليها من الخارج ، وفي منع استغلال اصحاب هذه المنافع على حساب زبائنها استغلالاً احتكارياً . وفي أن كل دولة او مجموعة دول ، تحاول استخدام وسائل قوتها ، للحصول على نفوذ احتكاري او خاص تستغله لمصالحها المنفعية ، تثير عليها الدول الأخرى من « الزبائن » ، كما تثير العرب انفسهم . أما الدول التي تتولى القيادة في ايجاد علاقات دولية شاملة لمصلحة عالم « الزبائن » المشتركة ، ولمصلحة اصحاب هذه

المنافع من دول الشرق الاوسط ، فإنها تضمن تـــأييد الرأي العالمي ، كما تحظى بتأييد العرب انفسهم . وكان العرب ميالين الى قبول نشاط المنظمات الدوليـة الشاملة بقدر ما كانوا مصممين على رفض كل تدخل عسكري فردي .

ولا يتطلب تحقيق هذا اكثر من تحويل اتجاه الفكر . ولكن التبدل في حد ذاته جذري . بل انه خطوة ضخمة الى الامام . وأي ضمان يمكن ان يكون هناك تجاه مطامع الروس ، اذا لم يكن للغرب مركز خاص في الشرق الأوسط كمجموع ، وان تدعم قوات عسكرية مستقرة في هذا الشرق ، هذا المركز الخاص ؟ واذا استخدمنا التعابير العسكرية ، قلنا انه ظلت هناك القدرة والاستعداد على التدخل بالقوة المسلحة من مراكز خارجية ، طبقـاً لشرعة الأمم المتحدة ، في حالة قيام روسيا بأي هجوم عسكري على الشرق الاوسط . أما طبقاً للتعابـير السياسية ، فهنـــاك الاصرار المسيطر على دول الشرق الاوسط للحفـاظ على استقلالها ، ومثل هذا الاصرار سيكون اكثر فعالية اذا اشتركت جميـع دول العالم في احترام هـــذا الاستقلال وتقوية دعائمه ، عن طريـق الترويج للمصالح الاقتصادية المتبادلة بيننا وبين هذه الدول . وكلمـا ازداد تواكل العالم وترابطه اقتصادياً وتقنياً ، فان هذه القوة تغدو اكثر فعالية بصورة مباشرة ، ذلك لأن الترابط يخلق « روافع » للنفوذ ، ولأن منظمة الأمم المتحدة هي السوق السياسية المركزية ، التي تتركز فيها التأثيرات العملية ، وتمارس نفوذها .

وأدت الاهمية العالميـــة لاحتيـاطي الزيت في الشرق الأوسط ، ولطرق المواصلات فيه ، الى ان تصبح النواحي المتعلقة بالعنـــاية الدولية بـهذه الموارد والطرق ، محوراً طبيعياً للعمل في الامم المتحدة . وهنـــاك نشاطات عدة تتعلق بالتطور الاقتصادي ، تستطيع فيها الوكالات التقنيّة والمالية التـــابعة للأمم المتحدة ، ان تؤمن سبيل الاتصال بين دول الشرق الاوسط والدول المتطورة ، مما يعتبر أحسن تعبير عن أمية المصالح المشتركة وشمولها .

وقد جاء هذا الكيان المتبدل في النظام العالمي الذي يدعو الى تعديل افكارنا تجاه الشرق الأوسط ، مفاجئاً تماماً ، اذا قسنا سرعة التبـــدلات على صعيد

السرعة التي يستطيع فيها العقل الانساني ان يستوعب الاشـكال الجديدة وان يترجمها الى علاقات جديدة بين المنظمات . على أي حال ، كانت هـذه قضية حقب ، ولا تزال ، وعملية التكييف ، والتعديل تتطلب بعض الوقت . وليس من محض الصدفـة ، ان الوقت قد بات ناضجاً في هـذه الاجزاء من الشرق الأوسط ، التي تسيطر ، سيطرة دقيقة ، على كل ما يهم العالم باسره ، من أمور مشتركة ، هي ما يضمه هذا الشرق من مفترق طرق بين القارات .

ويجب ان ينبع ذلك الطراز من القيادة الذي يتحتم علينا ان نضفيه الآن على علاقاتنا بالشرق الأوسط ، كما نضفيه على علاقاتنا بأي بلد آخر ، من الافكار لا من القـوة والسيطرة ، ومن التحسين الاقتصادي لا من السلاح ، ومن خلق المنظمات التي تتولى رعاية الشؤون العالمية بصورة شاملة ، لا من المحالفـات الخالصة . ومن هذا العصر من التعليم النـامي ومن التواكل المتزايـد ، ومن الاذاعات اللاسلكية والسرعة الشمسية في الرحلات الجوية ، والافلام السينمائية ، غدت للرأي العام العالمي قيمة اكثر ممـا كانت عليه في أي يوم مضى . وتنشأ العادات عن الرأي العام ، ويتولد القانون عن العادات . وفي علاقاتنا مع شعوب الشرق الاوسط ، التي تضم بلادهامنافع – لها وللعالم كله مصالح مشتركة فيها – ، في وسعنا ان ننحو نحواً جديداً يجعل تاريخ العالم كله ، يسير في اتجاه حديث .

ذيل

على ضوء مذكرات السير انتوني ايدن « الحلقة الكاملة » .

اود ان اقصر الحديث في هذه العجالة الصغيرة على تلك الاجزاء من كتاب السير انتوني ايدن ، التي تحاول ايضاح شيء من تأثيرات سياساته على العالم العربي .

يزعم ايدن ، انه لو تلقى تأييداً لسياسته من الحكومة الامريكية ومن المعارضة في الوطن ، فإن هذه السياسة كانت ستنجح حتماً . واذا ترجمنا هذا القول الى اللغة « الدارجة » لرأيناه يعني انه لو سمح له بانهاء القضية في السويس في عام ١٩٥٦ ، لسارت الأمور على ما يرام .

ولا ارى جدوى هناك من مناقشة الموضوع ، الا اذ عرفنا نوع تلك السياسة التي كان من المحتمل لها ان تنجح او تفشل . ولقد كان ايدن صريحاً ، ففي نهاية عام ١٩٥٤ ، كان قد تم التوقيع على المعاهدة الانكليزية – المصرية ، وكان من المقدر لهذا الاتفاق ، اذا نفذ في حالة طارئة « ان يمكننا من الدفاع عن مصر وقناة السويس » . ولكن هذا لم يكن كافياً ، اذ « في مثل هذه الحالة على الاقل ، ستترك المنطقة الشمالية الحيوية مكشوفة معرضة » . ثم ترد الجملة التالية المهمة « ولقد كانت سياسة حكومة جلالتها ، تقوم على اقامة تحالف يكون من الفعالية بحيث يحول دون ذلك » . واعلن مندريس تركيا ونوري العراق في كانون الثاني عام ١٩٥٥ ، عزمهما على عقد ميثاق للتعاون المشترك . وقرر ايدن أن علينا « ان نؤيد هذا الميثاق . وان ننضم اليه ايضاً على سبيل الاحتمال » .

وخيل اليه ان « في الامكان ان ينمو هذا الميثاق ، ليصبح حلفاً كحلف الاطلنطي بالنسبة للشرق الأوسط » .

وهنا تم وضع سياسة « النطاق الشمالي » الذي يضم تركيا وايران والباكستان . وكان من الاهمية الاستراتيجية بمكان عظيم ، ان يدعم هذا النطاق بأحلاف تشمل الارض العربية وطرق المواصلات . وكان في امكان سياسة ايدن الرئيسية ان تنجح ، اذا قدر له اقناع الدول العربية ولا سيما الاردن ولبنان ، بالانضمام الى حلف بغداد .

ويبدو ان ايدن كان مقتنعاً حتى هذا الوقت ، بان النجاح لا يأتي الا بطريق الاقناع . فقد كتب يقول . « وكان من المهم ان نتخلص من صبغة المعلم والتلميذ » ، كما كتب ايضاً : « لا يمكن تأمين الدفاع عن العراق الا بالتعاون مع القوات المحلية » ، و « ان جميع الدول المشتركة ستكون فرادى ومتساوية » و « ان نظام الاحلاف سيقوم على فكرة التعاون بين الشركاء المتساوين وهي الفكرة التي جعلناها هدفاً في اقامة علاقاتنا بصورة عامة مع جميع دول الشرق الاوسط » . (مذكرات ايدن من ص ٢٢٠ — ص ٢٢٧) .

حقاً لقد كانت عواطف تستحق الاعجاب . وعندما قدم ايدن سياسته هذه الى البرلمان والرأي العام على هذا الضوء ، كان يضع القواعد الممكنة الوحيدة لايجاد ذلك التعاون الودي مع العرب ، وهو تعاون كان ضرورياً كل الضرورة اذا أريد لحلف بغداد ان ينمو ليصبح حلفاً كحلف الاطلنطي بالنسبة للشرق الأوسط » .

ولكن الرئيس عبد الناصر ، وقف في الطريق . وقد دار الحديث بين عبد الناصر وايدن حول هذا الموضوع بعد مأدبة عشاء اقيمت في القاهرة في مطلع عام ١٩٥٥ ، قبل ان تعلن بريطانيا عن عزمها على الاشتراك في حلف بغداد . « وقد اعلن عبد الناصر ان مصالحه وعواطفه مرتبطة مع الغرب ، ولكنه ذكر « ان الميثاق التركي - العراقي ، بتوقيته السيىء ، ومحتوياته التعيسة ، قد اخر بصورة خطيرة تعاون الدول العربية الفعّال مع الغرب » (مذكرات ايدن

ص ٢٢١) . ولم يلمح ايدن الى انه كان يأمل في كسب موافقة عبد الناصر ، ولكنه قال : « واستعملنا كل وسيلة ممكنة من الحجج لاقناع عبد الناصر على الأقل في وقف انتقاده للميثاق ... ولكن عبد الناصر ، لم يكن مستعداً مع ذلك للاقتناع بموضوع المشروع التركي – العراقي » . وقد علق ايدن على ذلك في تقريره إلى لندن بقوله « لا شك ان الغيرة تلعب دورها في هذا ، وكذلك الأمل الضائع في زعامة العالم العربي » . وتحمل هذه الجملة الافتراض بان رغبة عبد الناصر في قيادة العالم العربي ستظل عرضة للخيبة ، وهذا هو الذي حمل ايدن على المضي في حلف بغداد على الرغم من معرفته بانعبد الناصر سيعارضه .

ولكن عبد الناصر ، تغلب في مستهل عام ١٩٥٦ على هذه الخيبة ، وغدا بسرعة قائد العالم العربي وزعيمه . وتأخر ايدن في ادراك هذا الخطر سنة واحدة على الأقل . ولقد قال ايدن « وكانت سياستنا العامة في الشرق الأوسط تتركز على حاجتنا الى حماية المصالح البريطانية في العراق والخليج . ويقوم التهديد الرئيسي لهذه المصالح في النفوذ المتزايد لعبد الناصر ، بما له من عقائدية معادية للغرب ، ومن ممالأة لروسيا السوفياتية ولا سيا في قضية التسلح » .

ولكن اذا كان الرئيس عبد الناصر مخلصاً في حديثه الى ايدن في نهاية عام ١٩٥٤ ، في « ان مصالحه وعواطفه تقوم مع الغرب » ، فلماذا احتضن الآن « عقائدية معادية للغرب ؟ » . لقد اوضحت في هذا الكتاب ان القوميين العرب لم يكونوا ضد الغرب وضد عقائديته لأنه غرب ولأنها عقائدية غربية ، بل كانوا ضد ما اعتقدوا انه محاولة من الحكومة البريطانية لإقامة جهاز جديد من المحالفات للاستعاضة به عن المعاهدات السابقة ، بحيث تضمن هذه الاحلاف بقاء العرب في موقف الطالب ، والحكومة البريطانية في موقف الوصي الحارس ، بينما تكون اسرائيل هي المستفيدة الرئيسية . وكانوا يعتقدون ان للسياسة البريطانية وجهين ، يتجه احدهما الى العرب متوقعاً السلطة عليهم كحق وطالباً لها ، ويتجه الثاني الى الرأي العام في بريطانيا والغرب ، وهو ينكر أي عزم على الرغبة في السيطرة على العرب ، مصراً على ان لا يكون هناك أية صفة

« للطالب والوصي » .

ويستورد ايدن نفسه كلمة « السلطة » بانطلاق وحرية في جميع مذكراته . وهو يقول في ص ٢٥٦ من مذكراته : « واذا تخلينا عن مركزنا في مصر ، دون تأمين قاعدة بديلة (كان هذا في عام ١٩٥٤) فان تأثير ذلك على سلطتنا في الشرق الأوسط كله سيكون مدمراً » . وكتب عن قناة السويس يقول : « وستتوقف على نتيجة الخلاف سيطرة من ستكون الثابتة » . وعندما طرد الملك حسين الفريق غلوب في آذار عام ١٩٥٦ ، حلل ايدن السبب قائلاً : « لقد كان الدافع هو غيرة شاب من رجل أكبر منه سناً مضى عليه طويل وقت وهو متمركز في سلطته » . ومضى يقول : « وكان هذا أمراً مقبولاً على الفهم ، ولكن الحادث على كل حال كان مدمراً للسيطرة البريطانية » .

ويتحدث ايدن عن الأحداث التي أدت الى ثورة مصر في عام ١٩٥٢ ، فيحسر النقاب عن خطة بريطانية وضعت للتدخل العسكري في القاهرة . وكان الملك السابق فاروق يحذر السفير الامريكي من ان « التدخل البريطاني وحده هو الذي يستطيع انقاذه وانقاذ اسرته » . وكان الملك يعتقد انه « لو حدثت ثورة فان القوات البريطانية ستأتي في النهاية لإنقاذه » ولكنه كان مخطئاً في هذا الاعتقاد لأن ايدن قد « اوضح بصورة متكررة لسفارتنا بان القوات البريطانية لن تتدخل للإبقاء على الملك فاروق على عرشه » . ولا ريب في ان هذه الفقرة الهامة تحسر النقاب عن مقارنة هامة ، بين السير انتوني ايدن الذي يخاطب مجلس العموم ويقول بان الضرورة تقضي بعدم وجود « صفة الطالب والوصي » في علاقاتنا مع العرب ، وبين ايدن الآخر ، الذي يبدو وكأنه يفترض كشيء لا بد منه ، ان السلطة البريطانية في الشرق الأوسط ، يجب ان تكون المسيطرة الى الحد الاقصى ، الذي يسمح لوزير خارجية بريطانيا بأن يقرر ما اذا كان يستطيع ملك مصر ان يظل على عرشه او لا .

وكان هذا الافتراض من وجود الحق والقوة لدى بريطانيا في ممارسة سلطتها في شؤون الدول العربية هو الذي حمل القوميين العرب بزعامة عبد الناصر على

الثورة . وهذا هو الايضاح الجوهري لتلك الحلقة من الأزمات التي بدأت بحلف بغداد وانتهت بثورة العراق في عام ١٩٥٨ . وقد اراد ايدن ان تظل « السلطة » البريطانية مسيطرة على الشرق الاوسط ، بينما اراد العرب ان يتحرروا من هذه السلطة ، ومن « اليد المُعينة » التي تعطيها للصهيونية . وقد ادت أوضاع العالم المتغيرة وزعامة عبد الناصر ، الى اعطاء القوميين العرب الوسائل للفوز بذلك الاستقلال من السلطة الاجنبية ، الذي وعدوا به في نهاية الحرب الكونية الاولى . لقد كانت المرحلة النهائية من الثورة العربية .

ولو تحقق النجاح لسياسة ايدن ، لتغلبت السلطة البريطانية او السلطة الانكليزية – الامريكية على الشرق الاوسط . اما اذا فشلت سياسة ايدن ، فان تلك السلطة لن تتغلب ، وسيغدو الاستقلال الذي كان من المفروض ان تكون الدول العربية قد حصلت عليه قبل ربع قرن حقيقة واقعة . لقد كانت هذه هي الاهمية الصحيحة لتلك السلسلة من الازمات التي توالت بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ والتي لم تكن ازمة السويس الا واحدة منها .

وعندما نمضي في قراءة مذكرات ايدن ، تختفي من امامنا الصورة الاصلية عن تلك السياسة الرامية الى اقامة « حلف اطلنطي » للشرق الاوسط من حلف بغداد . وكان آخر ذكر مهم لهذه الصورة ، في محتوى رفض الاردن الانضمام للحلف وفي طرد الملك حسين للفريق غلوب في آذار عام ١٩٥٦ . وتعود المذكرات ، فلا تذكر حلف بغداد الا في ثلاثة مواضع . ويعود في نهاية كتابه فيقول : « وهكذا لم يقدر لنا النجاح في تحقيق هدفنا الواسع » . ولكن هذا « الهدف الواسع » قد تبدل الآن تبدلاً كاملاً . انه لم يعد المخطط العظيم لإقامة « حلف أطلسي » للشرق الأوسط من « حلف بغداد » ، وهو الهدف الاساسي الذي كنا وضعناه نصب اعيننا عندما شرعنا ننفذ الحلف . أما « الهدف الواسع » الذي لم ننجح في تحقيقه ، فقد عرفناه على النحو التالي : « اننا لم نستطع ان نحقق سلاماً عربياً اسرائيلياً أو نعيد الاشراف الدولي على قناة السويس ... وقد ظل عبد الناصر الحاكم في مصر ، وظلت مطامحه الخطرة تواجهنا » .

وعندما يقول البعض ، انه لو قدر لإيدن ان يضمن تأييد الامريكيين والمعارضة البريطانية ، وان « ينهي المهمة » ، فانهم يعنون بهذه المهمة ، الاستيلاء على السويس عسكرياً ، والتخلص من عبد الناصر . وقد يكونون على حق في افتراضهم هذا ، اذ ان مصر لا تستطيع الوقوف عسكرياً في وجه القوة العسكرية المشتركة لامريكا وبريطانيا وفرنسا واسرائيل . والحقيقة ، هي ان القوميين العرب عندما اقتنعوا بأن هذا هو ما يريده ايدن حقاً ، وانه لا يريد الا اعادة السيطرة البريطانية بدعم من امريكا على الشرق الاوسط ، وانه قد تخلى عن جميع ادعاءاته عن « مفاهيم التعاون بين الشركاء المتعادلين الذي كان هدفنا في جميع علاقاتنا مع دول الشرق الاوسط » ، فإنهم أي القوميين ، لم يعد في امكانهم ان يفكروا بأي تعاون معنا .

ولما كان العرب قد اقتنعوا من كلام ايدن نفسه ، بأنه يريد في الحقيقة فرض سيطرته عليهم ، فقد اصبح من المحتوم ان تنمو المعارضة العربية وان تزداد قوة ، كلما تابع ايدن السير في سياسته . ولما كان قد اعلن في الوطن ان سياسته تقوم على اساس التعاون بين الانداد ، دون « صفة المعلم والوصي » ، فقد كانت هذه السياسة هى الوحيدة الحرية بأن تلقى تأييداً كاملاً في الوطن . ولكن لما قام الشك في نواياه ، ورئي ان هدفه الحقيقي هو فرض السيطرة ، فقد انقسمت البلاد على نفسها فخسر بذلك التأييد الذي كان تواقاً اليه .

ولا ريب في ان الحكومة الامريكية ، والمعارضة البريطانيـة في منعهما تأييدهما عن ايدن لسياسته ، انما كانتا تعترضان على هدفه العسكري في اغتصاب القناة والإطاحة بعبد الناصر ، ولو استمع الى نصيحتهما ، لكان في الامكان تحقيق الهدف السياسي من التعاون مع العرب . ولكن ايدن ، باصراره على متابعة سياسته رغم انف الحكومة الامريكية والمعارضة البريطانية ، ضمن الفشل لهدفه العسكري ، وهو كفيل بان يقضي على كل احتمال في تحقيق الهدف السياسي .

لقد كان عداء الرأي العام العربي لسياسته هو الذي هزم هدفه ، لا الافتقار

الى تأييد امريكا او المعارضة البريطانية . فلقد انقضى منذ عهد طويل ، الوقت الذي كان فيه العرب على استعداد للتعاون في لعبة التظاهر بالاستقلال بينما هم في الحقيقة ، ينفذون أوامر سادة داوننغ ستريت . ولأسباب مماثلة ، انقضى الوقت ايضاً الذي كان فيه البرلمان والرأي العام البريطانيان ، يقبـلان بلعبة الادعاء بالتعامل مع الدول العربيـة على « صعيد التعاون بين الانداد » ، بينما تـكون المحاولة في الحقيقة مستهدفة فرض السيطرة عليهـا . وجاءت مذكرات السير انتوني ايدن مؤيدة كل التأييد ، لما اعتقده ناقدوه في حينه ، من انه لم يكن قد لاحظ هذه التبدلات . وليس في المذكرات ما يوحي ايضاً بان السير انتوني ، قد ادرك هذه التبدلات حتى الآن . وهناك خطر ماثل في هـذه الحقيقة ، لأن اولئك الذين ما زالوا يقولون ان ايدن كان على حق ، يبدون وكأنهم يغمضون عيونهم لكي لا يروا الوقائع والظروف على حقيقتها الراهنة

المراجع

١ – السير انتوني ايدن – الحلقة الكاملة – مذكرات – ٨
٢ – جورج كيرك – موجز تاريخ الشرق الأوسط ١٩٤٨
٣ – لونغريغ – العراق من ١٩٠٠ الى ١٩٥٠
٤ – مجيد خضوري – العراق المستقل – ١٩٣٧
٥ – الان تيلور – مقدمة الى اسرائيل ١٩٥٩
٦ – وايزمن – التجربة والخطأ ١٩٤٩
٧ – الكولونيل هانيرتز هاغن – يوميات الشرق الاوسط ١٩١٧ – ١٩٥٦
٨ – الرئيس عبد الناصر – فلسفة الثورة ١٩٥٥
٩ – مونتغوميري – مذكرات ١٩٥٨
١٠ – هاري ترومان – مذكرات ١٩٥٥
١١ – غلوب – بريطانيا والعرب ١٩٥٩
١٢ – لودر ميلك – فلسطين – ارض الميعاد ١٩٤٦
١٣ – ايمري – حياتي السياسية – المجلد الثاني ١٩٥٥
١٤ – اللورد سولتر – تطوير العراق ١٩٥٥
١٥ – اللورد بيرد وود – نوري السعيد ١٩٥٩
١٦ – هرتزل – يوميات ١٩٥٨
١٧ – وثائق الحكومة البريطانية
١٨ – هانسارد – مجلدات ...
١٩ – صحف التايمس والمانشستر غارديان والأوبزرفر والاوقات العراقية .

فهرس

صمم الغلاف ونفذه

شموط اخوان

مطابع دار الغندور - بيروت



ميشيل ايونيدس ، بريطاني عاش في الوطن العربي امداً طويلاً ، ودرس مختلف نواحي حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية... عاصر سياسة بريطانيا في الوطن العربي...
ورافق وعد بلفور وصك الانتداب وماسبباه لفلسطين السلبية.
وشهد العراق وهو يدفع دفعاً الى الدخول في حلف بغداد..
وراقب ازمة السويس والعدوان الثلاثي على مصر عن كثب..
وأبصر بمبدأ ايزنهاور يحاول فرض نفسه... فيفشل فشلاً ذريعاً.

ثم كتب هذا الكتاب...

انه يصور فيه. .

سياسة بريطانيا الاستعمارية الممثلة في المعاهدات...
اهداف الصهيونية منذ نشوئها حتى قيام الدولة المزعومة...
سيطرة الصهيونية على الرأي العام في بريطانيا وامريكا...
الاتجاه الجديد للاحلاف الجديدة...
ثورة مصر... وتبدل الاتجاهات.
الاوضاع التى ادت الى ثورة العراق...
ازمة السويس والعدوان على مصر...
وحدة مصر وسوريا وقيام الجمهورية العربية المتحدة...

ومواضيع اخرى كثيرة...

كتاب جدير بالقراءة..

منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ص.ب ١٨١٣

الثمن:
٤٥٠ ق.ل.
٥٠٠ ق.س.